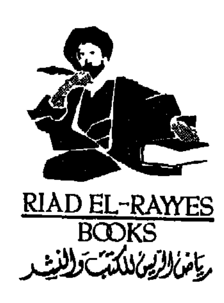
عبد السلام العجيلي

إدفع بالتي هيَ أحسن

جولات في العلم والفكر والسياسة


RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

إدفـــع بالـتي هيَ أحســـن

PAY AS YOU LIKE

ESSAYS IN SCIENCE AND POLITICS

BY

ABDUL SALAM AL-UJAYLI

First Published in 1997

LONDON - BEIRUT

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 289 3

الغلاف: التصميم لمحمد حمادة

الرسم لوحة للفنان الانكليزي: مايكل لويس

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٧

المحتويات

القسم الأول

١٩٧٣ ـ ١٩٧٥

القسم الثاني

١٩٨٣ ـ ١٩٨٦

مقدمة

ويسألني سائل: أنت تكتب القصة القصيرة والرواية والمقال، وتتحدث إلى المستمعين في محاضرات مكتوبة، وكنت تنظم الشعر أيضاً... ما الذي يدعوك إلى اختيار لون بعينه من الكتابة، دون غيره من الألوان، لتصوغ به فنّك وتضمنه أفكارك؟

سؤال أعملت فكري في الإجابة عليه، لأني لم أكن حدثت نفسي بموضوعه قبل أن يلقى عليّ. تبين لي أن اختياري للون من ألوان الكتابة يخضع لعوامل عدة. بعضها شخصي يرتبط بالفكرة التي أريد أن أعبر عنها فيما أكتبه، وبعضها خارجي يتعلق بالذين أكتب لهم أو الذين أريد أن يقرأوا ما أكتب. عدا عن تعلق بعضٍ من تلك العوامل بمكان النشر وبظروف الزمان والمكان. بيد أني تبينت غير ذلك أنه مهما كان اللون الذي أكتب فيه فإن روحاً واحدة تظل مسيطرة عليه، هي روح القصّ والحكاية. إنها الروح الظاهرة والمتوقعة سيطرتها في مجموعاتي القصصية ورواياتي المتعددة. إلاّ أنها موجودة في ألوان كتابتي الأخرى، لا يخلو منها حتى ما نظمته من شعر حين كنت أنظم الشعر. فهي موجودة في محاضراتي التي ضمنتها بعد ما ألقيتها على المستمعين، أو ضمنت بعضها، خمس مجموعات مطبوعة. وموجودة كذلك في مئات المقالات التي نشرتها في الدوريات العربية المختلفة خلال عشرات السنين الماضية، والتي

أقدم طائفة منها في هذا الكتاب بعد أن قدمت بعضاً منها في كتب لي سابقة، آخرها كتاب «جيل الدربكة» الذي صدر في عام ١٩٩٠ عن «شركة رياض الريّس للكتب والنشر».

نعم، إنها طائفة من المقالات أقدمها في هذا الكتاب. وما أَلِفَه الناس هو أن يكون المقال نوعاً من البحث أو الدراسة أو التعريف بموضوع بعينه، تساق فيه المعلومات وتورد الاحصائيات وتطلق الأحكام المستنتجة من هذه وتلك أو المبنية على هذه وتلك. وما أكتبه في مقالاتي ينطبق من بعض نواحيه على ما أَلِفَه الناس في المقال بصورة عامة. إلاّ أني لا أملك إلاّ أن أفرده عن المألوف، وذلك حين أجدني، وبصورة عفوية، أضفي عليه روح القص والحكاية التي أشرت إليها. صحيح أني أسوق في المقال المعلومات وأورد الاحصائيات وأطلق الأحكام، إلاّ أني أفعل ذلك من خلال حكايات وأخبار وروايات من التاريخ الماضي أو من واقع الحاضر، كأني بذلك أكتب قصصاً فنية ولا أعالج قضية سياسية أو أثير جدلاً فكرياً أو أنقل بحثاً علمياً. هذه الطريقة التي قلّ أن شذذت عنها في كتابة المقال جعلت بعضاً من القراء، ومن النقاد، يبعد عن مقالاتي صفة الدراسة أو البحث متصوراً أنها نتاج إبداع فني بحت لا يستحق أن يوصف بالجدية في معالجة أمور العلم والفكر والسياسة.

لعلي لم أبدأ مقدمتي بهذه السطور إلاّ لكي أدعو قارئي إلى أن لا يُخدع بطريقتي القصصية فيما أتكلم عنه، فيغفل عما أريد أن أعرّفه به في لب ذلك الكلام. فما القص إلاّ سبيلي إلى تشويقه، تشويق القارىء أعني، ليتابعني فيما أتحدث به، إلى جانب كونه إحدى وسائلي في البرهنة على صحة أفكاري بضربي الشواهد من القديم والحديث على هذه الصحة. أما المحتوى الذي أضمنه المقال فهو، كما سيتحقق منه قارىء هذا الكتاب، قلّ أن يبعد عن معالجة هموم الإنسان، والإنسان العربي بصورة خاصة، وعن قضايا المجموعات البشرية، والأمة العربية أول هذه المجموعات. وإذا كان صحيحاً أن أكثر مقالات هذا الكتاب تدور حول أحداث وقتية شغلت الخواطر وملأت أعمدة الدوريات وقت كتابتها، فإن الصحيح كذلك أنها

كتبت لتثبت في الأذهان ولتعطي قارئيها أحكاماً أكثر ديمومة من تلك الأحداث. أو أنها على الأقل كتبت بأسلوب يمنحها خصائص الوثيقة التاريخية، بتسجيلها أحداثاً كانت وقتية إلاّ أنها تركت آثارها في المستقبل بعد أن استمدت عناصر حدوثها من الماضي.

ولست، على كل حال، أريد فيما أوردته آنفاً أن أعتذر عن الطابع الفني، أعني ما سميته بالروح القصصية، الذي وسمتُ به في هذه المقالات آرائي وأحكامي في أمور العلم والفكر والسياسة. إن لهذا الطابع حسناته التي تشفع بمآخذه، إذا كانت عليه مآخذ. فهو، حتى حين تنتفي دواعي الاهتمام بالأحداث الوقتية التي تعالجها المقالات، يظل محتفظاً بما تحمله قصصها وحكاياتها من قيمة فنية ممتعة لا تتغير بابتعاد الزمن الذي تتحدث عنه. فهل ألغى تقادم الأزمان على حكايات وقائع العصور الماضية روعة الأداء الفني لهذه الحكايات كما قصها علينا قدامى الكتّاب، أم أنه زادها قيمة وإمتاعاً للقراء والسامعين؟

أرجو أن يغفر لي القارىء شططي في حسن تقديري لما سيقرأه في هذه الصفحات من نتاج قلمي. إنه شطط ساقتني إليه رغبتي في تبرير استخراج هذه الصفحات من مظانها المبعدة سنوات عديدة عن أيامنا هذه، ثم وضعها أمام عينيه ليقرأها. أقصد بالمظان البعيدة صفحات الدوريتين اللتين نشرت فيهما لأول مرة مقالات هذا الكتاب، وذلك في فترتين من الزمن ماضيتين، الأولى بين عامي ١٩٧٣ و١٩٧٥ والثانية بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٦. إنهما فترتان قديمتان ومعاصرتان في آن واحد، أقربهما تعود إلى عشر سنوات ماضية، إلاّ أن أحداثهما الفائتة لا تزال في البال ولا تزال آثار تلك الأحداث تطبع حاضر الأحوال. وبالطبع ليست مقالات هذا الكتاب هي كل ما حررته ونشرته في الفترتين اللتين أشرت إليهما ولا في الفاصل الزمني بينهما. غير أني اخترت لكتابي هذا أن أجمع المتشابهات مما كتبته، سواء في طريقة المعالجة أو في نوعية المواضيع المعالجة. وهذه المتشابهات كنت أنشرها شهرياً، أو ما يقارب كل شهر مرة، في دوريتين كانت تصدران في بلدين عربيين مختلفين وكان يرأس تحريرهما صديقان

لي، هما اللذان كانا بصداقتهما يحثانني على متابعة الكتابة لدوريتيهما. أولى الدوريتين هي مجلة «الديار» البيروتية وكان يرأس تحريرها الأستاذ ياسر هواري، والثانية مجلة «الدوحة» القطرية حين كان يرأس تحريرها الأستاذ رجاء النقاش.

وبعد كل هذا الكلام في التعريف بمقالات هذا الكتاب أترك القارىء لما سيقرأه منها فيه. فهي على كل حال، في التعريف عن نفسها بنفسها، أجدر مني بذلك وأقدر مني عليه.

الرقة

آذار/مارس ١٩٩٦

عبد السلام العجيلي

القسم الأول

١٩٧٣ ـ ١٩٧٥

ومضة نور

حين يطبق الليل بظلمته المتكاثفة على الكون يستضيء الإنسان بنور الحباحب وتبدو لعينيه شعلة عود الثقاب وكأنها شمس ساطعة.

وفي عالمنا الحاضر يتراءى لنا، نحن العرب، أن الظلمات مطبقة علينا من كل جانب... ليس علينا وحدنا، بل على الإنسانية كلها. القوة الغاشمة تنيخ على العالم بكلكلها. إنها تسلب الحق، وتقتل الأبرياء، وتصبغ بالسواد كل المصابيح المضيئة... ولا سيما تلك التي نحاول أن نرى، نحن العرب، في شعاعها طريقنا إلى حقنا المسلوب وإلى ممارسة حياتنا حرة كريمة. فإذا برقت لنا ومضة في الأفق البعيد انكشفت الغمة عن صدورنا بعض الشيء، وانبعث في نفوسنا الأمل بأن منابع النور لم تنضب كلها، وبأنها لا بد ستفيض لتطرد سلطان الظلام المطلق.

إحدى ومضات النور هذه برقت في عيني منذ أيام فأحيت في نفسي الأمل الذي كادت تخنقه فتكات الأعداء، والبغضاء بين

الأخوان، وهواننا على القريب والبعيد. تلك الومضة برقت لي في جدة، منذ أيام، بينما كنت في طريقي إلى مكة المكرمة.

* * *

في بهو الفندق في جدة لقيت، ومن دون ميعاد، صديقي القديم. سررت بلقائه بعد طول افتراق فسألته عن أخباره، وعن نفسه وأهله. قال لي: الأولاد بخير والحمد لله. إنهم موزعون على الجامعات، منهم من أتمّ دراسته الهندسية فهو يزداد تخصصاً، ومنهم من لا يزال في أولى مراحل الدراسة... ولكن الذي يعجبك هو ابني بشر.

قلت له: وماذا فعل بشر؟

قال: إنه يدرس الصيدلة في كليرمون ـ فران، في فرنسا. عاد منذ سنتين فزوجته من دمشق، ابنة صديقنا الذي تعرفه، فتاة من طرازه في المعتقد وفي العمل، ثم رجعا معاً إلى تلك البلاد وإليك، هذه رسالته الأخيرة إليّ...

أخرج صاحبي رسالة ابنه من جيبه وراح يقرأ لي من سطورها خبر ومضة النور التي تحدثت عنها آنفاً. كان الخبر تتمة لما كان بشر، ابن صديقي، قد أعلم أباه به عن الجهود التي يبذلها لجمع كلمة العمال المسلمين في كليرمون ـ فران والعناية بأمورهم. ففي هذه المدينة التي تقوم فيها مصانع ميشلان الجبارة تعمل أعداد كبيرة من المغاربة المسلمين، وهم فيها بعيدون عن أوطانهم وعما يربطهم بقوميتهم وبدينهم الحنيف، وعن السلوك القويم الذي يدعو إليه هذا الدين والذي يليق بتلك القومية. لقد قسم بشر، تعاونه في ذلك زوجته الدمشقية الشابة، وقته بين دراسته الجامعية وبين الاتصال

بهؤلاء العمال والتحدث إليهم، والتعرف على مشاكلهم، والسعي لصلاح أمرهم. وفي رسالة بشر الأخير يقول الفتى لأبيه هذا الكلام الذي أنقل معناه إذا لم أكن قد حفظت نصه:

«حدثتك من قبل عن محاولاتي الكثيرة لإيجاد محل صالح لأن يكون مسجداً يجتمع فيه اخواننا العمال، فيلتقي فيه بعضهم ببعض ويصلون فيه لربهم. لقد كتبت بهذا إلى مطران كليرمون ـ فران وإلى محافظ المدينة أسألهما السماح لي باتخاذ بعض الأماكن المهجورة مصلّى إسلامياً، فجاءني من كليهما، من المطران والمحافظ، رسالة مهذبة ولكنها تحمل إليّ اعتذاراً عن عدم إمكانية تلبية طلبي. ولكن الذي يثلج صدرك أني تلقيت من أحد الرهبان هنا، ومنذ أيام قليلة، كتاباً يذكر لي فيه أنه علم بمسعاي وأنه يعرض عليّ استلام إحدى الكنائس المهجورة التي تقع تحت سلطته لأحولها إلى المسجد الذي أريده. تصور فرحتي بهذا، زرت الكنيسة، ووجدتها موافقة تماماً... كنيسة بيضاء جميلة، ولها برج كالمنارة يصلح لأن يكون مئذنة. باشرت الآن بإصلاح البناء، وسيكون لأصدقائي مسجدهم عما قريب... والحمد لله!».

* * *

راهب نصراني، من القائمين على تراث المسيح، يتخطى تمنع مطرانه فيهدي كنيسته إلى مسلم ليحولها مسجداً. كنيسة تتحول بالمحبة، لا بالقهر الذي طالما حوّل عبر التاريخ الكنائس مساجد والمساجد كنائس، كنيسة تتحول بالمحبة مسجداً! أليست هذه ومضة نور تلمع في حالك من ظلمات خلقتها قرارات الأساقفة

الفرنسيين بنصرة إسرائيل، واستيلاء اليهود على كنيستي كفربرعم وأقرت، وإذلال كومندوس موشه دايان العرب بتذبيحهم مقاتلتنا مثل نسائنا في قلب المنازل، وعزة الولايات المتحدة بالإثم بإصرارها على سحق حق العرب بنعالها؟

ومضة نور قد تكون لمعة من جناح الحباحب أو شعلة لعود ثقاب. ولكني رأيتها في هذا الظلام المطبق ومضة ساطعة. ربما زاد سطوعها في عيني أنها برقت لي في جدّة: وأنا قريب من بيت الله العتيق، وأنها انبعثت من كليرمون ـ فران بالذات... كليرمون ـ فران التي منها في القرون الوسطى ارتفع صوت بطرس الراهب داعياً إلى الصليبية الأولى التي كانت فاتحة صليبيات عدة، توهجت بالحقد واتخذت سبيلها القهر وانتهت بالمذابح والمآسي والكوارث.

١٩٧٣/٤/٢٦

في ذات صيف

جمعتني دروب حياتي المتعددة المناحي برجال كثيرين من ذوي الشهرة والخطر، حفظت عنهم أشياء ونسيت أشياء. وأعود أحياناً بذاكرتي إلى ما حفظته عن أولئك الرجال فأجد أن لمحات خاطفة من سلوكهم أو ألفاظاً قليلة من أقوالهم هي التي قرّت عنهم في ذهني، وهي التي أثّرت في أحكامي عليهم في التقدير أو الانتقاد.

ومن هؤلاء الرجال ذوي الشهرة والخطر الذين أعنيهم الرئيس الراحل فؤاد شهاب. ما أكثر ما امتلأت به الصحف وشغلت به الألسنة حديثاً، عن هذا الأمير الرئيس، في حياته وبعد فقده. إلاّ أنه ما من مرة ردد فيها اسمه وعددت مآثره إلاّ تضاءلت في خاطري الأقوال والأخبار أمام همس كلمات قليلة سمعتها منه في جلسة استقبلني فيها وحيداً، في صيف عام ١٩٦٢.

* * *

في ذلك الصيف كانت العلاقات بين الدول العربية الشقيقة في حال من السوء تثلج لها صدور الأعداء. وكانت أطراف كثيرة

داخل البلدين الأخوين، سوريا ولبنان، وفي خارجهما تسعى إلى تأزيم الأمور بينهما إلى درجة تقطيع ما لم يتقطع بعد من الصلات. وتناهى إلى سمع اللواء فؤاد شهاب، رئيس لبنان آنذاك، أن وزيراً شاباً في سوريا يسعى جهده، وبمفرده أحياناً إلى أن تخفق محاولات التأزيم تلك وإلى أن تظل الجسور القائمة بين البلدين، سليمة. فرغب الرئيس في أن يرى ذلك الوزير وأن يتعرّف عليه شخصياً. وهكذا دعيت إلى زيارة رئيس جمهورية لبنان زيارة ترك لي فيها الخيار في أن تكون رسمية أو شخصية.

فضلت من ناحيتي أن تكون زيارتي للواء الرئيس بعيدة عن الطابع الرسمي، متخففاً بذلك من مضايقات البروتوكول الذي لا يسمح لوزير ضيف أن يتخطى زملاءه في البلد المضيف ويتصل برئيس الجمهورية فيه مباشرة. وقصدت قصر بعبدا في ساعة مبكرة في سيارة صديق لي، حيث وجدت الرئيس فؤاد شهاب في انتظاري في مكتبه، وحيث تلقاني في جو هادىء ساكن كأن القصر كله لم يكن فيه آنذاك سوانا. وكانت، في الواقع، زيارة غريبة هذه الزيارة، لخروجها عن مألوف المقابلات بين وزير مسؤول لبلد ورئيس جمهورية أكثر مسؤولية لبلد آخر. لم يكن هناك جدول أعمال، ولا موضوع محدد للبحث، ولم يسبق للمزور والزائر أن عرف أحدهما الآخر معرفة شخصية أو تقابلا مقابلة شخصية... وإنما كان ترحيب متحفظ من الرئيس الرفيع التهذيب، وكانت تحية حارة من الزائر القليل التقيد بالمراسيم التقليدية. أما ما أعقب هذه التحية وذلك الترحيب فكان أمراً طبيعياً وعادياً: جلس مضيفي جلسة من يريد أن يسمع، وحين وجدت الأذن الصاغية انطلقت من ناحيتي في الحديث بعفوية، وبكل بساطة.

لا أظن أن فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية قد تعود إلى أن يستمع
لى محدثين كُثُر من طرازي، لهم صفتهم الرسمية ولكنهم يضعون
لرسميات جانباً في تعبيرهم الصادق عما يشعرون به ويفكرون
نيه. وأحسب أن هذا هو الذي جعل اللواء فؤاد شهاب، من
ناحيته، يضع الرسميات جانباً حين سكتّ أنا وتكلم هو، فتحدث
عندئذٍ بعفوية وبكل بساطة وبدون تحفظ، وهو المعروف بأنه يزن
كلماته قبل أن ينطق بها، ولا سيما في حديثه مع وزير لبلد آخر
غير بلده. تحدّث في انطلاق، وقال أشياء حلوة وهامة، وأشياء
مقنعة، عما كان يشغل بالنا في الدرجة الأولى، أعني عن العلاقات
السورية اللبنانية. وتجاوز الرئيس بعد ذلك الحديث عن بلدينا إلى
الحديث عن لبنان وحده، عن قضاياه وعن مشاكل الحكم فيه.
تكلم عن أشخاص وزرائه، وعن خلافاتهم فيما بينهم، وعن
تصرفاتهم في مجلس الوزراء، بما لا أملك أن أعيد روايته الآن لأنه
يتناول أشخاصاً لا يزالون يحتلون واجهة السياسة في البلد الذي
رأسه فؤاد شهاب ذات يوم. مجرد تحدثه بهذا أمامي أرضاني عن
نفسي وأقنعني بأني لم أعد غريباً، بشخصي ووصفي، عن قلب
هذا الرجل الكبير ولا عن تفكيره. وفي ختام تعليقاته على
المشاحنات التي كانت تجري في مجلس الوزراء قال، وعلى شفتيه
تلك الابتسامة الجوكندية التي تتداخل فيها السخرية بالرثاء
بالأسى: هم يتشاحنون فيما بينهم، أما أنا فالذي يهمني هو أن
تصل الماء والكهرباء إلى كل قرية في لبنان، مهما كان بعدها عن
العاصمة بيروت...

* * *

بعد عودتي من تلك الزيارة أجبت على سؤال الرجل الذي كان له

حق الاطلاع على ما دار فيها، أجبت بقولي: انطباعاتي عن لقائي بالرئيس شهاب؟ كل الذي أستطيع قوله إنه من حسن حظ لبنان أن لا يتصف رئيسه بالذكاء المفرط...

لم أكن فيما قلته أقصد الانتقاص من ذكاء اللواء الرئيس، فما من شك في ذكائه. ولكني في الحقيقة كنت أريد القول بأنه من حسن حظ لبنان أن لا يكون له رئيس يركن إلى ذكائه المفرط، أو إلى ما يتوهمه ذكاء مفرطاً، فيتخذ منه أداة للمناورة، ولضرب جبهة بأخرى، ولإضعاف الجميع كي يظل هو قوياً. إن رجل الدولة الذي يستخدم ذكاءه لمثل هذا لا يعدو أن يكون مناوراً بارعاً في نصب الفخاخ، ولكنه لا يسلم من أن يقع في ذات يوم في واحد منها. أما فؤاد شهاب فكان، على ما بدا لي منه وما صرّح لي به بهذه الكلمات التي لا تزال تتردد هامسة في أذني، كان إنساناً مستقيم الطريق إلى الهدف الواضح، لا يجد ما يستدعيه إلى أن يناور في هذا الطريق أو ينصب فخاً. هدفه كان أن يسعد اللبنانيون في بلدهم. أو على حد تعبيره أن يوصل إلى كل لبناني، مهما بعدت داره عن العاصمة، الماء والكهرباء، ومعهما الصحة والمعرفة والكفاية...

٧٣/٦/٨

هناك أمل!

رفع صديقي رأسه عن الكتاب الذي كان يقرأه وقال بلهجة من عثر على اكتشاف جديد:

ـ إذن لا يزال هناك أمل!

قلت: أيّ أمل تعني يا صاحبي؟

فتجاهل الصديق استفهامي وألقى عليَّ سؤالاً جديداً لم أدرك معنى ارتباطه بجملته الأولى، قال:

ـ هل تعرف أسامة بن منقذ؟ هل قرأت كتابه «الاعتبار»؟

ضحكت وأجبته: ليس عجيباً أن أعرف أسامة بن منقذ، أمير شيزر وأحد فرسان العرب المغاوير أيام احتلال الصليبيين لجزء كبير من ديار الشام. أما كتابه «الاعتبار» فقد قرأته، ولكن منذ زمن بعيد... قرأته في تحقيق فيليب حتّي.

قال: أما أنا فأقرأ هذا الكتاب للمرة الأولى، في طبعته الجديدة

هذه. دعني أقرأ لك إحدى حكاياته لتعرف لماذا قلت إنه لا يزال هناك أمل...

وراح صاحبي يتلو من كتاب «الاعتبار» الذي كان بين يديه حكاية رواها أسامة بن منقذ في سياق كلامه عن طباع الإفرنج الصليبيين وأخلاقهم. قال أسامة:

«ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى! قال: أحضروا عندي فارساً طلعت في رجله دمّلة وامرأة لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدمّلة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعة. فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحطّ ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: إضرب رجله بالفأس ضربة واحدة إقطعها. فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها. فحلقوه. وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل في رأسها. فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إليّ حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه».

* * *

رفع صاحبي رأسه، بعد أن قرأ عليَّ كل هذه الحكاية، وسألني:

ـ ما رأيك؟

قلت: قصة طريفة، وأسلوب أسامة بن منقذ أسلوب قصصي بارع.

قال: ليس هذا ما أسألك عنه. أنت طبيب، فما رأيك بهذه المعالجة التي قام بها الطبيب الإفرنجي؟

قلت: الأمر لا يحتاج إلى رأي مني، ما دامت هذه المعالجة الفنية من ذلك الطبيب قد قضت على الفارس وعلى المرأة في أسرع وقت.

قال: يجب أن تشدد على أن ذلك الطبيب كان إفرنجياً وأن أولئك الذين الذين يروي علينا أسامة بن منقذ أخبار طبهم السقيم وعقليتهم السخيفة كانوا إفرنجاً... أعني أنهم أجداد الأوروبيين والأميركيين الذين نتعلم اليوم علمهم ونجعل مثلنا الأعلى أن تكون لنا عقليتهم في معالجة الأمور...

قلت: وماذا بها؟ الدهر دولاب، والحضارة والعلم ليسا احتكاراً لأمة ما... كنا، وصاروا...

قال: أنت لم تدرك ماذا أريد قوله. لقد كنت مثل أغلبية الناس أعتقد، على كره مني، أن تركيب عقول هؤلاء الغربيين يختلف عن تركيب عقولنا اختلافاً يجعلهم أقدر على التفهم والاكتشاف والاختراع منا. لا، لا تقاطعني. أعرف ما تريد قوله من أن خلايا

دماغ السكندنافي في شمال أوروبا لا تختلف عن خلايا دماغ الزنجي في أواسط أفريقيا في العدد ولا في الخصائص... إلاّ أن ألف دليل يقوم أمام أعيننا في كل يوم ليبيّن لنا أن هذه النظرية، عند التطبيق، ليست صحيحة. أما حين قرأت هذه الحكاية في كتاب أسامة بن منقذ عن طب الفرنجة ذاك وعن عقليتهم التي جعلت خاصتهم في تلك الأزمان تتقبل هذا الطب فإن الأمل قد عاد إلى نفسي...

قلت: أرجع فأسألك عن هذا الأمل الذي تعنيه.

قال: الأمل بأن نعود فنكون شيئاً ما ذات يوم! ما دام أولئك الفرنجة الأجلاف، المتخلفين الأغبياء، صاروا أرباب حضارة وعلم، فلا شيء يمنعنا نحن الذين أمسينا متخلفين من أن تتطور عقليتنا ونصبح أرباب حضارة من جديد...

قلت: الآن فهمت مرادك يا صاحبي. وعليّ أن أشكرك ثم أشكر الأمير أسامة بن منقذ...

قال: وكأنه ظنّ السخرية في لهجتي: تشكرنا على ماذا؟

قلت وأنا أضحك: أشكرك على أنك رأيتنا متخلفين فقط، ولم ترنا أجلافاً أغبياء كما رأيت فرنجة تلك الأيام. أما الأمير أسامة فإني أشكره لأنه فتح بقراءتك لكتابه أمامك، وأمامنا، باب الأمل في أن نصبح ذات يوم أناساً ذوي قيمة وقدرة. إنه أمل باسم وعريض يا صاحبي، ولم يبق علينا غير أن ننتظره ليتحقق!

٧٣/٨/٢٣

بين تحيتين

صديقنا ع. مشهور بأسفاره الكثيرة، وبما يعود به من تلك الأسفار من قصص شائقة يرويها بأسلوبه الساحر فيسلينا ويضحكنا. عاد منذ أيام من رحلة شهرين له في أوروبا الغربية فتحلقنا، نحن أصحابه، حوله في المقهى وقلنا له: هات يا ع. ما عندك. ما أطرف ما مرّ بك في هذه الرحلة؟

قال: الطرائف كثيرة. تحضرني الآن منها حكاية حدث نصفها في قطار سويسري بين برن وجنيف، وحدث نصفها الآخر في قطار في بلادنا، لن أعيّنه لكم، وعليكم أنتم أن تعرفوا أين تقع سكته الحديدية...

قلنا: تكلم لنرَ ...

قال: كنت في طريقي إلى برن، في القطار السريع. لا أدري إذا كانت توجد اليوم في أوروبا قطارات بطيئة. على أنه مهما كانت عليه قطارات سويسرا من السرعة فإنها لا بد من أن تخفف من سرعتها عند بعض الانحناءات الحادة التي تخترق فيها السكة

الحديدية جبال الألب. السكة في بعض المناطق هناك تسير في شريط ضيق يلاصق الجبل من ناحية ويشرف على الأودية السحيقة من الناحية الأخرى. عند أحد المنحنيات أبطأ قطارنا في سيره إلى درجة كبيرة، وهو يلتصق بالجبل، حتى كنا نستطيع أن نمس صخوره بأصابعنا لو مددنا أيدينا من مقاعدنا إليها. كان معي في العربة راكب واحد، سويسري كهل، جالساً في مقابلتي ومنصرفاً إلى قراءة كتاب في يده، بينما كنت أنا أتلهى بالتطلع من نافذة العربة إلى خارجها. لمحت، والقطار يتهادى في سيره، على الجبل القريب من مسارنا فتاة صغيرة ألصقت ظهرها بالصخور كأنها حذرة من أن تجرفها العربات بمرورها في قربها. كانت فتاة في نحو السابعة من العمر، موردة الخدين ضاحكة الثغر، ترتدي ثياب الصبايا القرويات السويسرية ذات الألوان البهيجة والمزينة بالدانتيلا، وتحمل في يدها بضع زهرات. وحين أصبحت عربتنا في محاذاة الصخرة التي أسندت الصبية ظهرها إليها حدثت المفاجأة التي لم تستغرق غير ثانية من الزمن، الثانية التي كانت فيها الفتاة في مستوانا وكنا في مستواها: فقد رفعت آنذاك يدها وألقت إلينا وردة حمراء صغيرة استقرت إلى جواري فوق المقعد الذي كنت أجلس عليه وحيداً....

وسكت صديقنا ع. سكوت من ينتظر منا تعليقاً على ما رواه. كانت حكايته لطيفة ولكنها لم تكن مثيرة. قال واحد منا، هو أبو فلان الذي كان مولعاً بمماحكة ع. ومجادلته في كل جلسة، قال:

ـ وما بها هذه الحكاية؟ هل هناك شيء آخر؟

قال ع.: هناك بلا شك شيء آخر. هذه، كما أخبرتكم، نصف الحكاية: في هنيهة كلمح البصر مر القطار أمام صبية لا نعرفها ولا

تعرفنا، نحن من بلد وهي من بلد آخر، فحيتنا فيها بزهرة حمراء حمرة خديها الموردين في برد جبال سويسرا. أما نصف الحكاية الآخر فقد جرى لي منذ أعوام، وذكرتني بها وردة الصبية السويسرية الحمراء. منذ أعوام كنت ومسافرين آخرين نستقل عربة قطار من قطارات بلادنا. إنه قطار بطيء بطبعه، ويزداد بطئاً حين يسلك أحد المنحنيات التي تلاصق الجبل ملاصقة ذلك القطار السويسري لجبله. بلغت عربتنا في قطارنا هذا أكثر الأماكن قرباً من الصخور المجاورة لسكته. كان هناك صبي صغير، في السابعة من عمره على التقريب، ملتصقاً بظهره بالجبل كأنه حذر من أن تجرفه إحدى العربات في مرورها بجواره. وحين اقتربنا من ذلك الصبي حتى حاذيناه، وحتى أصبح في مستوانا مثلما أصبحنا في مستواه حدثت المفاجأة، وأي مفاجأة؟ في اللحظة الخاطفة التي أصبحنا فيها في مرمى بصر الصبي ويده ألقى إلينا... ألقى إلينا ما أستحي الآن من ذكره... نعم، سأقول لكم ماذا ألقى: قذف إلينا من فمه ببصقة، بصقة لزجة كبيرة، أصابت كتلتها الرئيسية وجه واحد من ركاب العربة، وأخذ كل منا نحن الباقين نصيبه من رذاذها...

ضحكنا جميعاً، وبصوت واحد، حين بلغ ع. من حكايته هذه النقطة. أما هو فانتظر حتى هدأت قهقهاتنا وقال:

ـ لكم أن تضحكوا... فليس أدعى إلى الضحك من المقارنة بين الزهرة في القطار السويسري والبصقة في قطارنا البلدي...

نطق هذه بمرارة لم تغب عنا. فقال صديقنا أبو فلان الذي ذكرته آنفاً:

ـ أنت تدس السم في الدسم يا ع. تريد أن تحكم علينا من خلال روايتك لهذه الحكاية بالتخلف أو، على الأقل، بسوء الخلق. لماذا تضع تلك الصبية وهذا الصبي في مستوى واحد عند الحكم عليهما؟ مجرد كونها فتاة وكونه فتى يجعل سلوك أحدهما يناقض سلوك الآخر. ثم ماذا عرفت عن الظروف الحياتية لكل منهما، وعما مرّ بكل منهما في أول النهار الذي رأيت كلاًّ منهما فيه، حتى تقدر دوافعهما إلى نوعية تصرفهما، تجاهك وتجاه رفاقك من ركاب القطارات؟ لكي تكون قاضياً عادلاً عليك أن تحيط بكل وجوه القضية المعروضة عليك قبل أن تصدر فيها حكماً...

فتضاحك ع. قبل أن يقول: رويت لكم نصفي القصة، كما وقعا لي، بحذافيرهما. كان يجب أن تكون أنت المسافر مكاني يا أبا فلان، تتلقى التحيتين المتناقضتين، زهرة وبصقة! جرب عندئذٍ أن تجد مكاناً لاعتراضاتك السفسطائية هذه على حكمك على من ألقوا بهما إليك، وحكمك على أهلهما وبلادهما! ما قولكم يا اخوان؟

ألقى ع. سؤاله هذا ولم ينتظر عليه جواباً. فقد فارقنا بسرعة، وتركنا نعلق في ضجيج وضحك على حكاية هاتين التحيتين، الغريبتين، المتناقضتين.

١٩٧٣/٩/٢٥

رأس جسر

المتفائلون قالوا إننا انتصرنا، والمتشائمون قالوا إننا لم نفعل. وثمة من أغرق في السوداوية فقال إننا خسرنا أكثر مما ربحنا. فأين تقع الحقيقة من كل هذه الأقوال؟

الحقيقة أنها كلها، هذه الأقوال، أحكام في غير موضعها. فالحكم الذي يعطى على المعركة قبل انتهائها لا يمكن أن يكون قاطعاً ولا مصيباً كل الإصابة. ومن الذي قال عن هذه الحرب أنها انتهت؟ لا الحكام قالوا ذلك، ولا جنودنا قالوه، ولا الشعب، ولا حتى عدوّنا. ما شهدناه في ثمانية عشر يوماً من القتال الضاري كان جزءاً من المعركة، وما حدث في أيام الهدوء الذي تلا القتال جزء من المعركة أيضاً. في هذه الأيام وفي تلك دفعنا ثمناً غير هين من خسارة في المرافق الاقتصادية، ومن ضحايا بشرية بين المقاتلين والسكان المدنيين، ومن مواطىء أقدام في ترابنا ما قدر العدو قبل اليوم على أن يضع رجله فيها... دفعنا هذا الثمن وحصلنا على نتائج ليست هي النصر الواضح ولا الحاسم بل هي، في حرب لا زالت دائرة، رأس جسر في الطريق إلى النصر.

حصلنا على رأس جسر في ساحة كانت مسلوبة منا، وكنا مطرودين منها. لست أقصد برأس الجسر تلك المساحات الأرضية على الضفة الشرقية من القنال أو المواقع التي استرددناها في سفوح جبل الشيخ ومرتفعات الجولان، أو أني لا أقصد هذه المساحات الأرضية وحدها، بل إني أقصدها وأقصد معها المساحات المعنوية التي غنمناها في ميدان الإيمان بالنفس والقناعة بجدية المعركة والثقة بالاخوان من قريبين وبعيدين.

وإذا كان الحصول على رأس جسر في أية معركة هو كسب لا يستهان به فإنه كذلك كسب قلق محفوف بالخطر ومهدد بالضياع. ذلك أنه يبقى عرضة لهجمات مكثفة من العدو الذي يستميت لاقتلاع رأس الجسر هذا من المنطقة التي اكتسب فيها. ثم إن رأس الجسر ليس كسباً بذاته، إنما هو بداية ومنطلق للوثبة التي تليه أو للزحف الذي يتبعه. وإلاّ فإنه يتحول إلى نقطة ميتة أو إلى موطن ضعف للمحارب الذي يجمد موقفه على رأس الجسر، تتحدد فيه حركته وتضعف فيه حمايته وتنكشف فيه مطاعنه.

فلنعرف إذن قيمة ما حصلنا عليه في هذه الأيام التي تلت السادس من تشرين الأول/ أكتوبر، بثمن ضخم من الشجاعة والتضحية والخسائر. لنعرف تلك القيمة من ناحية السلب والإيجاب. العدو فاجأناه وأحبطنا خططه وأوقعنا فيه الخسائر في السلاح والرجال، والعالم أقنعناه بأننا محاربون بواسل ومخططون أكفاء، ووحدة العرب من المحيط إلى الخليج ثبتت بالعمل المشترك والبذل السخي وصدقها الدم الذي سفحه المقاتلون العرب من كل الجنسيات في معارك رائعة. كل هذا ملأنا سروراً بمنجزاتنا ورضى عن أنفسنا. ولكن السرور والرضى يجب أن لا يذهبا بنا بعيداً وينسيانا أننا لم

نصنع غير أن وضعنا أقدامنا على أول طريق النصر، وأن هذه الطريق لا تزال طويلة وشاقة. فغايتنا من هذه الحرب لم تكن مجرد مفاجأة العدو وتكبيده الخسائر، ولا مجرد إقناع العالم بشجاعتنا وكفاءتنا، ولا مجرد تأكيد وحدة العرب من المحيط إلى الخليج، بل كانت غايتنا هي النصر الحاسم الذي به تتحرر أرضنا من العدو الغاصب. وهل حصلنا من النصر إلاّ على رأس جسر منه؟

ليس رأس الجسر، وكما قلت، بالكسب الهين. وما دمنا قد ظفرنا به فإن علينا أن نحسن تقديره وأن نحافظ عليه. نحافظ عليه بحسن تقييمنا لأمكانياتنا وبدقة تقييمنا لإمكانيات عدونا. ونحافظ عليه بتلاحمنا ونبذ الأهواء من نفوسنا والحزازات فيما بيننا، أفراداً وجماعات ومؤسسات. ونحافظ على رأس الجسر هذا باستخدامه لما يجب أن يستخدم فيه، أي منطلقاً لتحرك فعّال ومجد. فليس رأس الجسر قلعة ولا ملجأ ولا مكان استراحة. وكل جمود في رأس الجسر هو فرصة تُعطى للعدو ليضرب فيه ضربته التي يضيع فيها علينا كل ما كسبناه من ثقة بأنفسنا ووحدة في عملنا وهيبة لنا في أعين العالم المتطلعة بكل أنظارها إلى هذه البقعة التي نعيش فيها من الدنيا...

إنه إذن رأس جسر هذا الذي كسبناه في هذه الأيام المجيدة، ورأس جسر إلى النصر، فلنحافظ عليه حق حفاظه!

١٩٧٣/١١/٤

حوار حول أفكار ماو

ـ يبدو أنك تقرأ في هذه الجريدة ما لا يعجبك. لماذا تقلب سحنتك هكذا؟

لا يعجبني ما تقوله هذه الجريدة ولا ما يقوله فيها السياسيون العسكريون عن الحرب... كلهم يقول إنها آتية لا ريب فيها...

وأنت، ألا تؤمن بذلك؟ إني أسمعك تتحدث دوماً بأن.لا مفر لنا ن أن نحارب...

صحيح. غير أن هؤلاء السادة يتحدثون عن الحرب حديثهم عن زهة قصيرة ينتظرهم في نهايتها، فاتحاً لهم ذراعيه مرحباً، نصر...

ماذا تريدهم إذن أن يقولوا؟ هل تريدهم أن يدعوا الناس إلى حرب لا نصر فيها؟ مفهوم أن كل حرب تستدعي التضحيات تسبب القتل والدمار، ولكن من غير نصر من تريده أن يحارب؟

. أنت لا تفهمني. إني أريد أن يثق الساسة والقادة بأن لا مفرّ من لحرب لأنها وحدها القادرة على أن تعيد لنا حقنا. ولكني أريد

كذلك أن يعاملوا المواطن بالصدق ويعرّفوه بما يعرفونه هم عن الثمن الذي عليه أن يدفعه في الجولة القادمة، لئلا يصدم بما يقع إذا ظل غارقاً في الأحلام الوردية عن نصر سيقطفه وهو قابع في عقر داره.

ـ حقاً إني لا أفهمك. ماذا تقصد بقولك هذا؟

ـ سأشرح لك. تطلع إلى الخارطة أمامك وقل لي: كم تبعد عواصمنا عن جبهات القتال الحالية؟

ـ ليس بعيداً. عن القاهرة، نقطة الكيلومتر ١٠١ مفهوم أنها تبعد مائة كيلومتر وكيلومتراً واحداً. وعن دمشق تبعد بيت جن أقل من خمسين كيلومتراً. أما عن عمان وعن بيروت...

ـ حسبك... ما قيمة خمسين كيلومتراً وقيمة مائة كيلومتر وكيلومتر واحد أمام مجنزرات ومصفحات ملأت خزاناتها بنزيناً وحشت مدافعها قنابل وتهيأت مدة شهرين أو أكثر لتنطلق بكل قوتها نحونا؟

ـ يا لطيف! أنت رجل مولع بالتخيلات المرعبة... كأنك تتعمد إخافتي بصورة قوات العدو وهي تقتحم عواصمنا وبأشباح محاربيه تحتل منازلها وتجوس في شوراعها...

ـ وأراك أنت خفت حقاً. ما أقوله لك مجرد احتمالات، وفي طراز الحروب الحاضرة هذه الاحتمالات يجب أن لا تخيف المحاربين. يجب أن تدخل في حساباتهم. وقد تكون أحياناً ضرورية ولازمة للنصر.

ـ احتلال العواصم، عواصم بلادنا، ضروري للنصر، نصرنا نحن؟ من أين جئت بهذه الفلسفة؟

ـ أنت لا تزال ترتجف من مجرد تصويري لك احتمالاً قد لا يقع... وقد يقع. هذا دليل على نقص في تربيتك السياسية كمواطن... نقص لا تجرأ على معالجته هذه الجريدة ولا السياسيون الذين يملأون أعمدتها بآرائهم ولا العسكريون الذين يتكلمون فيها عن المعركة المقبلة. هل سمعت أحداً أعلن عن مزايا احتلال العدو لعاصمة البلاد، ولمدنه الكبيرة؟

ـ تريدهم أن يجرأوا على القول بإمكانية هذا الاحتلال، ثم إن يعودوا فيعددوا مزاياه!... لا يا صاحبي، أراك زدتها...

ـ الواقع نحن في حاجة، في هذا المجال على الأقل، للتأمل في أفكار ماو...

ـ تعني ماو تسي تونغ... ما دخل أفكار ماو فيما ترويه؟

ـ أفكار ماو، وأعماله المبنية على تلك الأفكار، لها دخل كبير بهذا. دعني أضرب لك مثالاً...

ـ تفضل.

ـ في عام ١٩٤٦ كانت ينان عاصمة ماو تسي تونغ وحكومته الشيوعية، وكانت الحرب ناشبة بينه وبين جيوش تشانغ كاي شك الذي احتضنته أميركا آنذاك احتضانها لإسرائيل اليوم. سير المعارك الظاهري كان يدل على تفوق قوات الكومانتانغ، أي قوات تشانغ كاي شيك، فقد بلغ عدد المدن التي احتلتها هذه القوات وطردت الشيوعيين منها مائة وستين مدينة...

ـ مائة وستين مدينة؟ ماذا بقي في يد ماو المسكين؟

ـ بقي الكثير. لا تنس أن الصين قارة كاملة. كان ماو يتلقى أنباء ضياع تلك المدن من أيدي قواته بأعصاب هادئة. بل إنه تنبأ في ذلك الوقت بأن تشانغ كاي شيك سيهاجم عاصمته، وأنها ستسقط في يده، ثم أخذ يتهيأ لإخلاء تلك العاصمة، يينان...

ـ يتهيأ لإخلائها؟ كان الأجدر به أن يتهيأ للدفاع عنها...

ـ تلك كانت أفكار ماو. قبل دخول قوات الكومانتانغ يينان بأيام قليلة أخلاها الشيوعيون في انتظام: المرضى في الأول ثم المعدات الحربية، والنساء وأطفالهن، ثم طلاب المدارس. وآخر من ترك المدينة كان ماو ورفيقه شوان لاي. وفي ذلك الحين كان الجميع يهجرون العاصمة وهم مقتنعون، حتى الصبيان من بينهم «أن المدن ليست غير وعاء أو آنية، وأن المهم هو تدمير قوات تشانغ كاي حسب تفكير الرفيق ماو تسي تونغ».

ـ وهذا التفكير الذي تتحدث عنه، ماذا يقول؟

ـ لا تستعجل عليّ تنبأ ماو بسقوط عاصمته، وأخلاها. غير أنه تنبأ كذلك بأن نهاية تشيانغ كاي شيك ستبدأ باستيلائه على يينان. والواقع أن ماو وقواته لم تترك من المنطقة المحيطة بالعاصمة غير المدينة نفسها، بينما ظلت الحرب مندلعة في الضواحي حولها وحول كل المدن المحتلة من قبل قوات الكومانتانغ. جيوش تشيانغ كاي شيك النظامية كانت آنذاك تعد مائتين وثمانين فرقة، كانت مائتان وسبعة وعشرون فرقة منها مسمّرة في المدن التي سقطت فيها أوفي الجبهات المحاربة. فلم يكن في يد تشيانغ كاي احتياطي

يستطيع أن يتحرك به. في الحقيقة كانت قواته سجينة في المدن التي احتلتها.

ـ والنتيجة؟

ـ والنتيجة كانت كما تعرف. دُمّرت جيوش تشيانغ كاي شيك واحداً بعد الآخر، أو استسلمت، وانتصر ماو. في حرب يؤمن فيها الشعب بقضيته ويثابر فيها الجيش على قتاله. قد يكون سقوط المدينة، أو المدن المتتابعة، إحدى وسائل إنهاك العدو وبعثرتها وحجزها عن الاشتراك في المعارك.

ـ يا لها من وسيلة!... من ناحيتي أراها عسيرة الهضم. عواصمنا ومدننا الكبرى معرضة للسقوط بيد عدونا، ويطلب إلينا أن ننتظر ذلك ونتحمله بكل برودة أعصاب! أليس عند ماو أفكار غير هذه؟

ـ حين سئل ماو عن رأيه عند سقوط يينان، العاصمة، قال: إذا ما سألتني أيها أحسن أن تحتفظ بمدينة أو أن تضيع منك، فلا شك بأن الجواب هو أن الاحتفاظ بالمدينة أفضل. أما إذا كان لا بد من ضياع المدينة، فإن ضياعها يجب أن لا يهمنا كثيراً. الحرب الشعبية لا تربح بالاستيلاء على مدينة أو فقدها بل تربح بشيء آخر هو... هو...

ـ ما لك توقفت عن الكلام؟ ما هو هذا الشيء الآخر الذي يقول عنه ماو؟

ـ الشيء الآخر أمر يطول شرحه، وأنا الآن على عجلة. سنتم هذا الحوار حول أفكار ماو في فرصة أخرى. فإلى فرصة أخرى إذن يا عزيزي...

١٩٧٣/١٢/١

حكاية قديمة

كان عروة بن الورد، الذي يقال له عروة الصعاليك، شاعراً من شعراء الجاهلية وفارساً من فرسانها المعدودين المقدمين الأجواد. ومن حكاياته أنه خرج في إحدى الليالي لغارة من غاراته حتى دنا من منازل لقبيلة هذيل فكان منها على نحو ميلين. وكان جائعاً فإذا بأرنب تمر قريباً منه فرماها، وأوقد ناراً فشواها وأكلها. ثم حفر للنار في المكان الذي كان فيه إلى أن بلغ من الحفر مقدار ثلاث أذرع فدفن بقية النار فيها. وأتى بعد ذلك شجرة من شجر السرح فصعدها واختبأ بين أغصانها. فلم يمض إلاّ قليل وإذا بفرسان على خيولهم قد جاؤوا حتى بلغوا قريباً من مكان اختباء عروة، وجاء رجل منهم على فرس فركز رمحه في موضع النار وقال: لقد رأيت النار هاهنا! فنزل رجل فحفر في الأرض قدر ذراع، فلم ير شيئاً. فأكبّ القوم على صاحب الرمح يلومونه ويعيبون أمره ويقولون: أخرجتنا في هذه الليلة الباردة وزعمت لنا شيئاً كذبتنا فيه. فقال: ما كذبت، لقد رأيت النار في موضع رمحي هذا! فقالوا: ما رأيت شيئاً، ولكنه تحذلقك وتصنعك للدهاء هو ما حملك على هذا، وما نعجب إلاّ

من أنفسنا حين أطعنا أمرك واتبعناك. ولم يزالوا بالرجل يعذلونه حتى رجع عن قوله لهم، وعادوا من حيث أتوا.

قال عروة: واتبعت القوم في عودتهم حتى وردوا منازلهم وأنا وراءهم. وجئت منزل الرجل صاحب الرمح، فاختبأت في الظلام في كسر البيت، في زاوية معتمة منه. وشاهدت الرجل وقد ذهب في الليل لبعض شأنه، وإذا عبد أسود يدخل البيت ويخالف الرجل إلى امرأته، وأنا أنظر. وأتى العبد للمرأة بعلبة فيها لبن وقال لها: اشربي. قالت: لا، أو تبدأ أنت فتشرب. فبدأ الأسود فشرب. وعاد بعد قليل زوجها إلى بيته، وكان العبد قد انصرف، فقالت له المرأة: لعن الله صلفك، أخرجت قومك وأتعبتهم الليلة دون طائل. قال: لم أكذب، لقد رأيت ناراً لا أشك في ذلك. ثم دعا بلبن ليشرب، فحملت إليه المرأة العلبة، فحين أمسك بها ليكرع منها قال: ريح رجل ورب الكعبة! فقالت امرأته: وهذه أخرى، أي ريح رجل تجده في إنائك غير ريحك؟ ثم صاحت فجاء قومها فأخبرتهم خبره وقالت: يتهمني ويظن بي الظنون! فأقبلوا عليه باللوم حتى رجع عن قوله. كل هذا وأنا في زاويتي مختبيء أسمع وأرى، فقلت في نفسي عندها: هذه ثانية...

قال عروة: ثم إن الرجل آوى إلى فراشه فوثبت إلى الفرس، وهي حصان في مربطه من فناء البيت، أريد أن أذهب به. فضرب الحصان بيده وتحرك. فرجعت إلى موضعي في حين قام الرجل إلى الحصان متفقداً، ولما لم يجد عنده ما يريبه قال مخاطباً حصانه: ما كنت لتكذبني، فما بالك؟ فأقبلت عليه امرأته تلومه على توهمه أوهاماً لا صحة لها. فكررت أنا فعلي بالحصان، وكرر الحصان تحركه وقلقه، وكرر الرجل قيامه وتفقده، ثلاث مرات. وفي الأخير

آوى الرجل إلى فراشه ضجراً من كثرة ما يقوم وقال: لا أقوم إليك الليلة! حينذاك قمت أنا فوثبت على ظهر المهر وخرجت ركضاً. عندها أسرع الرجل فركب فرساً عنده أنثى، وأخذ يعدو ورائي.

قال عروة: فجعلت أسمعه خلفي يقول لفرسه: إلحقي فإنك من نسله! فلما بعدنا عن البيوت وقفت أنا وصحت به: أيها الرجل قف، فإنك لو عرفتني لم تقدم عليَّ، أنا عروة بن الورد... وقد رأيت الليلة منك عجباً، فأخبرني به وأرد إليك مهرك. قال: وما هو؟ قلت: جئت أنت مع قومك حتى ركزت رمحك في موضع نار كنت أنا قد أوقدتها، ورأيتها أنت على بعد ميلين، فثنوك عن ذلك فانثنيت في حين أنك كنت صادقاً. هذه واحدة. والثانية أني اتبعتك حتى أتيت منزلك، فشممت رائحة رجل في إنائك، وما كنت متوهماً فقد رأيت أنا ذلك الرجل الذي آثرته زوجتك بالإناء، وهو عبدك الأسود، وأظن أن بينهما ما لا تحب... فقلت لامرأتك: ريح رجل... فلم تزل تثنيك عما كنت فيه صادقاً حتى انثنيت. والثالثة أني خرجت إلى فرسك فأردت أخذه فاضطرب وتحرك، فخرجت إليه ورجعت، ثم خرجت ورجعت، ثم أضربت أنت عنه حتى استطعت أنا اختطافه. فرأيتك في هذه الأحوال أكمل الناس معرفة وقدرة، ولكنك تنثني وترجع، فكيف هذا؟

قال عروة بن الورد: فضحك الرجل وقال: ذلك لأخوال السوء. فالذي رأيته من معرفتي وصرامتي فمن قبل أعمامي وهم هذيل، وما رأيته من كعاعتي فمن قبل أخوالي وهم بطن من خزاعة. والمرأة التي رأيتها عندي منهم وأنا نازل فيهم، فذلك الذي يثنيني عن أشياء كثيرة. وأنا لاحق منذ اليوم بقومي وخارج عن أخوالي هؤلاء، ومخلٍ سبيل المرأة. ولولا ما رأيت من كعاعتي لم يقوَ على

مناوأة قومي أحد من العرب. فلما أخبرني الرجل بكل هذا قلت له: مادمت أخبرتني فخذ إليك حصانك راشداً. قال: ما كنت آخذه منك، وعندي من نسله جماعة مثله، فخذه مباركاً لك فيه. وثنى الرجل عني عنان فرسه وتركني أذهب بالمهر.

* * *

قرأت هذه الحكاية على صديق لي، وهو بدوي ممن يحسبون للأنساب حسابها ويؤمنون بتأثير دماء الأخوال والأعمام في سلوك الأنجال، ثم سألت هذا الصديق: ما رأيك؟

قال: رأيي بمن؟ بعروة أم بالهذلي وفعله؟

قلت: رأيك بالحكاية كلها...

فضحك صاحبي وقال: ما أظنك قرأت عليَّ هذه القصة إلاّ متعمداً بعد حديثنا عن بعض الناس في هذه الأيام الحرجة. قل لي الصحيح. إنك لا تريد أن تسأل عن عروة بن الورد أو عن صاحبه، بل عن هؤلاء السادة الذين يعرفون ولا يفعلون ويستطيعون ولا يقدمون، ترى من هم، بين الأخوال، أخوالهم؟!

١٩٧٣/١٢/٧

كيسنجر في فندق حسيب

ثلاثة من تجار مدينة حماه في سورية حلّوا بغداد لأول مرة، ونزلوا فيها في فندق حسيب، ليس بعيداً عن شاطىء دجلة. كان الوقت مساء، وقد أجهد السفر التجار الثلاثة وأتعبتهم ملازمتهم لمقاعد السيارة ساعات متتالية، فتاقوا إلى الخروج إلى المدينة وتناول كأس شاي في أحد مقاهيها. ولما كان ما يحملونه من مال كله أوراقاً نقدية كبيرة فقد رأوا قبل خروجهم أن يستبدلوا بعضها بفراطة من أوراق النقد الصغيرة. وقفوا على رأس السيد حسيب، صاحب الفندق، وكان جالساً في مدخل البهو يملأ بجسده الضخم مقعداً عريضاً، وقالوا له: تلزمنا فراطة يا سيد حسيب... فهل حواليك فراطة؟ تطلّع السيد حسيب إليهم بنظر جامد، ولم يجب. ظنّوه لم يسمع السؤال، فكرروه عليه: فراطة من فضلك! حينئذٍ أجال السيد حسيب عينيه في وقبيهما من رأسه الضخم المكوّر وقال:

ـ تريدون فراطة؟ عيوني أنتم، مو تكرمون؟ يا ولد يا حميد!

فهرع حميد، أحد مستخدمي الفندق، راكضاً إلى معلمه الذي

أسرّ إليه كلاماً لم يسمعه التجار الثلاثة، ثم رفع صوته قائلاً:

ـ أصحابنا ويعزّون علينا... أنت تحت أمرهم.

فهز المستخدم رأسه أن سمعاً وطاعة وأشار بيده إلى النزلاء الثلاثة، فتبعه هؤلاء وأحدهم ممسك بيده قطعة النقد التي يريد تحويلها إلى فراطة من العملة الصغيرة. غير أن حميداً لم يلتفت إليهم، بل سبقهم إلى الشارع فأوقف سيارة أجرة حشرهم في مقعدها الخلفي وجلس هو إلى جانب السائق. وانطلقت السيارة، بعد أن أسرّ حميد في إذن سائقها بعض كلمات، تجوب شوارع بغداد المضاءة بأنوار أول الليل، وانطلق مستخدم الفندق، كأحسن دليل سياحي، يعرّف مرافقيه بما يمرون عليه من معالم المدينة: «هذا شارع الرشيد، كان قلب بغداد وأصبح شارعاً ثانوياً. هنا وزارة الأعلام. هذا باب شرقي.. ساحة التحرير... على اليمين جسر الجمهورية. هذا شارع السعدون، ويحاذيه على شاطىء دجلة شارع أبي نواس. هل تحبون أن تأكلوا السمك المسقوف في شارع أبي نواس؟ لا؟ موجوعانين... خيرها بغيرها أغاتي...». ودامت جولة السيارة هذه ساعة كاملة عاد تجارنا الثلاثة في نهايتها إلى فندقهم، حيث كان السيد حسيب في انتظارهم في مقعده في مدخل البهو. رحّب بهم وهو يقول:

ـ عيوني أنتم ... عسى أن يكون حميد قام بالواجب!

فصاح الثلاثة بصوت واحد: كثّر الله خيرك وخيره، كانت جولة رائعة في ليل بغداد! وأردف أحدهم: ولكننا يا سيد حسيب ما زلنا بحاجة إلى فراطة... أما حواليك فراطة؟ فعاد صاحب الفندق إلى إدارة عينيه في وقبيهما وصاح:

ـ صحيح ... فراطة! مو تكرمون، عيوني أنتم... يا حميد!

وجاء حميد مجدداً ليسرّ إليه السيد حسيب مرة أخرى كلاماً لم يسمعه التجار الثلاثة، ثم ليشير إليهم فيتبعوه إلى الشارع حيث وجدوا سيارة أخرى في انتظارهم، ركبوا فيها كما فعلوا في المرة الأولى. إلاّ أن السيارة سلكت بهم هذه المرة أزقة لم يمروا بها قبل، ثم توقفت أمام بناء واطىء، عرف التجار الثلاثة فيه حماماً من الحمامات البلدية القديمة. ترجل حميد عندئذٍ أمام البناء وقال:

ـ عيوني أنتم ... أنتم ضيوفنا. تفضلوا وتمتعوا بالحمّام... الحمّام نعيم الدنيا!

وكانت مفاجأة حمد التجار الحمويون لها فطنة السيد حسيب ورهافة ذوقه، فقد كانت آثار الرحلة الطويلة في البادية بين سوريا والعراق بحاجة إلى مثل هذه الزيارة الليلية لهذا المكان لتتخلص منها أجسادهم المتعبة. وبعد أن قضوا في نعيم ذلك الحمّام ساعتين قادهم حميد إلى الفندق. ومذ وقع بصر السيد حسيب عليهم صاح:

ـ ألف نعيماً يا عيوني أنتم ... كيف كان الحمّام؟

صاح الثلاثة بصوت واحد: أنعم الله عليك يا سيد حسيب... كلك ذوق ولطف! وأردف واحد من الثلاثة: ولكننا نريد فراطة يا سيد كل من ملك فندقاً وأداره! فدارت حدقتا عيني السيد حسيب في وقبيهما بأشد من دورانهما في المرتين الماضيتين وصاح:

ـ ها ... فراطة ... يا حميد!

وللمرة الثالثة هرع حميد إلى معلمه، ليسرّ هذا إليه كلاماً لم

يسمعه نزلاؤه. غير أن التردد بدا عليه في هذه المرة قبل أن يتطلع إلى هؤلاء النزلاء ويقول لهم:

ـ الدنيا آخر ليل، ولكني تحت أمركم أغاتي... قولوا لي إيش تحبون: رقص شرقي، أو كباريه غربي؟

فتطلع تجار حماه الثلاثة أحدهم إلى الآخر وتبادلوا النظرات في استغراب. وأخرج أحدهم ورقة نقدية بعشرة دنانير من جيبه ووضعها على الطاولة أمام صاحب الفندق وهو يقول:

ـ أي رقص وأي كباريه يا سيد حسيب؟ نحن نريد فراطة... نريد أن تصرف لنا هذه الدنانير العشرة لتعطينا بها قطع نقد صغيرة!

وهنا لم تدر حدقتا السيد حسيب في وجهه فقط، بل شاركهما بالحركة جسده الضخم، على صعوبة ذلك، بأن أخذ يتمايل من الانفعال يمنة ويسرة في مقعده، وهو يقول:

ـ عيوني أنتم ... ما تحكون من العصر بالعربي الفصيح؟ فراطة... فراطة... إيش هي الفراطة؟ قولوا لي خردة، أفهم... قولوا فكة، أفهم... أما فراطة؟! تفضلوا...

وسحب من درج أمامه صندوقاً مملوءاً بالعملة الصغيرة من فلوس ودراهم وأرباع الدنانير وأنصافها، أعني مملوءاً بالفراطة التي عرف الآن معناها، ليأخذ منه هؤلاء النزلاء المتعبون بدنانيرهم ما يشتهون...

* * *

وهكذا كيسنجر!... إني أتتبع منذ وقف إطلاق النار رحلات هذا اليهودي الذي يريد أن يكون مترنيخ هذا العصر، ومفاوضاته

وأقواله، فلا أرى فيه غير حسيب آخر أو أرى فيه حميداً في فندق حسيب. نقول له نحن العرب: نريد فراطة يا سيد كيسنجر! فيهز رأسه قائلاً: عيوني أنتم... تأملوا ما أجمل رمال الصحراء حول الكيلومتر ١٠١. ونلحّ فنقول: فراطة أيها الوزير.... نريد حقنا السليب الذي من أجله حاربنا وضحينا وسنحارب ونضحي! فيهز رأسه ثانية ويقول: تأملوا ما أبدع بحيرة ليمان التي تقوم جنيف على شواطئها! نحن نريد شيئاً واضحاً ومحدوداً، ولكنه لا يعترف بقلة فهمه علينا ولا بعجزه عن تلبية مطلبنا ولا برفضه الصريح لما نريد، وإنما يدور ويلف وينقلنا بين شوارع بغداد وحماماتها البلدية، أو يتنقل هو بين الرياض والأقصر وتل أبيب، أو بين الإشادة بحضاراتنا البائدة والتهديد بحضارته المبيدة. يفعل كل ذلك واثقاً من أنه، بكثرة اللف والدوران والوعد الوعيد، سينتهي إلى أن يدوّخنا ويحصل على وثيقة استسلامنا. ولكن لا تذهب بك الثقة بعيداً يا مترنيخ هذا العصر. فإذا استمتع بجولاتك الليلية وحماماتك البلدية بعض الناس، أو داخ من أخذك وردّك آخرون، فإن هؤلاء وأولئك ليسوا كل الأمة. ما من شك في أن للعرب عودة أخرى ليقفوا على رأسك، أو رأس من يخلفك، مطالبين بالفراطة التي يريدونها... مطالبين بحقهم الذي لا يساومون عليه ولا يتهاونون به ولا يتنازلون عنه.

١٩٧٤/١/١٩

ألف ... باء ... تاء

صديقان، عربي وأوروبي، التقيا منذ أيام حول مائدة شاي في منزل الأول. دار الحديث على الطقس، وعلى ذكريات الصداقة المشتركة، وعلى آخر التطورات في الجانب الذي يهتم به الصديقان من العلم، ثم في أزمات العالم الحاضر المتداخل بعضها في بعض. وكان لا بد للسياسة من أن تكون النقطة التي يستقر عندها الحديث في النهاية. قال الأوروبي:

ـ أنا أفهم ما تقوله عن قضية فلسطين: اليهود فيها مغتصبون، والعرب لهم فيها حق ثابت. الشرعية مع العرب. ولكن قل لي ما هي الشرعية؟ إنها حالة راهنة أصبحت مستمرة، وإسرائيل من هذا الاعتبار قد حصلت على الشرعية في وجودها... على الأقل ضمن الحدود التي قامت فيها حتى عام ١٩٦٧.

قال العربي: حتى إذا وافقتك على هذا التعريف للشرعية، فإن إسرائيل لم تحصل عليها. ماذا نفعل نحن منذ خمسة وعشرين عاماً سوى زعزعة استمرار الحالة الراهنة التي تريدها إسرائيل؟

قال الأوروبي: كأني أفهم أنك لا تقرّ حتى بوجود إسرائيل ضمن

حدود ما قبل ١٩٦٧؟ إن حكّام العرب قد قبلوا بعودتها إلى تلك الحدود، وهم مستعدون لضمان أمن إسرائيل في داخلها.

قال العربي مستدركاً: ليس كل الحكام تعهدوا بهذا. هذا أولاً. وثانياً أن ما تسميهم الحكام لهم قيمتهم المرحلية فقط. هم على العين والرأس، وجهدهم مشكور في تحصيل ما يحصلون عليه مما أضاعه أسلافهم. ولكن الشعب يعرف أن له أرضاً اغتصبت منه، وهو غير مستعد إلى أن يتنازل عن فتر من هذه الأرض. تنازلات الحكّام لا تقيّد الشعب في قضية جوهرية مثل هذه. أنا واحد من الشعب، أقول لك هذا بصراحة وثقة.

قال الأوروبي: يا لك من متعنت. أوَليس من الخير أن تتنازلوا في سبيل السلام عن بضعة آلاف من الكيلومترات المربعة من الأرض؟ لقد دفع اليهود ثمن هذه الأرض مالاً ودماً، وهم بما يملكون من قدرات مادية ومعنوية قادرون على أن يجروا العالم إلى الخراب في سبيل بقائهم فيها. صدقني، ما لم تكن هناك تنازلات فلن يقوم سلام.

قال العربي: وصدقني أنك مهما قدمت لليهود من تنازلات فلن يكون هناك سلام. كأنك تتصور أن اليهود يقنعون بأرض هم فيها الآن، إذا أقررنا لهم بها؟

قال صاحبه: ولِمَ لا؟ اليهود لا يطلبون إلاّ هذا، ودول العالم الكبيـرة تضمنه لكم. اقبلوا وجود إسرائيل في الشريط الضيق الذي نشأت فيه، قوموا بهذه الخطوة الإيجابية الصغيرة، ينته الأمر...

فضحك العربي وقال: دعني أقص عليك حكاية سمعتها من أحد

أعمامي.. إنها تشرح لك لماذا لا نقوم بهذه الخطوة التي تسميها صغيرة.

قال الأوروبي: تفضل أسمعني حكايتك.

قال العربي: حدثني عمي، قال: في أحد أسفاري في البادية بلغت حياً من أحياء العرب نزلت ضيفاً عند أحد معارفي فيه. كان الوقت عصراً، فيممت مضافة شيخ الحي لأتناول فنجان قهوة فيها. حين اقتربت من المضافة لفت نظري أمامها حلقة من الناس أحاطوا بشاب في مقتبل العمر ملقى على الأرض، رفعت ساقاه على عصا، وإلى جانبه عبدان من عبيد الشيخ كان يتناوبان ضربه بسوطين في يديهما على قدميه. على رأس الفتى كان يقوم رجل عليه مظاهر الملالي، وهم شيوخ الدين الذين يتولون تعليم الصبيان في البادية، وفي يده ورقة وقلم. كان الملاّ يقول للشاب المطروح أرضاً: قل ألف... آ! فيرد الشاب: لا أقول! فينزل العبدان على قدميه ضرباً متداركاً حتى يعلو صراخه. فيعاود الملاّ أمره للشاب بأن يقول ألف، يعني أول حروف الهجاء، بينما يعاود هذا رفضه التلفظ بهذا الحرف، ويعود بعدها العبدان إلى جلده بسوطيهما بصورة قاسية وأليمة. قال عمي: تكررت فقرات هذه الحكاية أمامي، الشاب يرفض أن يقول ألف والعبدان يواصلان جلده. وسألت رجلاً كان بجواري عن هذا الأمر فقال لي إن الفتى واحد من بطانة شيخ القبيلة أراد له الشيخ أن يتعلم القراءة والكتابة وأوكل به الملاّ، ولما كان الفتى يرفض التعلم فقد أعانه بهذين العبدين ليقسراه على ذلك. وكانت قد لحقتني الرأفة بهذا الشاب، فاغتنمت فرصة توقف العبدين عن ضربه واقتربت منه وأنا أقول: يا مسكين، يبدو أنك عدوّ نفسك... إنهم لا يطلبون منك أمراً عسيراً، قل «ألف»

وتخلّص من هذا العذاب! فرفع إليَّ الشاب عينين لم أرَ في نظراتهما نقمة أو حزناً بقدر ما رأيت فيها من التصميم، وقال: رحْ في طريقك، يرحم الله أباك. لو كانت «ألف» وحدها لقلتها من زمن واسترحت. ولكنها، ألف، وراءها باء، ووراء الباء تاء وثاء... إلى ما لا أراه ينتهي. لهذا تراني منذ البداية صممت على أن لا أقول ألف... لن أقولها ولو قطعوا رأسي!

ابتسم الأوروبي لما رواه له صاحبه وقال: حكاية مضحكة. ما الشبه بينها وبين ما كنا نتحدث فيه؟

قال العربي: الشبه كبير. أنت تطلب منا ما طلبه عمي من الفتى. ذاك لأنك لم تر إلاّ الألف من حروف مخططات إسرائيل. أما نحن فواثقون، بالاستقراء والتجربة، من أن وراء الألف التي هي استقرار اليهود في بقعة بسعة الكف من أرضنا، باء وتاء وثاء وحروف أخرى كثيرة ومتتابعة. طلبوا وطناً قومياً في بلد عربي، فاعطيتموهم، أنتم الغربيين، إياه وأصبح عددهم فيه مائتي ألف. أقاموا الدنيا وأقعدوها فسمح لهم الكتاب الأبيض بهجرة مائة ألف آخرين إلى فلسطين. في عام ١٩٤٨ بلغوا نصف مليون. في عام ١٩٦٧ أسسوا مليونين ونصف. صاروا في سنة ١٩٧٣ ثلاثة ملايين وربع. تمددوا، توسعوا وتكاثروا، وهم لا يزالون فيما يسميه شيوخ الكتاتيب عندنا «ألف فتحه آ». هناك تسعة عشر مليون يهودي مبعثرين في أنحاء العالم ينتظرون منا أن نقول لهم «ألف» ليهجموا علينا بأعدادهم وملياراتهم ومكائدهم وأطماعهم. لن تتسع لهم حينذاك أبجديتنا ولا أبجدية الصين ذات الخمسة آلاف حرف. تقول لي إن دول العالم الكبيرة تضمن لنا أن لا يكون هذا. من أوصل إسرائيل إلى أرضنا غير دول العالم الكبيرة؟ لا يا

عزيزي... من ناحيتي لن أقول لهؤلاء اليهود ألف ولو قطعتم رأسي. ذلك لأني أعلم علم اليقين أني لو قلتها لقطع اليهود رأسي حتماً، ولاحتلوا بيتي واستعبدوا شعبي...

هزّ الأوروبي رأسه لما سمعه من صاحبه وقال: ما أكثر حكاياتك! إنك تكاد تقنعني بها بأكثر مما تقنعني الدراسات التي أقرأها في صحف بلادي والاحصائيات التي تنشر هناك. إذا كنتم ترفضون أن تقولوا ألف فهذا شأنكم. أنتم الذين تقدّرون ماذا تضربون على رفضكم من أسواط. المهم أن تربحوا التحدي بصمودكم. حين تربحونه سنصفق لكم في الغرب جميعنا، مهما كان لبعضنا من هوى مع الفريق الآخر. أما أنا، فتأكد يا صديقي من أني سأصفق لكم عندها من كل قلبي...

١٩٧٤/١/٢٤

في السيارة ... في بيروت... في الصيف

قالت صديقتي البيروتية، ونحن نتجه بسيارتي إلى منزلها:

ـ هل تدري أن أختي غيّرت سيارتها، وأنها اشترت سيارة جديدة، مرسيدس؟

قلت: مبروك.

قالت: من يوم ما ركبت هذه المرسيدس تغيرت طباعها.

قلت: كيف؟

قالت: أصبحت في طباع سواقي سيارات السرفيس في هذا البلد، بيروت، وسياراتهم كما تعلم كلها مرسيدس: عنيفة، ذات لسان سليط، وأكاد أقول بذيء...

ضحكت وقلت: هذا منتظر. كانوا يقولون إن الفرس تتطبع بطباع راكبها. ولما كانت خيول هذا الزمان، وهي السيارات، ذات بنية معدنية غير قابلة للتطور كان على الركاب أنفسهم أن يتطوروا، أعني أن يتطبعوا بطباع مطاياهم.

قالت: أنت بهذا تلتمس لسواقي السرفيس العذر في خشونتهم وسلاطة لسانهم. الواقع أن شيئاً ما يحيرني من السواقين عموماً. أعرف شباباً وديعين طيبين ما داموا يسيرون على أقدامهم. متى ساق واحدهم سيارة فارقته الوداعة فضاق صدره وانطلق لسانه بالشتائم لمن يسبقه ولمن يلحقه، وخاصة للمشاة المساكين المتلمسين لأنفسهم معبراً بين آلاف العجلات المتزاحمة...

قلت: وهذا منتظر أيضاً. ركوب السيارة يغير الأخلاق، أو أنه يكشف خوافيها. كل ركوب يفعل هذا. خذي مثلاً ركوب الكراسي، كراسي الحكم والمناصب الرفيعة...

قالت: ماذا تعني؟

قلت: أنت تعرفين السياسيين قبل أن يتولوا الحكم: كلهم طيبة، متواضعون، كثيرو الانتقاد للأحوال السائدة، كثيرو الوعود بإصلاحها عندما يصبح الأمر لهم. ثم إنك تعرفين كيف ينقلبون حين يتولون الحكم...

قالت: كنا في السيارات وسائقها، ما الذي نقلنا إلى السياسة والسياسيين؟

* * *

وقفنا في هذه اللحظة عند الضوء الأحمر، على ملتقى شارعين. كانت محركات السيارات الدائرة أمامنا ووراءنا وعلى جانبينا تنفث حرارة تزيد في توقد الجو تحت سماء بيروت الصيفية. قلت لصديقتي:

ـ لا تؤاخذيني على الاستطراد. لنعد إلى نفسية الناس حين يكونون

مشاة وحين يسوقون سياراتهم. الغربيون ألّفوا في هذا كتباً بينوا فيها أسباب تغير هذه النفسية. من بين تلك الأسباب لم يذكروا هذا الجو الملتهب الذي يوتّر الأعصاب حتى يتلفها. سأؤلف أنا كتاباً أتحدث فيه عن سيكولوجية قيادة السيارة في بيروت...

قالت: ولماذا في بيروت وحدها؟

قلت: لأنها تبدو كمختبر أُعدَّ خصيصاً لتجتمع فيه أسوأ شروط القيادة. تأملي في هذه الأبنية التي تهدم، على متانتها، على جانبي الشارع. من يراها يظن أنها هدمت ليتسع الطريق عندها. لا يا سيدتي، سيظل الشارع على ضيقه وسيقوم مكان الطابقين، اللذين كان لسكانهما أربع سيارات، عشرون طابقاً يملك سكانها ثمانين سيارة عليك أنت أن تجدي لها مجالاً للسير وموقفاً ومأوى...

ضحكت صديقتي وهي تقول: وما دخلي أنا بهذا؟ لا تنشغل بالكلام وتنس أن الضوء صار أمامك أخضر. تحرك لعلنا نصل اليوم إلى المنزل.

فزججت بنفسي، أعني بسيارتي، في غمار السيارات الهادرة نحو أحد الأنفاق التي تتصالب فوقها شوارع العاصمة اللبنانية، وقلت:

ـ أذكر أني في ظهيرة يوم حار ظللت ثلاثة أرباع الساعة أدور بسيارتي في هذه المدينة، أبحث في أحد شوارعها عن مكان أركن فيه سيارتي فلم أفلح. اقترحت يومها على أصدقائي اللبنانيين أن يغيروا الشعار المشهور: هنيئاً لمن له مرقد عنزة في لبنان، بشعار

جديد أكثر عصرية وواقعية هو: هنيئاً لمن له موقف سيارة، في الظل، في بيروت!

قالت وهي تضحك: يا لك من طمّاع... موقف في بيروت، وفي الظل؟

اضطررت في هذه الأثناء إلى التخفيف من سرعتي، إذ سدّت عليّ الطريق سيارة ضخمة من أحدث طراز، يقودها رجل أصلع عظيم اللغد تلمع في كمي قميصه أزرار ذهبية. قلت لصديقتي:

ـ أتعرفين ما هو السبب الرئيسي لأزمة السير الخانقة في هذا البلد؟ إنه وفرة السيارات من هذا النوع: سيارة قوتها ثلاثون حصاناً، يركبها بغل واحد!

فقالت بخبث: الحق معك. إنه تعليل لم يخطر لي قبل على بال. بالمناسبة، كم حصاناً قوة سيارتك؟

* * *

تجاهلت من صديقتي هذا السؤال الماكر وقلت وفي جد:

ـ السيارات في كل العالم أصبحت مشكلة المشاكل بكثرتها، وبمتطلباتها، وبأذاها على الطبيعة وعلى الناس. تصوري بلداً مثل هولندا تنتزع كل شبر من أرضها انتزاعاً من قبضة الأمواج، إذ تجفف البحر وتقيم عليه السدود لتزيد من رقعة اليابسة فيها، ومع ذلك فإنهم يقدرون هناك أنه في عام ١٩٨٠ سيكون ستون بالمائة من رقعة الأرض الهولندية مشغولاً بالأوتوسترادات، أعني الطرق المخصصة للسيارات.

قالت: لسنا نحن وحدنا إذن المجانين الذين نطعم هذه الآلات أغلى ما عندنا، مالنا ووقتنا وأعصابنا.

قلت: نعم. إلاّ أن أولئك يحسنون التخطيط ليتجنبوا من الضرر ما يمكن اجتنابه. تصوري ما أجمل ما تكون عليه بيروت لو أنها عاملت السيارات كما تعاملها البندقية في إيطاليا، أو على الأقل بوينس آيرس في الأرجنتين!

قالت: وكيف؟

قلت: عند مدخل البندقية كراجات ضخمة لشركة آجيب، تتألف من عشرين طابقاً وأكثر. كلما قدمت إليها وضعت فيها سيارتي كأنما أخلع بذلك نعلي عند عتبة المدينة، ورحت أسير فيها على قدمي، أو راكباً الغندول، طيلة إقامتي.

قالت: وهل تظن هذا عملياً؟ أين الغندول الذي ينقلني من الأشرفية إلى شارع الحمراء؟

قلت: في قلب بوينس آيرس، عاصمة الأرجنتين، حيّ كبير أغنى وأكثر حيوية من شارع الحمراء بمرات، اسمه حي فلوريدا. ذلك الحي محظور على السيارات. تجولت فيه مرات على رجلي فذقت لذة التسكع دون أن يعكرها عليّ هدير سيارات السبور أو يخنق أنفاسي فيها دخان أنابيب العادم السامة...

قالت: قربنا أن نبلغ المنزل. أنت تفكر في حلول طوباوية وتنسى أننا في الشرق، حيث نركب الكاديلاك بعقلية راكب الجمل في الصحراء، ونتعلق بالحرية الشخصية إلى درجة الفوضى...

قلت: للشرق أيضاً حلوله. لا أكلمك عن أقصى الشرق، أعني

اليابان، حيث يلبس سائق التاكسي قفازات بيضاء ويرفض البقشيش الذي تقدمينه إليه بأنفة، بل عن كاتمندو، عاصمة النيبال.

قالت: كاتمندو؟ أحسبها بلداً أهلها حشاشون...

قلت: الحشاشون ليسوا أهلها، بل الغرباء الذين يأتون من كل بلاد العالم ليحششوا فيها أحراراً. ركبت في كاتمندو سيارة موظف في إحدى السفارات هناك فوجدته في الشارع العريض يسير على مهله. سألته لماذا لا يستعجل؟ قال: ألا ترى البقرة الجاثمة أمامنا، والأخريات هناك؟ إني أحاذر إزعاجها... البقر هنا مقدس. من يؤذي بقرة يطرد من البلاد على الفور، ومن يتسبب بقتلها يسجن عشر سنوات. فما رأيك يا عزيزتي لو اتبعنا نحن هذه الطريقة، فوضعنا في كل شارع هنا بضع بقرات تمنع السائقين من الاستهانة بأرواح الناس وتضطرهم إلى التأني؟

قالت، وهي تتهيأ للنزول: ها نحن وصلنا فصف السيارة هناك. ما تقترحه معقول، شرط أن نضع في الشوارع الثيران بدل البقرات. إذا دهس ثور فلن يخسر البلد شيئاً، أما البقرة فإن دهسها يحرم عشرة أطفال، على الأقل، غذاءهم من الحليب...

وكنت قد فرغت من صف السيارة فقلت لها: تأبين إلاّ عصبية لجنسك. تأملي، وراءنا مرسيدس وقفت معنا في الوقت نفسه تكاد تصطدم بمؤخرة سيارتنا. أحسب أن سائقها ينحدر الآن ليجرنا إلى مشكلة ليس هذا وقتها، فقد تأخرنا عن أهلك بما فيه الكفاية.

فضحكت الصديقة وهي تقول: إنها أختي في سيارتها الجديدة

جاءت لتحضر معنا الغداء. لا تستغرب إذا أغرقتنا بآخر الشتائم المتبادلة على خطوط السرفيس، فقد أنذرتك بهذا منذ قليل...

وحقاً كانت سائقة تلك المرسيدس أخت صديقتي، التي هرعت إلينا مؤهلة مرحبة، مغرقة إيانا بالتحيات لا بالشتائم، مبينة لنا كم كنا متجنين على سيارات المرسيدس، ظالمين لسائقيها وسائقاتها...

١٩٧٤/٧/٥

بين الكف والفنجان

حدثني صديقي، وهو رجل بارز في بلده العربي وبين قومه، قال:

يضيق صدر الإنسان أحياناً بسبب أو دون سبب، فيسرّي عن نفسه بالأوهام. وهذا ما حدث لي منذ أيام فساقني إلى أن أقصد رجلاً يقيم في آخر المدينة، قيل لي إنه كان معلم مدرسة وتقاعد، اشتهر بقراءة الكف كما اشتهرت ابنته بقراءة الفنجان.

قلت للرجل، بينما كانت ابنته تضع أمامي فنجان القهوة الذي ستبصّر لي فيه: قبل كل شيء أريد أن أخبرك بأني لا أؤمن بهذا الذي ستقوله عما تتحدث به خطوط كفي عن حظي ومستقبلي...

فلم يبد على الرجل أنه استاء لما جبهته به. لا بد أنه سمع مثل هذا من كثير من المترددين عليه. أجابني بقوله: أنا أقرأ الكف، ويخطىء من يظن أن قراءة الكف هي علم بالغيب أو تنبؤ بالمستقبل. إنها دراسة لشخصية الإنسان من خلال الخطوط التي رسمها تكوينه وعمقتها عاداته في كفه، ثم استقراء لخط سير حياة هذه الشخصية

بعد تقدير إمكانياتها وتطلعاتها. أما معرفة المستقبل فهي ليست من شأني، إنها من اختصاص غالية، ابنتي هذه...

ارتسمت على شفتي ابنة الرجل، وهي فتاة بين العشرين والثلاثين، واسعة العينين ذات شعر أشقر طويل مرسل، ابتسامة غامضة مزيج من السخرية والاعتزاز. وتناول الرجل بكفيه الاثنتين كفي اليسرى، فمسح بأصابعه على راحتها أولاً، وتطلع طويلاً إليها قبل أن يقول: لا يحتاج الإنسان إلى كبير فراسة ليعرف معالم شخصيتك الرئيسية من خلال خطوط كفك. خط الحياة عندك عميق طويل، بينما خط الرأس، هذا الأوسط، متعرج كثير التشعبات. أما خط القلب فهو ذو شعبتين رئيسيتين أقصرهما هذه التي تتصل بخط الرأس.

قلت: أرجوك، لم أفهم شيئاً. أين هذه الخطوط، ومن أين لها هذه الدلالة؟

فابتسم الرجل وهو يقول: على عيني. سأشرح لك ما لم تفهمه. قلت لك إني لست عالماً بالغيب، ولكني أرى خصالك في هذه الخطوط. عندك كل المؤهلات لتعيش حياة مديدة، ولتنجح في هذه الحياة. صحتك جيدة، إمكانياتك المادية واسعة، ومواهبك التي فطرت عليها حسنة. الخطر عليك يأتي من فقد التوازن بين الرأس والقلب. تأمل خط القلب... إنه عندك ذو شعبتين أقصرهما تلك التي تتصل بخط الرأس. فإذا أضفنا إلى ذلك قصر السلامية الوسطى من سلاميات الإبهام، وهي التي ندعوها سلامية المنطق، تبين لنا أن هواك لا يسير مع المنطق، بمعنى أن تصرفاتك لا تنطبق في الغالب مع صالحك.

ضحكت وقلت: هل تقرأ أنت كفي، أم تقرأ كفّ البلاد؟

قال: ما تقصد يا سيدي؟

قلت: ما تذكره قد ينطبق نوعاً ما عليّ. ولكنك حين تكلمت عن الهوى الذي يسير ضد المنطق، والتصرفات التي لا تتفق مع المصلحة، تصورت أنك تصف حال أمتنا وعيوبها.

فهز الرجل كتفيه وهو يُطبق أصابع كفي على راحتها وقال: هذه سياسة، وأنا يا سيدي قارىء كف، لا أفهم بالسياسة. أما المستقبل فإن ابنتي تتحدث لك عنه... يا غالية!

جاءت غالية مسرعة من داخل البيت، فتناولت فنجاني الفارغ، المكبوب على وجهه، وقالت وهي تحدق بي بعينيها الواسعتين: أهلاً وسهلاً... اضمر!

سألتها: كيف؟

قالت: فكّر بالشيء الذي يشغلك أكثر من غيره. ربما أرانا الفنجان أشياء كثيرة، ولكن ما تضمره هو الأهم.

خطر ببالي حينئذٍ ما قاله الرجل، وما تصورته في أقواله عن أحوال بلدي، فقلت أجعل ذلك في ضميري ولأرَ ماذا عند هذه الفتاة عنه. قلت: ضمرت... أخبريني عما ترينه في هذا الفنجان.

ألقت الفتاة على الفنجان نظرة طويلة، وأدارته في كفها متأملة جوانبه من زوايا مختلفة، ثم تنهدت قبل أن تنطق قائلة: ما أراه ليس قليلاً. نجمك يا سيدي عال، بمعنى أن الكلام عنك كثير. الناس حولك كثيرون ويزدادون يوماً بعد يوم. أنت كنز يا سيدي. كنت مجهولاً وبدأوا يعرفونك. ولكن انتبه... يهتمون بك لأنهم يريدون أن يأكلوك. بل إنهم أخذوا بأكلك. يا لطيف... انتبه لحالك!

ضحكت من اللهجة الميلودرامية التي كانت تتحدث بها الفتاة، وقلت: هم، من هم؟

قالت: ناس يحيطون بك من كل جانب، شرقاً وغرباً، هذا يدفعك إلى ذاك، وفي كل مرة يلتهم واحد منهم قطعة منك. الغربي أقوى، والشرقي أشد مكراً... وكلهم عليك. هل ترى هذا القنديل؟

ومدت الفتاة يدها بالفنجان الفارغ واضعة إياه تحت عينيّ، فلم أر في الحثالة المبسوطة في قاعه صورة لقنديل ما، إلاّ أني هززت رأسي بحركة مبهمة بينما استطردت هي تقول: نجمك عالٍ مثل ضوء القنديل شرط أن تشعل فتيلته بزيتك أنت. لا تعتمد يا سيدي على غير نفسك، واحذر قريباً هو منك وفيك مثل حذرك من الغريب. نعم، لك قريب يعطيك الواحد ليأخذ منك العشرة. لسانه معك، وفعله مع الأعداء.

قلت: كلامك ملأ قلبي رعباً يا بنيتي... أما من بصيص ضوء في هذا الظلام كله؟

تنهدت الفتاة مرة أخرى وهي تقول: إشارة... إشارتان... ثلاث! بعد ثلاث إشارات، أيام أو أسابيع أو شهور، وربما سنوات.. بعد ثلاث سنوات على الأرجح، يأتيك الفرج.

فلم أملك نفسي من أن أسأل بلهفة، بين المصطنعة والحقيقية: بعد ثلاث سنوات... ومن أين؟

قالت بثقة: عليك أن تحذر القريب الذي أخبرتك عنه. إنه يحفر تحت قدميك. الفرج سيأتي بعد ثلاث إشارات فيقع هو في الحفرة. تقول من أين؟ إني أراها. ليست غريبة، بل هي من دمك ولحمك. سمراء، شعرها طويل. أنظر إلى عينيها... إنهما تقدحان النار...

لم تعد اللهجة الميلودرامية على لسان الفتاة مضحكة، بل أصبحت مؤثرة ومقنعة إلى درجة أني تطاولت بعنقي متطلعاً في الفنجان لأرى العينين اللتين تقدحان النار. غير إني عدت فضحكت من نفسي، في سرّي، بينما رفعت صوتي قائلاً: إذا كانت جميلة تلك الامرأة التي سيأتي الفرج عن طريقها، أفلا ترين أن انتظار سنوات ثلاثاً كثير على من كان مثلي؟

فوضعت الفتاة فنجاني على الطاولة، مؤذنة بانتهاء قراءتها له، وقالت بنبرة هادئة أقرب إلى هدوء أبيها في حديثه حين قرأ لي كفي: ثلاث سنوات ليست كثيرة على من صبر العمر الطويل. وأنا لم أقل لك إنها امرأة. قد تكون امرأة، وقد تكون مجموعة من الرجال الثائرين الذين تتقد النار في عيونهم، وقد تكون قنبلة ذرية. في الانتظار انتبه لنفسك يا سيدي... إثبَت إلى أن يأتيك الخلاص.

سكت صاحبي، الرجل البارز في بلده وبين قومه، حين بلغ هذا من حكايته. قلت له: وبعدئذٍ؟

قال: بعدئذٍ خرجت من عند قارىء الكف وابنته قارئة الفنجان وأنا أضيق صدراً مني وقت جئتهما. لم أؤمن يوماً بتخرصات المنجمين وقارئي الحظ، ولكني قلت لنفسي: ماذا لو صح الأمر مرة وصدقت تكهنات غالية عن مستقبلي، أو عن مستقبل البلد الذي ضمرته في خاطري حين بدأت بقراءة الفنجان؟ شغل هذا السؤال فكري بإلحاح. وتراني منذ ذلك اليوم أفتش، في بالي، عن ذلك الرجل القريب الذي يحفر الأرض تحت قدمي، وعن تلك الامرأة ذات الشعر الأسود والعينين اللتين تقدحان شرراً... إذا كانت امرأة ولم تكن ثورة لاهبة أو حرباً قادمة...

ضحكت من قلق صديقي وقلت له: هل تذكر بطل مسرحية «مروحة الليدي وندرمير» لأوسكار وايلد؟ تنبأ له العراف بأنه سيرتكب جريمة قتل، فراح يبحث عن رجل يقتله ليحقق النبوءة. إياك أن تتشبه بذلك البطل. أما إذا كان لا بد من أن تفعل، فإني أرجوك... كفانا ثورات وحروباً، وابحث لك عن سمراء سوداء الشعر نارية النظرات، وقع في هواها، فهي خير ما تتحقق به نبوءات الكف والفنجان.

١٩٧٤/٧/٦

فليسلم العود...

«رسالة إلى الصديق الشاعر محمد الحريري»

عزيزي محمد، أيها الشاعر الظريف!

ناديتني من شباك المقهى المطل على الطريق، وفي صوتكِ رنة أسى وفي وجهك تجهم. قلت لي إنك تريد أن تسمعني قصيدتك الأخيرة التي نظمتها في حادثة ترشيحا التي سموها معالوت. أجبتك بأني معجل، وسأسمعها منك في مرة أخرى. قلت: لقد هاجمني بسببها أصدقاء أوفياء وشعراء مبدعون، وأريد أن أعرف رأيك. سألتك: ولِمَ هاجموك؟ أجبتني: لأني قلت فيها:

طـوقـوا بـالأريـج نـشء أفـاعِ

رشـفـوا الحقـد واحـتـسـوه شـرابـاً

قالوا لي إني بهذا أحمّل الأبناء جريمة الآباء وأسبُّ اليهود كلهم كشعب، وإني أحيلها عنصرية. فهل أنا مخطىء فيما قلته؟ أريد أن أعرف رأيك أنت...

كنت في الواقع يا صديقي معجلاً فلم أستمع إلى قصيدتك، وإنما طيبت خاطرك وانصرفت، ثم سافرت إلى بلدي ولم أرك بعدها.

ولكنني الآني أتذكرك برنة الأسى في صوتك والتجهم في وجهك، وأتذكر بيت الشعر الذي اتهموك من أجله بالعنصرية، لأنك وصفت صبية اليهود الذين أعدّوهم ليقتلوا أطفالنا بأنهم نشء أفاع. أتذكر هذا لأني عائد منذ قليل من القنيطرة. عدت من زيارة القنيطرة بعد أن جلت في شوارعها المقفرة بين بيوتها المهدمة وأشجارها المحترقة وحقول الألغام المبثوثة على جانبي الطريق إليها. مدينة كاملة لم يترك فيها العدو جداراً قائماً ولا منزلاً قابلاً للسكنى. منارة المسجد مبتورة من حذاء موقف المؤذن فيها، وفي بهو الكنيسة المشوهة الجدران المحطمة الزخارف، المائل صليبها على أحد برجيها، خيّل إليَّ أني أسمع صوت السيد المسيح يصرخ في وجوه المجرمين الذين هدموا هذه المدينة داراً داراً، ما صرخ به في وجوه آبائهم منذ ألفي سنة: أيها الحيات، يا أولاد الأفاعي!

ذلك أنك لست يا صديقي محمد أول من سمى اليهود أولاد الأفاعي. قبلك سماهم السيد المسيح بهذا الاسم حين قال لهم: أيها الحيات أولاد الأفاعي، أنّى لكم أن تهربوا من عقاب جهنم؟ وقال لهم أيضاً: يا أولاد الأفاعي، أنّى لكم أن تقولوا كلاماً طيباً وأنتم خبثاء؟ إذا كنت لا تصدّقني يا أخي محمد فارجع إلى الإصحاحين الثالث عشر والثالث والعشرين من إنجيل متّى. علام إذن يتهمك من سميتهم أصدقاء أوفياء وشعراء مبدعين بالعنصرية؟ أيريدون منك أن تكون أكثر تسامحاً من السيد المسيح، وأكثر معرفة منه باليهود آباء وأبناء؟

من يتهمك بالعنصرية لهذا البيت الذي قلته، ويريد منك تسامحاً لأعداء أمتنا وأعداء كل ما هو إنساني، عليه أن يرى القنيطرة بالعين التي رأيتها بها أمس أيها العزيز، وأن يطلّ عليها إطلالتي من سطح

المستشفى الذي رقيت ما تبقى من أدراجه المتهدمة بين جدرانه المثقبة بطلقات الرشاشات وقنابل المدافع، وأن يسمع ما سمعته من أهلها العائدين ليتفقدوا مساكنهم في المدينة المستردة. قلت للسيدة التي نقلتها في سيارتي من وسط البلدة إلى الحي الجنوبي: هل أنت من أهل القنيطرة؟ قالت: نعم، تركناها عند نشوب حرب ٦٧ وعدنا اليوم لنتفقد بيتنا... تفضلوا لأريكم بيتنا، زوجي والأولاد ينتظرونني هناك! وسلكنا طريقنا بين الخرائب حتى الشارع الكبير الذي يقود إلى سينما الأندلس ونادي الضباط في ظاهر المدينة. أشارت السيدة من نافذة السيارة إلى الجنوب وقالت: ذاك البستان، تحت التل، هو بستاننا لا يزال في يد العدو، أما بيتنا فهو هذا، وهذا زوجي! وتطلعنا. كانت هناك كومة من الأتربة والأخشاب المبعثرة، وركائز محطمة، يجثم فوقها سقف إسمنتي لاصق بالأرض: دار تقوضت دعائمها وهبط سقفها، مثل كل دور القنيطرة في كل شوارعها. لم تتهدم تلك الدور في غمرة المعارك بل هدمها اليهود قبل أن ينسحبوا منها، بعد وقف إطلاق النار وعشية الانسحاب الذي زعموا أنهم يريدونه بداية سلام دائم. كانوا يجيئون بالبلدوزر إلى كل منزل، فيضربون به الركائز في أركانه، فيخر السقف ويتقوض البيت. المدينة كلها سقوف لاصقة بالأرض جاثمة على أكوام من الأتربة والأنقاض. ورددت السيدة بصوت هادىء، ولكنه مجروح بالأسى: نعم، هذا بيتنا...

قد تسأل يا صديقي محمد: لِمَ فعل الإسرائيليون هذا بالقنيطرة التي قبلوا، بعد أن قامت عليهم الدنيا وقعدت، أن يرفعوا أيديهم عنها؟ أنا أجيبك. فعلوه أولاً ليصدقوا القول الذي قلته أنت عنهم، وقاله قبلك السيد المسيح، من أنهم أولاد أفاعٍ طبعوا على اللؤم

وغذوا بالحقد وتكشفوا عن اللاإنسانية. ثم إنهم فعلوه ليعرّفونا أية حرب علينا أن نخوضها مع أولاد الأفاعي هؤلاء. إنهم يقولون لنا بما فعلوه: «أحقاً تريدون أن تستعيدوا الأرض التي اغتصبناها، تريدون حيفا ويافا والقدس؟ ليكن في علمكم أننا إذا قسرنا على إخلاء هذه المدن وتلك الأرض فإنها لن تعود إليكم إلاّ كما عادت القنيطرة، ركاماً وأنقاضاً وخرائب مهدمة...».

نعم يا صديقي. ذاك بلا شك ما يريد أن يقوله لنا اليهود في تهديمهم البربري للقنيطرة قبل انسحابهم منها، وذاك ما يجب أن نعيه منذ الآن. فهل يفتّ هذا في عضدنا؟ قطعاً، لا. لن يفت هذا في عضدنا، وليس يخيفنا. صحيح أن القنيطرة عادت إلينا ركام أتربة وأنقاضاً وخرائب، إلاّ أنها عادت. عندنا، في بلدتي التي أكتب إليك منها هذه الكلمات، كلمة مأثورة أحب أن أستشهد بها لك. فحين يبرأ المريض من داء عضال ويشتكي لمن حوله مما تركه ذلك الداء فيه من هزال وضعف يقول له الناس عندنا: يسلم العود، واللحم مردود! ونحن كذلك نقول لأولاد الأفاعي الذين تركوا لنا القنيطرة ركاماً، وهم يهددون بأنهم لن يتركوا لنا القدس ويافا وحيفا إلاّ ركاماً: تجرعوا سمكم الزعاف وموتوا بحقدكم اللئيم... سنستعيد أرضنا ولو ركاماً وأنقاضاً... وحين تعود إلينا الأرض سيعرف أبناء الأبطال الذين استعادوها كيف يزرعونها حياة وعمراناً وقيماً إنسانية... فليسلم العود، واللحم مردود!

هذا ما أردت يا صديقي الشاعر أن أقوله لك، ولو متأخراً، جواباً على ما أحببت أن تعرف فيه رأيي فيما قلته في قصيدتك. ثق إني أشاركك، فيما شاركت أنت فيه السيد المسيح، من تقييم ووصف لأولئك المجرمين الذين اغتصبوا أرضنا وقتلوا، وما زالوا يقتّلون في

كل يوم أطفالنا. فهل أرضاك هذا؟ تقبل إذن مع تحيتي أطيب التمنيات لك بالصحة والعافية، وبتواتر الإلهام وتوقد الشاعرية، واسلم لصديقك.

ع.ع

١٩٧٤/٧/٣١

حكايات مهداة إلى جاك بيرك

الكتاب الأخير للبروفسور جاك بيرك، المستعرب الكبير والأستاذ في الكولّج دوفرانس، وعنوانه: «لُغَىً عربية في الزمن الحاضر»، كتاب جاد كل الجد. فهو دراسة، بالفرنسية، واسعة وعميقة لقضايا العرب الثقافية والاجتماعية والسياسية، ولطرق تعبيرهم عن واقعهم الحضاري، مستندة إلى أحداث التاريخ، وبصورة خاصة إلى إنتاج كل من صنع أدباً باللغة العربية من امرىء القيس إلى كاتب هذه السطور.

نعم، إنه كتاب جاد كل الجد، مثل كل كتب هذا العالم المدقق الذي دفعته أمانته العلمية وروح المحبة التي يحملها للعرب إلى أن يقف منافحاً عن قضاياهم على منابر الغرب في أحرج الأوقات وأمام أعنف المهاجمين. ومع ذلك فقد تسربت الابتسامة إلى شفتي وأنا أقرأ بعض فصول هذا الكتاب. فقد تذكرت بها حكايات طريفة قد تكون صالحة لأن يعقد عليها الأستاذ بيرك فصولاً أخرى يتحدث فيها عن العلاقة بين المفردات المحكية ومعاني تلك المفردات في مجتمعات عربية أعيش أنا وأمثالي فيها، في حين لم يتح لهذا البحاثة المتعمق التعرف عليها أو الاحتكاك بأفرادها.

من هذه الحكايات قصة زميل لي يمارس في نواحينا من وادي الفرات، إلى جانب العمل في عيادته الطبية، الزراعة، ويملك لهذه الممارسة الأخيرة بعض الآليات التي تستلزمها: تراكتور، أي جرار زراعي، وحصادة، وما أشبه ذلك. جاءني هذا الزميل مرة منزعجاً يشكو لي قلة احتفال أهل بلدنا به وضعف تقديرهم للقبه العلمي. قال لي: تصور، الناس يجعلون لقبي، بدلاً من دكتور، تراكتورا أمس جاءني واحد منهم وقال لي: يا تراكتور، أريد أن تؤجرني الدكتور لأفلح به الأرض. حاولت أن أصحح له خطأه بقولي: إني أنا الدكتور وعندي تراكتور، فرد عليَّ قائلاً: لا تضحك عليَّ... أنت تراكتور وعندك دكتور! إلى هذا الحد بلغ الجهل بجماعتك في هذه المنطقة؟

ضحكت أنا في حينها وهدأت من انزعاج زميلي بأن قلت له إن الأمر ليس جهلاً، وإنما هي حياتنا الاقتصادية التي تطورت في وادي الفرات تطوراً لم تقو لغتنا المحكية على مجاراته. ولما رأيت أن هذا التفسير لم يقنع زميلي أضفت قائلاً بأني أعتقد أن ليس في تسمية الدكتور تراكتوراً استهانة بالأطباء بل لعل فيها زيادة في تقديرهم: أمس سمعت مزارعاً يقول إنه فلح على دكتور آل فلان خمسين دونماً، وهو يعني بذلك تراكتورهم، أي جرارهم الزراعي. أترى دكتوراً منا، نحن حملة الشهادات العليا، قادراً على أن يشق من الأرض أكثر من خط من دونم في النهار والليلة؟!

ومن تلك الحكايات أيضاً قصتي أنا مع الخال أبي غسان، وهو مزارع قديم قضت المناهج الاقتصادية الحديثة على زراعته وقادته إلى الافلاس. كان أبو غسان إلى جانبي في قاعة المضافة ونحن نستمع إلى الراديو الذي كان يهدر بالحملة على قوى الغرب

الغاشمة، المضطهدة لشعوب العالم والممتصة لخيراته. فمال عليَّ وقال: أريد أن أسألك سؤالاً. قلت: تفضل. قال: أسمعهم يذكرون كثيراً كلمة إمبريال ويقولون إمبريالية... هذه الامبريالية التي يتكلمون عنها، ما هي؟ كان سؤالاً وجيهاً من رجل يريد أن يفهم. فشرحت له معنى الامبريالية قائلاً إنها التسلط التوسعي للدول القوية في العالم الحديث. كان تسلطاً بقوة السلاح في البدء ثم تحول إلى تسلط اقتصادي غايته ابتزاز ثروات البلاد الضعيفة وقهر شعوبها. شرحت وشرحت، ولكني رأيت أبا غسان يهز رأسه في تشكك. سألته: أليسَ كلامي مفهوماً يا خال؟ قال: كلامك حلو، غير أن بضاعة خالك من العلم قليلة... من ناحيتي أذكر أنه كان عندي محرك على المازوت، موتور، ماركة إمبريال... موتور شطح بقوة أربعة وعشرين حصاناً. عشر سنين وأنا أسقي عليه، وأنقّله من مكان إلى آخر، ولم يتعطل مرة واحدة. أما هذه الموتورات الجديدة... فانظر إليها: موتور الكهرباء مثلاً الذي نصبوه لنا منذ سنتين! الصحيح يا ابني أن ما يقولونه عن الموتورات الامبريالية فيه ظلم كبير...

في هذه المرة كنت أنا المنزعج لما أضعت من وقت في محاضرة في الاقتصاد السياسي لم يثبت منها حرف في ذهن مخاطبي. إلاّ أني لم ألبث حتى ضحكت وأنا ألتمس لأبي غسان العذر الذي التمسته لمن أزعجوا زميلي حين خلطوا الدكتور بالتراكتور خلط أبي غسان محركات السياسة العالمية بالمحركات الميكانيكية الدائرة على المازوت.

ومثل هاتين حكايات كثيرة يرويها الإنسان متندراً أو يجدها مثيرة للضحك ولكن لها دلالتها، وقد يكون لها تأثيراتها. من هذه

التأثيرات ما ذكروا من أن لطفي السيد باشا، وهو معلم الأجيال الأولى في مصر الحديثة ورئيس الجامعة المصرية لسنوات عديدة في مطلع هذا القرن ومترجم أرسطو، سقط مرة في الانتخابات النيابية أمام مرشح قليل المؤهلات لأن ذلك المرشح خطب في ناخبيه قائلاً: إن الباشا رجل طيب ولكنه يدعو إلى «الديمقرطانية». و«الديمقرطانية»، على ما فسرها ذلك المرشح، هي المذهب الذي يدعو إلى المساواة بين الرجال والنساء... بمعنى أنه ما دام للرجل أن يتزوج أربع نساء فإن للمرأة الحق أن تتزوج أربعة رجال! وأثار هذا الادعاء الناخبين من الريفيين البسطاء فذهبوا إلى الباشا يسألونه إذا كان صحيحاً أنه يدعو إلى الديموقراطية؟ ضحك الباشا وقال لسائليه إنه يؤمن حقاً بالديموقراطية، وإن الديموقراطية تعني... ولكن الناخبين الريفيين لم يمهلوا الباشا حتى يتمّ عليهم شرحه الأكاديمي، بل انصرفوا إلى مرشحهم الآخر الذي لا يؤمن بالديمقرطانية، ولا يدعو إلى حق المرأة في أن تتزوج أربعة رجال مثلما يتزوج الرجل أربع نساء!

هذه حكايات خطرت لي، وأمثالها، وأنا أقرأ بعض الفصول في «لُغيَّ عربية في الزمن الحاضر»، آخر كتب الأستاذ جاك بيرك، فوددت لو أني رويتها له وهو يعد العدة لتأليف هذا الكتاب. إذن لوجد فيها مادة لفصل أو فصول يضيفها إليه ويسميها مثلاً «تأثر المفرد التكنيكي باجتماعية المعبِّر»، أو يسميها «التباين بين اللفظ والمدلول في الريف المصنّع»، أو غير هذه الأسماء والعناوين التي برع الصديق الكبير في صياغتها وابتداع ألفاظها، مثل براعته في دراسة دواعيها وتقصي معانيها في كل ما يجلو حقيقة العرب ويبرز أصالتهم وقيمتهم الحضارية والإنسانية.

١٩٧٥/٢/٢٣

الجمال ... في الانتخابات، وفي غيرها

آخر الأوصاف التي يمكن أن تطلق على الانتخابات، أية انتخابات في أي زمن، وصف الجمال. قد تكون الانتخابات نزيهة أو مزيفة، وقد تكون حماسية أو فاترة، وقد تكون انتخابات بالأكثرية أو بالاجماع، الاجماع الحقيقي أو المطبوخ... ولكن من يخطر له أن يصف انتخابات ما بالجمال؟ حتى انتخابات الجمال نفسه، أعني الانتخابات التي تعلن لاختيار ملكة جمال العالم أو الضيعة، أو ملكة جمال العنب أو الفلافل، لا تلبث أن تتحول إلى معارك بشعة تشد فيها الشعور وتقطع الثياب أحياناً، وتتبادل فيها الإهانات وتمزّق الأعراض أحياناً أخرى. وصديقي القديم الأستاذ ريمون لوار، الذي هجر كتابة القصص والفصول الأدبية إلى تنظيم انتخابات ملكات الجمال، خير من يعرف هذا.

والحقيقة أني كلما قرأت أخبار المشادات والفضائح التي تعقب في العادة انتخابات ملكات الجمال عجبت كيف رضي ريمون لوار، وهو الأنيق الذوق الرقيق الطباع، بأن يدخل في معارك مثل هذه.

وحدثت نفسي بأن ألومه على هذا حين ألقاه، ولكني حين ألقاه أضرب صفحاً عن هذا اللوم لأني أعرف سلفاً جواب صديقي على انتقاداتي له. سيقول لي: أيها المسكين العائش في مجاهل البوادي، ما الذي تعرفه أنت عن شؤون حفلات انتخابات ملكات الجمال؟ متعة العين والقلب فيها تبرر كل التبرير وجع الرأس الذي ينجم عنها... لا تنس أن أول انتخاب لملكة جمال على هذه الأرض سبّب حروباً طويلة عريضة هي حروب طروادة... فإذا كانت أم الأرض القديمة تحملت تلك الحروب الدامية من أجل عيني أفروديت وربيبتها هيلانة، فهل تستكثر علينا أن نتحمل بضع مشاحنات، وبضع مسبات، بل وبضع لكزات، من أجل عيني جورجينا رزق وسابقاتها ولاحقاتها على عروش الجمال في لبنان والعالم؟

أمام هذه الحجة التي أسوقها على نفسي بلسان ذلك الصديق القديم أجدني مضطراً إلى السكوت. نعم، لقد نشبت حروب طروادة في أعقاب أول انتخاب لملكة جمال في هذه الدنيا. كان باريس ابن الملك بريام يرعى خرافه بين السفوح، على ما تقول الميثولوجيا، فتقدمت إليه ثلاث من ربات الأولمب، أفروديت وأثينا وحيرا، وأعطينه تفاحة كانت في أيديهن، وطلبن منه أن يقدم التفاحة إلى أجمل واحدة بينهن. كان طبيعياً أن تكون التفاحة من نصيب أفروديت، فهي ربة الحب والجمال. فرحت أفروديت بانتخاب باريس لها ووعدته بأن تجعل أجمل نساء البشر، هيلانة الإغريقية، من نصيبه. أما الربتان الأخريان فقد دبت الغيرة في نفسيهما فأثارتا الإغريق على الطرواديين قوم باريس. ونشبت من ذلك تلك الحروب. فإذا كانت انتخابات الجمال نفسه،

والمشتركات فيه ربات الجمال والحكمة والأمومة، قد انتهت بتلك البشاعات، فكيف يمكن لأية انتخابات أخرى تجرى على هذه الأرض أن تكون جميلة؟

ومع ذلك فإني أعرف انتخابات لا يكون وصفها بالجمال في غير محله، وقد اشتركت أنا بها شخصياً. لا يظنن أحد أني أعني بها الانتخابات التي سبق لي أن رشحت نفسي فيها وفزت بها: برئاسة لجان الطلاب أيام الدراسة، أو برئاسة بعض النوادي خلال تلك الأيام وبعدها، أو بالنيابة أيام المجالس النيابية. كما لا أعني انتخابات التزكية، تلك التي يراهن فيها على فارس واحد يشترك في انتخابه الأحياء والأموات وينال من الأصوات أضعاف ما تحتويه الجداول الانتخابية. فهذه وتلك إذا خلت من الاصطدامات الدموية والاشتباكات العشائرية والتصادمات الحزبية فهي لا تسلم من الغمز واللمز وإثارة الأحقاد، ولا من النقمة الخفية والمعلنة. وإنما أعني، حين أصفها بالجمال، انتخابات أخرى أقبلت عليها بنفس رضية وابتسامة تملأ وجهي... لأن ما كان مطلوباً مني فيها هو أن أعطي صوتي لأجمل زهرة من زهور الأضاليا، التي كانت مصفوفة في أصصها الخزفية، أمام مدخل فندق نيكّو كانايا، بالقرب من الجسر الأحمر المقدس في شمالي طوكيو.

قصدنا ذلك الفندق متعبين من جولاتنا في حدائق نيكّوالواسعة وبين معابدها المتعددة والرائعة فوجدنا أزهار الأضاليا، الداهليا، تستقبلنا على مدخله. أضاليا يابانية طويلة الساق، متراكبة الأوراق، سعة الزهرة منها أكبر من سعة زهرة عباد الشمس، كل منها بلون وكل منها في أصيص، وعلى كل أصيص رقم. كان هناك خمس عشرة زهرة مصفوفة في أوعيتها، وبالقرب منها لوحة كتب عليها

باليابانية والإنكليزية دعوة إلى كل مارٍ من هذا المكان أن ينتخب من هذه الأزهار أجملها، فيكتب رقمها على ورقة ويلقي الورقة في صندوق الاقتراع!

ما كان أجمله اقتراعاً... أذكر أني نسيت تعبي آنذاك ورحت أتجول بين الزهرات التي كانت تنثني برشاقة على سوقها الطويلة، تضحك تويجاتها لأشعة الشمس وترفّ لمداعبة النسيم، وأنا أحاول المفاضلة بينهن. كانت كل زهرة منهن تغريني كي أنتخبها ملكة على رفيقاتها. لم يكنّ يغرينني بما يرغب المرشحون الذين نعرفهم به الناخبون أو يرهبونهم: بالمنصب والمال أو بجبروت ذوي السلطان. وإنما كان إغراؤهن لي بروعة اللون وحسن التفتح وطيب الأريج. وإذا كانت العادة في الانتخابات البشعة أن يطلب من الناخبين أن يضعوا أيديهم على ضمائرهم عند اختيارهم لمرشح ما، فإني في هذا الانتخاب الجميل وضعت يدي على قلبي وانتخبت زهرة تويجاتها ليلكية، بلون زرقة السماء المشربة بحمرة الغسق، ملكة على أربع عشرة من جميلات أزهار الأضاليا...

* * *

هذه هي الانتخابات الجميلة التي أعنيها والتي أروي قصتها لأصحابي كلما جاء ذكر انتخابات غير جميلة، مما تدور رحاها كل يوم في كل بقعة من بقاع هذه الدنيا. في ذات مرة قال لي أحد أولئك الأصحاب: أنت تحب أن تخالف الناس فتقول إنك وجدت الجمال في أبعد مكان يمكن أن يوجد فيه... في الانتخابات! هل تريد أن تقول بهذا إنك على مذهب إيليا أبي ماضي الذي ينادي: أيها المشتكي وما بك داء... الخ..؟ أجبت صاحبي بقولي: بل أردت أن أخبرك بأني وجدت الجمال في مكان

آخر، وفي اليابان ذاتها، لا يخطر لك على بال. سألني: أين؟ قلت: في المظاهرات، مظاهرات تلك البلاد! ضحك محدثي وقال: الجمال في الانتخابات فهمناه، أما في المظاهرات... كيف؟ قلت: اسمع... كنا نخرج من سهراتنا في طوكيو بعد منتصف الليل فنجد العساكر في الشوارع تحمل الأسلحة والهراوات، قاطعة الطريق على جماهير من الطلبة أو العمال تجتمع وتتفرق وتهتف وتلوّح بالشعارات. سألنا عن تلك الجماهير فقيل لنا إن هذه مظاهرات للطلاب أو العمال تحارب سياسات معيّنة أو تطالب بمطالب خاصة. قلنا: ولماذا تقوم هذه المظاهرات في الليل دوماً؟ فأجابنا دليلنا الياباني الذي سألناه: ومتى تريدونها أن تقوم؟ في النهار؟ النهار للعمل... التلميذ في النهار في مدرسته والعامل في مصنعه... وإنما تقوم المظاهرة ليلاً بعد أن يكون هذا وذاك انتهى من أداء واجبه! وأضفت أنا أسأل صاحبي: قل لي الآن، ألا توافقني على أنها مظاهرات جميلة تلك التي رأيناها في طوكيو؟ سكت صاحبي لحظة ثم قال: هذا شيء لم أسمع به قبل الآن. ما ذكرته يعني أن أولئك اليابانيين عجيبون في جدّهم وحيوية ضمائرهم وإدراكهم للصالح العام... ومع ذلك فأنا لا أوافقك على رؤيتك الجمال في كل مكان، وحيث لا يمكن أن يكون... أنت لا تزال مغشوشاً بإيليا أبي ماضي الذي يزعم لمن يرى الأمور على حقيقتها في هذه الدنيا أن العيب في الناظر لا في الأمور، فيصيح به في عصبية: أيها المشتكي وما بك داء، كن جميلاً تر الوجود جميلا!

١٩٧٥/٣/٧

طواحين بيروت

«ـ كل يوم خضة.

هكذا كانوا يقولون. يخشون خصوصاً أن ينقلب الأمر في بيروت إلى ما انقلب قبل أيام في طرابلس: اصطدامات وقتلى. مع الفدائيين وضد الفدائيين.

ـ وضربات سخنة.

ـ والعودة إلى نغمة مسلم مسيحي.

ـ أصابع أجنبية. إسرائيل.

ـ لا مسلم ولا مسيحي. إسرائيل لا تفرّق بيننا.

ـ إسرائيل ومعها ألف عزرائيل: الزعماء ومآربهم ونكاياتهم.

ـ يتناحرون فيما بينهم واليهود على الحدود.

ـ الجيل الجديد كفر بهم وبخزعبلاتهم.

ـ أين هو الجيل الجديد؟ بالسينمات والستريوهات. إلى أين نروح مع جيل الهيبي؟

ـ والميني جيب!

فأفلت السائق المقود ورفع قبضته مهدداً. كان منرفزاً ويتوقع لهذا اليوم شؤماً...».

هذا حوار مكتوب، المفروض أنه دار في سيارة تكسي كانت تخترق أحد شوارع بيروت. لم أكتب أنا هذا الحوار، وهو لم يكتب في هذه الأيام. فأنا أنقله من إحدى صفحات رواية صدرت منذ ثلاثة أعوام، رواية «طواحين بيروت» للأديب الكبير السفير توفيق يوسف عواد. لا بد أن توفيق يوسف عواد كتب روايته قبل تلك الأعوام الثلاثة بكثير، ولكن أشخاصها يقولون الكلام نفسه الذي كان يقوله ركاب تكسيات بيروت عشية أحداث نيسان السوداء من عامنا هذا... لولا أن أحداث بيروت هذا العام سبقت أحداث طرابلس في التوقيت. فما الذي يعنيه هذا؟ ما الذي يعنيه أن يضع كاتب فنان على ألسنة أشخاصه كلمات مأسوية يستبق بها الزمن، إذ تتردد على ألسنة الناس الحقيقيين بعد أربع سنوات أو خمس من كتابتها، أو أنها تظل ماثلة في ضمير الناس الحقيقيين بعد هذه السنوات وإن لم يرفعوا بها أصواتهم؟

من الناحية الأدبية قد يعني هذا توكيد موهبة الكاتب الفنان الذي استشف المستقبل من استقرائه للحاضر والذي أنطق شخوص روايته بجمل تحمل هموم بلدهم الموقتة... هموماً تراءت للناس موقتة بينما أثارت الكاتب قدرتها على الاستمرار فأثبتها في صفحات كتابه. موهبة الكاتب تجلت حتى في تسميته روايته طواحين بيروت... طواحين تدور في مكانها، مرددة الأصوات البغيضة نفسها، مهشمة القيم والمصالح نفسها.

هذا بعض ما يعنيه، من الناحية الأدبية، حوار كتبه توفيق يوسف عواد في روايته. غير أن هناك نواحي أكثر أهمية من الناحية الأدبية يقودنا إليها اكتشافنا انطباق هذه الكلمات المكتوبة منذ سنين على أحداث هذه الأيام. لقد كتب توفيق يوسف عواد نفسه قبل هذه الرواية رواية كبيرة أخرى، هي «الرغيف»، وصف فيها وقائع فاجعة عاشها لبنان خلال الحرب العالمية الأولى. تجاوز لبنانيو تلك الأيام تلك الوقائع الفاجعة فأمست ذكريات لا تتكرر. فلماذا ظل لبنانيو اليوم يتخبطون في أحداث «طواحين بيروت»، حتى أصبحت لهم واقعاً لا يتبدل؟ لماذا وهم الأذكياء، المتمرسون بالسياسة والخبراء بالاقتصاد والمشغوفون حباً ببلادهم، يظلون مرتبطين بهذه الطواحين الرهيبة، يلقون بين رحاها نجاحاتهم الاقتصادية وقيمهم الإنسانية ويطعمونها فلذات أكبادهم؟ كيف يرضون لأنفسهم أن يستمعوا ليل نهار من جعجعة الطواحين أصوات التفرقة البغيضة بين مسلم ومسيحي، ومناصر للفدائيين ومناهض لهم، والارتباط بزعماء لهم مآربهم ونكاياتهم؟ كيف يستسلمون في عصر النور والمساواة إلى طواحين بيروت التي تعمل للظلم في الظلام؟

ولكن هل هي طواحين بيروت وحدها هذه التي يتحدث عنها توفيق يوسف عواد في روايته ويقع اللبنانيون فريسة لرحاها؟ قد يكون مقر تلك الطواحين في بيروت، ولكنها في الواقع إنما أعدت لا لتطحن نجاحات اللبنانيين الاقتصادية وقيمهم الإنسانية وفلذات أكبادهم وحدها، بل لتتجاوز في طحنها وتحطيمها آفاق لبنان المحدودة إلى آفاق أوسع، هي آفاق الوطن العربي كله. طواحين نصبت في بيروت، تدور رحاها على مصالح العرب وعظام

أبنائهم، وفوق المصالح وأرواح الأبناء يريد مديروها أن تدور تلك الرحى على قضايا العرب المصيرية بكاملها.

حين كانت نار الفتنة تضطرم في شوارع بيروت وضواحيها في نيسان المنصرم، والناس في كل أقطار العرب يضعون أيديهم على قلوبهم خوفاً من أن تستفحل النار فتأتي على وشائج الاخوة والمواطنة والمحبة، وتنسف معاقل القومية والحرية والحضارة، في تلك الأثناء لقيني صديق وقال لي: أذكّرك بكلام كنت تردده على أصحابك في لبنان وأراه تحقق اليوم. سألت ذلك الصديق: أي كلام تعني؟ قال: أما كنت تقول لهم، كلما رأيت مؤسسات في لبنان تعيش وتزدهر متغذية من خلافات نظم الحكم العربية، ونشاطات في لبنان تخلق بأموال العرب المهربة من أقطارها وبأدمغة الهاربين من محن تلك الأقطار، أما كنت تقول لهم إن لبنان يعيش على مصائب الأمة العربية ولكنه سيحترق بنار تلك المصائب في ذات يوم؟ ها أن ذلك اليوم جاء! قلت لصديقي: ما تقوله صحيح مع الأسف والأسى. نعم، طالما رددت أنا هذا الكلام على أصحابي هناك... ولكن هل تظنني كنت أقوله توعداً وتهديداً؟ الحق إني كنت أقول ذلك القول محذراً ومشفقاً، وخائفاً على نفسي وقومي من خلال خوفي على لبنان وأهله... فأنا أعرف أن لبنان وطن العرب كلهم، وأنه إذا قدر كل بلد عربي على أن ينكفىء على نفسه ويعتزل اخوانه فإن لبنان يظل قاسماً مشتركاً لكل الأقطار العربية، ولا سيما لأقطار المشرق العربي، يعيش لها مثلما يعيش بها... ونار المصائب التي تناله لا بد أن تنال كل قطر منها مهما ظن أنه منها سالم!

ذلك خوفي وخوف كل محب لأمته من طواحين بيروت، أن تدور

رحاها لا على اللبنانيين وحدهم بل على كل العرب. ومَنْ مديرو تلك الرحى؟ ليسوا هم اللبنانيين الخلّص، ولا العرب أياً كان انتماؤهم، وإن خيّل ذاك إلى أحد منهم حين يرى يده تقبض على البندقية والرشاش أو يجد أنه يصدر الأوامر والإيعازات. إنها رحى لا تديرها الأصابع العربية... رحى شر تذكرني بالرحى التي توعد بها أبو لؤلؤة، قاتل عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين عمر قبل أن يقتله. سأل عمر أبا لؤلؤة إذا كان يستطيع حقاً أن يصنع رحى تدور بالريح، فأجابه الفارسي متوعداً: لأصنعنّ لك رحى يتحدث بها الناس في المشارق والمغارب! فلما طعنه أبو لؤلؤة بعد ذلك بأيام قال عمر: ما كانت العرب لتقتلني!... يعني أن عربياً، كائناً ما كان، لا يمكنه أن يقدم على صنع رحى الشر، تلك التي دارت فقتلت عمر، أمير المؤمنين ورجل العرب والإسلام...

ومثل ذلك رحى طواحين بيروت التي نتحدث عنها... ما كان عربي ليصنعها أو يديرها لتطحن المثل التي نعليها والقيم التي نحرص عليها ولبنان الذي نحبه ونعليه. ما كان لعربي، لبنانياً كان أو غير لبناني أن يفعل ذلك، فهل يفطن العرب لهذا فيتنزهوا عن أن يكونوا آلات طيعة وعمياء في أيدي صانعي رحى طواحين الشر ومديريها؟

١٩٧٥/٥/٨

مع المرأة ...
في عامها العالمي

قالت لي: سندعوك إلى الحديث في ندوتنا. ماذا عندك للمرأة في عامها... هذا العام؟

قلت: كل شيء، إلاّ المساواة... مساواة المرأة بالرجل.

قالت في حدة: أنت رجعي... متخلف!

قلت: كثيرون قبلك قالوها... إبحثي عن مسبة غيرها.

فخفضت من صوتها وهي تقول: العفو. لا أقصد المسبة. ولكن كيف وأنت من أنت، وكذا وكذا صفاتك، لا تقول بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة؟

قلت: يا سيدتي، لأني أنا من أنا، ولأن كذا وكذا صفاتي، لا أستطيع القول بأن المرأة مساوية للرجل، أو أن الرجل مساوٍ للمرأة. لو قلتها لافتريت على الواقع، ولنفيت علمي ومعرفتي، ولكذبت على نفسي وغششت المرأة في الوقت ذاته. أنا أعتقد وأقول بأن المرأة مختلفة عن الرجل... ولكني ما قلت مطلقاً أنها دونه.

قالت: لا أفهمك.

قلت: لا تفهمينني؟ من أين أتيت إذن بهذه الشهادات العلمية التي تحملينها؟

قالت: كأنك تجد في شهاداتي العلمية مسبة عليَّ!

قلت مدارياً: العفو... وأنا كذلك لا أقصد المسبة. غير إني أجد أن معظم الحجج التي تساق ضد مطالبة المرأة بحقوقها تنبع من سوء التعبير في تلك المطالبة. يجب أن نطالب للمرأة لا بأن تكون مساوية للرجل، بل بأن تكون موازية له...

قالت: هذا لعب بالألفاظ... ما الفرق بين المساواة والموازاة؟

قلت موضحاً: الفرق كبير. اسمعي هذه الحكاية؟ منذ ثلاثين عاماً قامت في دمشق تظاهرات واصطدامات وانقسمت البلد قسمين في خلاف حول هذا الشعار... شعار مساواة الرجل والمرأة. كنا طلاباً في ذلك الوقت، نمرّ كل صباح بصاحب دكان قرب مدرسة التجهيز دأب يومياً على أن يكتب على لوح أسود في واجهة دكانه قولاً مأثوراً أو بيت شعر يسميه حكمة اليوم. في الصبيحة التالية للاصطدامات كتب صاحب الدكان على لوحه هذه الكلمة: «المرأة ليست مساوية للرجل. والدليل أن رجلاً واحداً قادر على أن يأتي بألف ولد من ألف امرأة، في حين أن امرأة واحدة لا تأتي بأكثر من ولدٍ واحد من ألف رجل...».

* * *

قالت: رجعي... متخلف. لا تحتج، فأنا لا أعنيك، بل أعني صاحب الدكان...

قلت: لا شك في كونه رجعياً. ولكن هذا لا يمنع أن يكون ما كتبه على ذلك اللوح صحيحاً. أما ما ليس بالصحيح فهو اعتقاد ذلك

الإنسان أن في ما ذكره انتقاص لقيمة المرأة، بينما هو في الحقيقة فضيلة كبيرة لها.

قالت: كيف؟

قلت: نحن نعيش في عصر الانفجار السكاني. تكاثر النسل يهدد العالم بالمجاعة وفقد المواد الأولية وبالحروب والكوارث. إذن فقدرة الرجل الواحد على أن يأتي بألف ولد عيب خطير، بينما يصبح اقتصار المرأة على إمكانية ولادة ولد واحد، ولو من ألف رجل، فضيلة سامية...

قالت وهي تبتسم: أشكرك على تعريفي بهذه الفضيلة التي ما سمعت بها قبل لبنات جنسي. غير أنك خرجت عن الموضوع، فلم تفدني فيما سألتك عنه: ما الفرق بين المساواة والموازاة، بيننا وبين الرجال؟

قلت: ما خرجت عن الموضوع. أردت أن أقول إن هناك اختلافاً واقعياً بين الرجل والمرأة. لكل منهما صفات متميزة تؤهله لأعمال خاصة. ما جرى حتى الآن في تاريخ البشرية هو سوء توزيع الأعمال على نصفيها. وأنا أطالب بإعادة توزيع الأعمال على النصفين، بصورة تتلاءم مع مؤهلات كل منهما. وسنرى حينئذٍ كيف يصبح الرجل والمرأة متوازيين في المستوى والمكانة.

قالت غير مقتنعة: كلام جميل، تحسن صنعاً لو شرحته لي بمثال.

قلت: على عيني وراسي. هل تذكرين أنك وعدتني مرة بغداء، تريني فيه مهارتك في طبخ الكبب الحلبية بأنواعها، محشية ومقلية وصاجية وغيرها؟

قالت: وهل هذا وقت تذكيري بذلك الوعد الذي لم أنجزه؟

قلت معتذراً: لا تؤاخذيني. إنه مجرد مثال... مثال على سوء توزيع الأعمال بيني وبينك. تريدين أنت أن تبرهني على أن مؤهلاتك العلمية لم تحل دون أن تكوني شاطرة في عمل المطبخ، في حين أن عليَّ أنا أن أبرهن على مقدرتي المطبخية، بالرغم كوني طبيباً معروفاً، بأن أدعوك لتتذوقي ألوان الكبب التي أصنعها بيدي، كبة حلبية وطرابلسية ومشمشية وأمثالها...

قالت ضاحكة: ماذا؟ وهل تجيد حقاً صنع هذه الألوان كلها؟

* * *

قلت: لا، ومع الأسف. ولو أجدت صنعها لما كان عليك أن تستغربي. الرجل مهيأ لعمل المطبخ أكثر من المرأة.

قالت: كأنك تؤمن بهذا حقاً...

قلت في جد: بلا شك. فكري معي: أنامل المرأة الدقيقة، وبشرتها المخملية، وعيناها الصافيتان، وإحساسها الرقيق... أيليق بهذا التكوين الناعم المطبخ بدخانه وناره وروائحه المتضاربة وأعماله اليدوية المجهدة؟ وحتى من الناحية الفنية في الطبخ، نجد الرجل أكثر مؤهلات من المرأة. البرهان؟ في كل المؤسسات الطبيخية الكبرى، الطباخون رجال: المطاعم، الفنادق الكبيرة، البواخر. لم أسمع حتى الآن بأن امرأة فازت بالشريط الأزرق، الكوردون بلو، الذي هو أرفع شهادة في فن الطبخ...

قالت في حسرة: ومع ذلك فإن النساء يقضين ثلث عمرهن في المطابخ. في رأيك، أي عمل يجب أن يسند إلى المرأة إذا تركت المطبخ للرجل؟

قلت: كل عمل يؤهلها له حسها الدقيق وذكاؤها ولا يؤذي

تكوينها الجميل. الطب مثلاً. يجب أن تكون ممارسة الطب وقفاً على النساء، ولا يسمح لأي رجل بالعمل فيه.

قالت كالمستغربة: ولكنك أنت شخصياً طبيب.

قلت: ولذا فإني أتكلم عن معرفة. تأملي: قامتي أطول من قامتك بعشرة سنتمترات، وعضلات ساعدي أقوى من عضلات ساعدك، وتحملي للمشاق أكبر منك بكثير، ومع ذلك فإني أعمل بين أربعة جدران، في الظل، وأعمل بسماعة وقلم مستخدماً معلومات تستطيع أية فتاة ناعمة أن تتلقاها على مقاعد الدرس. هذا هدر لطاقتي العضلية ولقدرتي على الاحتمال في عمل تستطيعين أنت أن تقومي فيه مثلي... وربما خيراً مني! في بلادنا ثلاثة آلاف طبيب تضيع طاقاتهم العضلية، مثلي، هدراً. أولى بهم أن يسلموا أقلامهم وسماعاتهم إلى النساء وينصرفوا إلى تكسير الحجارة... أو على الأقل إلى الوقوف أمام نيران مواقد الشي والقلي والطبخ...

قالت وهي تضحك: ولا كل هذا... هل تتصور مجتمعاً كل أطبائه نساء؟

قلت: ولماذا لا؟ في الاتحاد السوفياتي ستون بالمائة من مجموع الأطباء والجراحين هم، أو هنّ، من الجنس اللطيف... وصحتهم هناك على ما يرام. ولكنني أظل أعتبر الاتحاد السوفياتي بلداً متخلفاً ما لم تحل النساء، في عيادته ومستشفياته، محل الأربعين بالمائة الباقين من الرجال، كي ينصرف هؤلاء إلى ما يؤهلهم له تكوينهم الخلقي... إلى تشغيل الحفارات والرافعات وشق الطرق وتزفيتها... أو إلى خوض المعارك الحربية والاستشهاد فيها. عند ذلك فقط تتم

الموازاة... لا المساواة... بين الرجل والمرأة في الاتحاد السوفياتي ويصبح البلد المثالي من كل الوجوه...

قالت، وهي تتأمل فيّ بإمعان، غير مصدقة لهجتي الجادة والمتحمسة: إذا كان هذا ما ستقوله في الندوة، فإنك ستبيّض وجهي... أنا التي اقترحت اسمك لتتكلم فيها. وستكون الكبب الحلبية، من مقلية وصاجية وسفرجلية، في انتظارك بعد الندوة مباشرة، حيث ستحكم منها على شطارتي في الطبخ...

قلت: أنا حاضر... وسيسرّني أن استوثق من هذا، وأن تستوثقي أنت يا سيدتي، بدورك، من أني مع المرأة دوماً، في عامها هذا وفي كل عام.

١٩٧٥/٥/٢٧

إدفع بالتي ...

قال لي: زميلك الطبيب فلان... كدت منذ شهرين أنفجر في وجهه شتيمة وصراخاً، لو أن حالي كانت تساعدني على ذلك.

نلت: ولماذا؟ أعرفه لبقاً ومهذباً، وإنسانياً في معاملته.

قال: تأمل... جئت إليه في حالة اسعاف، وحين عرف شكواي أخذ يقهقه ويضحك بدلاً عن أن يسرع ويمد يده لينقذني من المحنة التي كنت فيها.

قلت: أي محنة؟ لم أسمع أنك تعرضت لمحنة قبل الآن...

قال: مرت بسلام فلم يعرف بها أصحابي. ماذا أقول لك؟ حكاية غريبة. كنت أعد أموال الصندوق الذي في عهدتي. ولم أدر كيف وضعت ليرة معدنية بين شفتي أثناء ذلك. فجأة عطست، وبدلاً من أن تقع الليرة من فمي إرتدت إلى الوراء فتوقفت في حلقي... في بلعومي.

قلت: غريب.

قال: كدت أختنق. حاولت أن أدفع الليرة بشرب جرعة ما بعدها فلم أوفق، فأغلقت الصندوق وركضت مسرعاً إليه. بيننا معرفة بسيطة. ما أن سمع شكواي حتى أخذ يقهقه وهو يضرب بكفيه على فخذيه...

قلت: ليس في الأمر ما يضحك. ألم يسعفك؟

قال: بلى. ولكن ليس قبل أن يزهق روحي بسخريته مني. كان يضحك ويقول: يا خائب... الذين فوقك والذين تحتك يبلعون الآلاف وعشرات الآلاف، وأحياناً الملايين، فتمر كشربة ماء... وأنت تغص بليرة واحدة؟!

ضحكت أنا وقلت: من هذه الناحية الحق معه. ومع ذلك فلو أنك جئتني أنا مكانه لما قلت لك هذا. كنت قرأت عليك أبيات شعر لشوقي في الهدهد والنملة.

قال: أبيات شعر؟

قلت: نعم. يزعم شوقي أن الهدهد جاء إلى النبي سليمان يشتكي له ويقول: يا نبي الله كن لي، عيشتي صارت مملة... متُّ من حبّة برٍّ، أصبحت في الصدرِ علّة... لا مياه النيل ترويها ولا أمواج دجلة! فتفكر النبي الحكيم بأمر الهدهد ثم قال له: ما أرى الحبة إلاّ، سرقت من بيت نمله!..

قال صاحبي: والمغزى؟

قلت: المغزى أن هذه الليرة لا بد أن تكون مثل حبة القمح التي غصّ بها ذلك الهدهد... أُخذت من غير حق، من أحد عباد الله الفقراء.

قال صاحبي في امتعاض: هكذا أنتم. تظنون أن لا همَّ لنا، نحن الموظفين، إلاّ أن نأخذ أموال الناس بغير حق وندسها في جيوبنا...

قلت ضاحكاً: أو تبلعونها. لا تأخذ على خاطرك. هذا داء العصر، ليس عندنا فحسب، بل في كل أنحاء العالم. ماذا يفعل الموظف المسكين؟ الحياة صعبة، والسلع غالية، والراتب محدود. لا بد أنك تعرف كلمة أبي ذر الغفاري المشهورة: عجبت لمن جاع كيف لم يخرج على الناس بسيفه! أنتم على الأقل لا تسلّون سيوفكم... أقلامكم تكفي.

قال: كأنك تزيّن لنا السرقات والرشاوى...

قلت: لا، ولكني أفسر الواقع المشهود. كما قلت لك هذا داء العصر، وفي كل مكان. روى لي أحد وزرائنا المفوضين أنه ذهب ليفتتح لنا مفوضية في أحد البلدان، في الشرق الأقصى، فوجد أن أزمة السكن خانقة في عاصمة ذلك البلد. اضطر إلى أن يسكن في إحدى الضواحي غرفة واحدة قسمها نصفين، نصفاً بيتاً له، ونصفاً مقراً لبعثته الدبلوماسية. وأخيراً عرف أنه لن يجد منزلاً لائقاً بعمله ومقامه إلاّ إذا دفع لوزارة الخارجية نفسها، ولمن فيها... فدفع، وسكن!

قال: أي بلد هذا الذي وصلت فيه الأمور إلى هذا الحد؟

قلت: لن أسميه، حتى لا أتهم بإساءة العلاقة مع الدول الصديقة.

قال: لا بد من أن الدفع، كما تسميه أنت، رائج في تلك الدولة على كل المستويات.

قلت: وكيف لا؟ المثال، حسنه وسيئه، يأتي من الأعلى. ألم تسمع بما قيل لعمر بن الخطاب حين جاؤوا إليه بعد فتح المدائن وغلبة

الفرس، بتاج كسرى وسلاحه وزينته الفاخرة؟ نظر عمر رضي الله عنه إلى تلك الغنائم فأعجبته وفرتها ونفاستها، فقال: إن قوماً أدّوا هذا لأمناء! فقال له من حوله: يا أمير المؤمنين، عففت فعفت الرعية، ولو رتعت لرتعوا...

* * *

تنهد محدثي وهو يقول: ذاك زمان مضى...

قلت: صحيح. ذاك زمان ومضى. أما في هذا الزمان فالدفع واقع معترف به، داخل في حساب الربح والخسارة. أطلعت منذ أشهر على جدول سرّي تعتمده شركة ألمانية كبيرة، من اللواتي تتعهد تنفيذ الأعمال الضخمة في مختلف بلاد الشرق الأوسط. يتضمن ذلك الجدول الإضافات التي على ممثليها أن يضموها إلى أرقام الالتزامات كلما دخلوا مناقصة لتنفيذ مشروع ما، وهي تتفاوت باختلاف البلاد. نسبة الإضافة تبلغ في بعض البلدان ٢٢ بالمائة، وتصل في بلدان أخرى حتى ٢٨ بالمائة. فإذا كانت تكلفة المشروع مليون دولار، فإن على ممثل الشركة أن لا يدخل المناقصة بأقل من مليون ومائتين وثمانين ألف دولار. وهذه الزيادة هي ما يمكنك أن تطلق عليه علاوة الدفع...

أطلق صاحبي صفرة من بين شفتيه قبل أن يقول: مائتان وثمانون ألفاً على المليون!.. في أي بلد هذا؟

قلت: لا تسألني. فأنا، كما قلت لك، لا أريد أن أتهم بمحاولة إساءة العلاقات مع الأصدقاء. وأزيدك أن الدفع أصبح، في بعض الأحيان، شعاراً مرفوعاً...

قال: كيف؟

قلت: فلان الذي يتولى العمل الفلاني، هل تعرفه؟

قال: فلان؟ نعم أعرفه. وبيني وبينك، سمعته ليست على ما يرام.

قلت: ولكنه، على ما أحسب، إنسان ظريف. إذا دخلت مكتبه وجدت أنه يعلق فوق رأسه، وراء الكرسي الذي يقعد عليه، لافتة مكتوب عليها بخط فارسي جميل «إدفع بالتي هي أحسن»!

قال: يا لها من جرأة... بل إنها وقاحة.

قلت: وما بها؟ أنكر هذا عليه بعض الناس، وصل الأمر إلى أن جاء إليه أحد المفتشين ليحقق معه في أمر هذه اللافتة. قال للمفتش: لكل في هذه الدنيا شعاره.. بعض الناس يزين مكتبه بلوحة كتب عليها: «اتق شرّ من أحسنت إليه»... وبعضهم يكتب فوق رأسه: «بدّك تطوّل بالك!».. أما أنا فانتقيت لي شعاراً آية كريمة... ألم يقل تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم؟ وكان المفتش رجلاً تقياً، صائماً مصلياً، فما ملك إلاّ أن يلملم أوراقه ويختم التحقيق وهو يقول: صدق الله العظيم!

قال صاحبي، الذي ما كاد يصدق هذه الحكاية: هكذا إذن؟ سأوصي منذ الآن على لافتة مثل هذه أضعها فوق رأسي، وأتحدى بها كل مفتشي العالم...

قلت: بهذا أعجبتني. يقيناً أنك لن تحتاج عندها إلى خدماتنا نحن الأطباء، في مثل المحنة التي مرت عليك. سيتسع حلقك، فلا تغص بليرة يتيمة، مثل التي غصصت بها ذات يوم...

١٩٧٥/٧/١٨

رسالة إلى صديق بارع في الأدب، ساذج في السياسة

عزيزي الأستاذ...

أشكر لك هديتك التي حملها البريد إليَّ منذ أيام، مسرحيتك الجديدة. قرأتها حال ما تلقيتها، فجنيت منها متعة وأثارت فيَّ خواطر...

المتعة التي جنيتها تعود إلى قدرتك الفنية في رسم الشخوص وتحريكهم في إطار الحوادث التي أبتدعتها أو نقلتها من واقع الحياة التي نعيش فيها. واقع مجتمعنا الحالي وواقع السياسة الدولية والعربية المعاصرة. في مسرحيتك مشاهد مضحكة وأخرى مبكية، ولكنك بموهبتك جعلتني أتساءل عن هذا الذي يضحكني أما هو مبكٍ، وعن ذاك الذي أبكاني أما هو مضحك؟ كأني عائش في عصر أبي الطيب الذي قال:

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

هذا عن المتعة، أما عن الخواطر فقد أثارها فيَّ اختيارك للموضوع الذي أدرت عليه المسرحية، والسخرية المرة، المضحكة المبكية أيضاً،

التي تناولت بها حاكماً من حكّام زماننا، في بلد غير بلدك... وهو، أعني ذلك الحاكم، في خصام مع حكام بلدك.

لقد مرّغت في مسرحيتك هذا الحاكم في الوحل، وأضحكت عليه العالمين. نجحت في هذا. نجحت أدبياً، أما سياسياً فما أظنك إلاّ قد وقعت في فخ قديم تعوّد الحكام أن ينصبوه للأدباء، كما تعوّد الأدباء بسذاجتهم وتصديقهم للكلمة المكتوبة والمقولة أن يقعوا فيه... فخ أن يحمل الأدباء سلاحهم، وهو القلم، فيوجهونه بمرارة وقوة إلى أناس يظنونهم أعداء لشعوبهم، بينما هم في الحقيقة أعداء موقتين، أو موسميين، أو أعداء مرحليين حسب التسمية العصرية، لحكام شعوبهم.

لا تظنني بهذا أدافع عن الحاكم الذي هاجمته بمسرحيتك يا عزيزي الأستاذ. فأنت تعلم أنني مولع بالأسفار، وقد قادتني أسفاري إلى بلد ذلك الحاكم فرأيت من آثاره وسمعت من أخباره ما يصلح لأن يكون موضوعاً لعشرات المسرحيات الفوديفيلية التي تثير الضحك. وما دمت أنا الغريب الزائر قد تنبهت إلى ما هو فاضح ومعوج في سيرة ذلك الحاكم فلا بد أنه فقأ أعين مواطنيه بفاضحه المعوج، ولا شك في أن أدباء كباراً مثلك بين أولئك المواطنين كتبوا مسرحيات وقصصاً انتقادية ومضحكة عنه. إنهم إذا فعلوا ذاك يكونون أدوا واجبهم بأمانة وشجاعة. أقول بشجاعة لأنك تعلم بأن انتقاد هذا الحاكم واضرابه شديد الخطر، لمثله شيّدت السجون والمعتقلات ووجدت المنافي. أما أنت يا عزيزي، بتصديك لذلك الحاكم، وبوصفك لتفاهاته التي أوصلتها إلى الخيانة والعمالة، فماذا فعلت؟ إنك كنت كمن يشتم أناساً في القمر، لا يخافهم، ولا يؤثر فيهم. أو أنك في هذا مثل ذلك

الإيطالي الذي كان يحاور صديقاً له فرنسياً في أمر الحرية في بلديهما أيام موسوليني... قال الفرنسي نحن في فرنسا نتمتع بكل حريتنا في التصرف والكلام... أستطيع أنا مثلاً أن أقف في عاصمة بلادي، باريس، في منتصف الشارع منتقداً مسيو لبرون، رئيس جمهوريتنا، بل وحتى أن أشتمه، ويسمعني الشرطي فلا يعترض عليَّ، بل ربما صفق لي. فأجابه الإيطالي: وأنا أستطيع أن أفعل مثلما تفعل أنت في عاصمة بلادي. قال الفرنسي متحدياً: أنت تستطيع أن تشتم موسوليني في منتصف الشارع في روما؟ فرد الإيطالي قائلاً: قلت إني أستطيع أن أفعل مثلك في روما... أعني أن أقف فيها في منتصف الشارع، فأشتم بملء فمي مسيو لبرون، رئيس جمهوريتكم!

ثق يا عزيزي من أني لا أريد بهذا أن أتهمك في شجاعتك، ولا أن أحرضك على حكام بلدك. ولكني في الوقت نفسه لا أريدك أن تنخدع بما يقوله أولئك الحكام فتكون في يدهم أداة طيعة يوجهونها إلى من يكرهونه أو يحملون عليه. صديقنا أبو حسن، يرحمه الله، كان إذا سألناه عن اختلافات الساسة الحاكمين فيما بينهم وتهجم بعضهم على بعض، يقول: فخار يكسّر بعضو... يصطفلوا! فإذا لم تشأ أنت أن تكون مثل ذلك الصديق المرحوم في لا مبالاته وفي تباعده عن الاهتمام بالسياسة العامة، فلا أقل من أن تمتنع عن تسخير موهبتك وقلمك لمهازل تلك السياسة. إنك إن جريت في تيار تلك المهازل لن تلبث حتى تجد نفسك وحيداً في العراء، وذلك حين يصطلح حكّام بلدك وهذا الحاكم الذي هاجمته في مسرحيتك. سيصطلحون معه بلا شك، في ذات يوم قريب وبعيد، وحينذاك تنقلب كل مخازيه التي أضحكت منها

الناس مناقب وفضائل، وتمسي أنت المتهجم على مناضل كبير يقود شعباً صديقاً في الطريق الأمثل... وربما لوحقت مباحثياً، أو أقيمت عليك الدعوى في القضاء بتهمة إساءة العلاقات مع حاكم دولة صديقة رفيع المقام. السياسة، كما ألفت العامة أن تقول دوماً، لا دين لها ولا مبدأ...

نعم، إن السياسة لا دين لها ولا مبدأ... وكذلك السياسيون، صدقني في هذا. إنهم قادرون بين يوم وآخر على التحول والانتقال من مواقعهم التي جروك إليها إلى المواقع المناقضة للأولى مناقضة قطرية. عذرهم في هذا واسع، فهم يقولون لك إن المصلحة العليا اقتضت ذلك! وعليك أنت أن تقتنع بهذه المصلحة العليا بالحسنى، وإلاّ تكفلت أساليب أخرى بإقناعك. وسواء أقتنعت حقاً أو تظاهرت بالاقتناع، فسرت وراء ساسة بلدك في طرقهم الجديدة، فإنك ككاتب لا تستطيع أن تمحو الأثر الأدبي الذي خطته يدك وهاجمت فيه حاكم البلد الآخر، ذلك الذي كان بالأمس عدواً مسفهاً فأصبح اليوم صديقاً محبباً. إنتاجك الفني صار شاهداً عليك، وبقدر ما تكون براعتك فيه تكون إدانتك. فإذا تظلمت وقلت إنك لم تفعل أكثر مما فعل أولئك الساسة الذين كم خطبوا وتهجموا وتصرفوا تصرفات معادية لذلك الحاكم، فلماذا تؤاخذ أنت ويسكت عنهم؟ إذا قلت هذا أجبتك بأن أقوالهم وأفعالهم وإن بدت في وقتها عاصفة مثيرة ليست غير هباء خفيف الوزن، سرعان ما يزول فلا يذكره أحد. أما أنت فقد انتجت بمسرحيتك عملاً فنياً، وليس إمحاء العمل الفني بالأمر السهل. إنه يثبت في أذهان الناس وسجلات التاريخ سنين كثيرة في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى يثبت أجيالاً وقروناً.

نعم يا صاحبي، إن الفرق بين ديمومة أعمالكم، أنتم الكتّاب والفنانين، وهشاشة أعمال الساسة والحكّام هو الذي يجعلكم هدفاً للمؤاخذة والملاحقة أكثر منهم. إنه فرق قد تتظلمون أنتم منه، ولكنه في الواقع فرق لصالحكم، فلماذا تتهاونون به وتحولونه لصالحهم؟ أنتم الذين أعطيتم، في كل العصور، الحكّام وأعمالهم قيمة تاريخية وديمومة نسبية. كم ألف عبد مثل كافور حكم مصر وبلاد الشام خلال القرون المتتابعة فما أثبتته ذاكرة الناس ولا حفظ التاريخ اسمه؟ أما كافور الأخشيدي فقد خلّد وحفرت سيرته في الأذهان لأنه أرضى المتنبي فصاغ فيه الأماديح، وأغضبه فصب عليه الأهاجي. ومع ذلك فإنكم أيها المبدعون، من شعراء وكتّاب، ترضون في كثير من الأحيان بأن تتحولوا إلى أبواق مهمتها أن تضخم أقوال الحكّام المتهافتة وآراءهم السقيمة... مثال ما ضخمت أنت يا صاحبي في مسرحيتك، الرائعة أدبياً، نظرة حكّام بلدك التافهة سياسياً...

أراني قد اشتد بي الحماس فتجاوزت فيما كتبته أعلاه حد إبداء الرأي إلى اللوم والتأنيب. فاعذرني يا عزيزي وثق بأني ما قلت إلاّ ضناً بإبداعك الأدبي أن يهدر في غير ما هو أهل له. فتقبل على كل حال إعجابي الصادق بهذا الإبداع، مع أطيب التحيات من صديقك المخلص:

ع.ع.

حاشية:

أرجو أن تظل هذه الرسالة بيني وبينك، لا يطلع عليها أحد. أنا في العادة قليل التعرض للأمور التي تعرضت لها فيما كتبته إليك، لأني ما زلت على مبدأ صديقنا المرحوم أبي حسن، مبدأ: يصطفلوا.. فخار يكسّر بعضو! هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإني مزمع على زيارة بلدكم في الأسابيع القليلة القادمة، ولست أحب أن أحاسب عندكم هناك على هذه الآراء التي قلتها لك بحق السادة الكرام، أولئك الحكّام.

ع.ع.

١٩٧٥/٩/١٠

لعنة العواصم

في مقهى الكمال الصيفي، في دمشق، تأخر عبد المعين في الحضور إلى اجتماع الشلة. عاتبه أصحابه على ذلك فاعتذر بقوله:

ـ ماذا أصنع؟ لم أجد لسيارتي موقفاً في الشوارع القريبة. اضطررت إلى إيقافها في آخر حارة الشعلان، وجئت إليكم سيراً على القدمين.

انساق الجالسون بالعذر الذي قدمه الأستاذ عبد المعين إلى الحديث عن الازدحام الذي تشهده العاصمة السورية في هذه الأيام، وفي كل الأيام، وإلى التساؤل عما سيحدث لهذه المدينة في السنين القادمة من اكتظاظ في السكان وعسرة في المواصلات. قال مروان:

ـ كانوا يطلقون على بيروت اسم كراج الشرق لكثرة سياراتها، ولصعوبة التنقل فيها. اليوم أصبحت كل مدينة في الشرق كراجاً. بيروت كما تعرفونها، ودمشق كما ترونها، ومثلها حلب. ولو

رأيتم شوارع القاهرة حين تنطلق آلاف سيارات التاكسي في شوارعها دفعة واحدة في ساعات معينة من النهار...

قال واحد من الأصحاب: بلادنا مريضة بالازدحام، لأنها لم تتهيأ فيما مضى لاستقبال العدد المتزايد من السيارات عاماً بعد عام، ولأن رؤيتنا المستقبلية ضعيفة. المخططون عندنا عاجزون عن مجاراة التطور الواقعي لأساليب المواصلات.

فصدّق عبد المعين، ذو الأسفار الكثيرة، على ذلك بقوله: هذا صحيح. في طوكيو من السيارات أضعاف ما في كل بلادنا مجتمعة، ومع ذلك فأنت لا تحس فيها بالازدحام التي تحس به في أصغر مدينة من مدننا. وأنا ما زلت أذكر، في اليابان، كيف كانت تنطلق بنا سيارات التاكسي في قلب مدينة أوزاكا على طرقها المعلّقة، الهايوواي، بسرعة البرق، لا تقف عند تقاطع شارعين ولا تخشى ملاقاة سيارة قادمة. بعض تلك الطرق المتراكبة كانت تحاذي نوافذ الطابق الثامن أو التاسع من عمارات المدينة... مدن تعيش في آخر القرن العشرين بعقلية آخر القرن، وأساليبه، وتكنيكه.

وهنا قال أبو عمار، المتعصب لدمشقيته تعصباً جارفاً: مهما قلتم فإن الشكوى من الازدحام عامة في العالم كله، وفي العواصم أكثر من غيرها. دمشق عاصمة... لا تنسوا ذلك!

فقال مصباح: الواقع أن الازدحام هو لعنة العواصم في هذا الزمان. ليس ازدحام السيارات فقط، بل إلى جانبه تكاثف العمران وتجمع السكان. في بلاد الدنيا يحاولون تنفير الناس من التهافت على سكنى العواصم بطرق مختلفة. بل إن العواصم في بعض الدول المتقدمة ليست إلاّ مدناً ثانوية مثل واشنطن في الولايات المتحدة.

وفي سويسرا تعرفون أن برن مدينة صغيرة بالقياس إلى زوريخ وجنيف ولوزان.

قال أبو حسن: ما قولكم في أن تجنّب هذه المدينة الجميلة، دمشق، لعنة العواصم بأن نقترح نقل العاصمة إلى مكان آخر... إلى حمص مثلاً؟

فارتفعت الاحتجاجات على هذا الكلام، وكان أشدها من أبي عمار الذي اتهم صديقه أبا حسن، وهو الحمصي المنشأ، بأنه يحاول جرّ اللحاف إلى ناحيته. بينما قال مصباح:

ـ أنا مع أبي حسن في نقل العاصمة بعيداً عن دمشق، ولكن لا إلى حمص... بل إلى تدمر.

صاح الحاضرون: إلى تدمر؟ في الصحراء؟ أي اقتراح هذا؟

فقال عبد المعين، مذكراً مرة أخرى برحلاته الكثيرة: الحق مع أخينا مصباح. في البرازيل كانت العاصمة مدينة ريو دو جانيرو، أجمل بلاد الدنيا مناظر طبيعية. فلما تقاطر الناس إليها من كل جانب، فضاقت بمن فيها وامتلأت بأحياء التنك البائسة التي يسمونها هناك فلافيلاّ، قرر الدكتور كوبتشيك، رئيس جمهورية البرازيل في الخمسينات، أن ينقل العاصمة إلى مدينة جديدة، يبنيها في قلب القارة. وهكذا أقيمت مدينة برازيليا، عاصمة تلك البلاد الجديدة. زرتها منذ سنين فرأيتها بلداً رائعاً. فلماذا لا ننقل نحن عاصمة بلادنا إلى قلب صحرائها... إلى تدمر؟

* * *

ليس أعضاء الشلة التي راحت تناقش ظاهرة ازدحام العواصم وتقترح لها الحلول بمسؤولين كبار ولا بأصحاب حول وطول في

الدولة. هم مجرد مواطنين، ذوي قراءات أو أسفار وتجارب تعودوا أن يقضوا وقت المقهى في أحاديث تتراوح بين الهزل والجد. كان نقل عاصمة الجمهورية العربية السورية من دمشق إلى تدمر موضوع اليوم الذي فتق القرائح في تعداد إمكانياته ومحاذيره وفوائده. قال سعيد:

ـ أنا موافق. تريدون الحقيقة؟ أصبحنا نحن أهل هذه المدينة، المولودين نحن وآباؤنا فيها، غرباء في بلدنا. ضعنا بين الوافدين إلينا من كل فج عميق في طلب الوظائف، وملاحقة المصالح، والتمتع بهوائنا ومائنا. يا أبا عمار، ليضعوا عاصمتهم أينما أحبوا وليتركوا لنا شامنا نأخذ فيها نفساً نقياً...

قال عبد المعين: هذه وجهة نظر أنانية... انعزالية. نحن نريد الانتقال بالعاصمة لأسباب أكثر غيرية من أسباب الأخ سعيد. حين نقل الدكتور كوبتشيك مركز بلاده كذا من آلاف الكيلومترات بعيداً عن الساحل المعمور ومدنه الغنية، أراد أن يحيي قلب القارة البرازيلية وأن يهيىء السبيل إلى نبش ثرواتها الدفينة. وكذلك تعمر صحراؤنا المهجورة إذا انتقلت إليها العاصمة... تشق فيها الطرق... ينقبّ فيها عن المياه... تزرع فيها الأشجار...

أضاف هنا مصباح متحمساً: وتعود تدمر بهذا إلى ما كانت عليه في عهد الملكة زنوبيا، ملتقى طرق الشرق والغرب ودرة شرقي المتوسط من آسيا. لا تظنوا اقتراحي هذا هوائياً. لو طبق لأعاد التاريخ نفسه، وعلى أحسن وجه.

قال عبد الستار، وهو مقاول كثير التنقل بين المناطق الشمالية في

سورية، حيث تقوم تعهداته، وبين دمشق حيث تستقر الوزارات والإدارات العامة:

ـ عظيم... عظيم... هذا يعني أني سأوفر خمسمائة كيلومتر في كل مشوار إلى دمشق لمراجعة سادتنا الوزراء... ألف كيلومتر في الأسبوع... ثماني صفائح بنزين، عدا استهلاك السيارة! وأجرة نوم أربع ليال في الفندق! في تدمر لي أصدقاء أبيت عندهم...

وكان الأستاذ شريف في هذه الأثناء مشغولاً بتركيز جمرة جديدة على رأس أركيلته، فقال: هل هذا يعني أن الوزارات سيكون مقرها هناك... في تدمر؟

فأجابه مصباح قائلاً: بلا شك. وإلاّ فماذا يعني أن تكون مدينة ما عاصمة إذا لم تكن مقراً لوزارات الدولة ومصالحها الكبرى؟

فأضاف الأستاذ شريف مستوثقاً: والمؤسسات الحكومية الرئيسية، ومراكز المنظمات، ومجلس الشعب... هل تنتقل كلها إلى هناك؟

قال مصباح، وأمّن على كلامه الجميع: نعم. كلها.

فاستقام هنا شريف من انحناءته على الأركيلة، وعبّ منها نفساً عميقاً قبل أن يقول: إذن فليكونوا سعيدين وبعيدين، باسم أهل الشام ومحبي أجوائها وبيئتها، لا المتعلقين بالمكاسب والمراتب وجامعي الثروات والأمجاد، أقول لكم خلّصوا دمشقنا من لعنة العواصم... إرحلوا عنا إلى تدمر... يرحمنا الله ويرحمكم!

* * *

وهكذا تحول اجتماع الشلة من استنكار لنقل العاصمة إلى موافقة شبه إجماعية عليه. أضيفت إلى محسنات اقتراح النقل فوائد

جديدة، مثل تخفيف أزمة السكن ، وتخليص المتمدنين أبناء البلد العريق من طغيان أبناء المناطق المتخلفة عليهم، والبعد بالعاصمة عن خطوط النار ومرمى قنابل العدو، وما شابه هذه من الميزات. الوحيد الذي ظل على سكوته، يسمع ولا يتكلم، هو أبو عمار. وهذا ما دعا عبد الستار، الذي هبط العاصمة من قريته فقيراً فرفعته تعهداته إلى أعلى سلم الثراء، إلى أن يقول:

ـ أخونا أبو عمار لا يهون عليه أن يضع مدينته في غير المركز الأول بين مدن الجمهورية. أليس هذا ما تفكر فيه في هذه اللحظة يا أبا عمار؟

فتطلع أبو عمار بعبد الستار قليلاً قبل أن يجيبه قائلاً: الصحيح إني كنت أفكر بأن الازدحام ليس اللعنة الوحيدة التي لحقت بعاصمتنا في هذا الزمان. هناك لعنات كثيرة لصقت بها، نحسن صنعاً بتخليصها منها. كان صعباً عليَّ أن تتنازل دمشق عن مركز العاصمة لأية بلدة أخرى. غير أني وافقت على اقتراح أخي مصباح حيث تذكرت حكاية لبشار بن برد وردت في الأغاني...

قال عبد الستار: حكاية؟ وما هي هذه الحكاية؟

فابتسم أبو عمّار وهو لا يزال يحدّ النظر إلى مخاطبه، وقال: في الأغاني أن رجلاً وقف على بشار بن برد، وقد ولد أعمى فاقد البصر، فسأله قائلاً: يا أبا معاذ، إن الله لم يسلب أحداً نعمة إلاّ عوّضه الله عنها بشيء. وقد سلبك نعمة البصر، فماذا عوضك عنها؟ قال بشار: عوّضني الطويل العريض... فسأله الرجل: وما هذا؟ قال: أن لا أراك ولا أمثالك من الثقلاء!

وهنا ضجّ أفراد الشلة بالضحك، وكان أكثرهم ضحكاً عبد الستار

نفسه، قبل أن ينصرفوا كل في سبيله تواجههم في كل زاوية من زوايا المدينة لعنة العواصم، المتمثلة باكتظاظ الشوارع بالسيارات والناس، وبتلوث الهواء بالغبار والدخان، وبامتلاء الجو بالصراخ والصفير والهدير.

١٩٧٥/٩/١٦

القسم الثاني

١٩٨٣ ـ ١٩٨٦

باستور ـ وايزمن

إنه حوار حول حرية الكلام جرى بين رجلين، فرنسي وألماني، أيام كان ألبير لبرون رئيساً للجمهورية الفرنسية وكان أدولف هتلر زعيماً للرايخ الألماني. قال الفرنسي:

ـ الحرية الصحيحة هي أن تستطيع التعبير عن رأيك أينما شئت وكيفما شئت. أي حرية لكم يا معشر الألمان في ظل دكتاتورية الحزب النازي؟ أنا قادر على أن أقف في وسط باريس، في جادة الشانزيليزيه، وأرفع صوتي بانتقاد مسيو لبرون، رئيس جمهوريتنا، والسخرية به بل حتى بشتمه...

فرد الألماني قائلاً: وأي شيء في هذا؟ أنا قادر على أن أفعل مثله في الكورفر ستندام دون خوف أو وجل.

فسأله الفرنسي: هل تقدر حقاً على أن تنتقد هتلر في جادة الكورفر ستندام في وسط برلين؟

أجابه الألماني: لم أقل هذا. أستطيع أن أفعل مثلك، أعني أن أقف

في الكورفر ستندام وأشتم مسيو لبرون، مثلما تشتمه أنت!

يخطر هذا الحوار ببالي عندما أقرأ ما تمتلىء به الصحف العربية وما يكتبه كتابنا في انتقاد أعدائنا وتبيان استهانتهم بالحقوق المشروعة وبالعوامل الإنسانية ومهاجمة تصرفاتهم الإجرامية، بينما تنعقل الألسنة وتجف الأقلام في الحديث عما يجري بين ظهرانينا من اعوجاج يبدأ بالتهاون المشين ويستمر إلى التخريب إلى أن ينتهي بالإجرام والخيانة. في ذلك تناقض أجهد شخصياً لأتحاشى الوقوع فيه. فإذا أتاحت لي زياراتي للبلاد البعيدة أو قراءاتي في المصادر المختلفة إطلاعاً على ألوان من أفاعيل أعدائنا وثارت ثائرة التعبير في نفسي فهممت بالحديث عن تلك الألوان أو بالكتابة فيها انبرى من أعماقي معترض يقول: أولئك أعداء، وأعداء ألدّاء... أفترجو منهم رحمة بقومك أو تهاوناً في مصلحتهم الذاتية التي هي في تحطيم قيم أمتك ومقوماتها؟ إذا كان فيك خير وقدرة على الانتقاد فانتقد ما هو معوج من سيرة الناس من أهلك، هؤلاء الذين يساقون طائعين إلى الهلاك، والذين يصفقون لمهلكيهم لقاء لقمة تؤكل أو بهرجة ترف ينعمون بها.

وتلجمني أقوال هذا المعترض المنبعث من أعماق وجداني فأسكت، وأصرف لساني عن شتم الأعداء أو عن التحدث عما فيه دمارنا من تصرفاتهم حين أجدني عاجزاً عن الإشارة ولو بالإيماء إلى أخطاء الأقربين أو جناياتهم.

* * *

ومع ذلك فأنا أعترف بأني غير قادر دوماً على هذا السكوت الذي أجهد في أخذ نفسي به. ثمة أمور تلفت نظري من تصرفات

أعدائنا الألداء، ومن تصرفاتنا نحن، أجدني مسوقاً إلى التحدث بها على الرغم مني. لا أفعل ذلك طمعاً بإثارة اهتمام مواطنينا العاديين أو بتحريك همة مسؤولينا ذوي المراكز الكبيرة، ولكن لأبرىء ذمة نفسي أمام نفسي في الإشارة إلى أشياء قد لا يكون فطن لها إلاّ قلة من الناس سواي.

هذه الأمور التي أعنيها ليست قضايا واضحة الخطورة مثل تمادي عدونا في انتهاكاته للقانون الدولي والاعتبارات الإنسانية، أو مثل متابعته تنفيذ مخططاته الإجرامية بخطى ثابتة لا تراجع فيها، أو مثل هواننا نحن على ذلك العدو حين لا نجابهه إلاّ بأقوال تكذبها الأفعال. هذه وتلك أمور تذيعها الإذاعات يومياً ويعرفها قراء صحف العالم أجمع. إني في الحقيقة أقصد لمحات خاطفة من الأمور قد تمر على مشاهدها مرور البرق فلا يفطن إلى ما وراءها من مكائد ومناورات أو ما ينصب لنا تحتها من شباك وأشراك.

منذ أسابيع قليلة وقعت عيني في المجلات الفرنسية على صور احتفال أقيم في أوبرا باريس عرضت فيه باليه روميو وجولييت عرضاً خاصاً للنخبة من نجوم المجتمع العالمي وأثريائه، وخصص ريعه لصالح أبحاث مكافحة السرطان. ترأس الاحتفال الممثل الأميركي جيري لويس الذي جاء من هوليوود خصيصاً لهذه الغاية. وكان احتفالاً ناجحاً من كل الوجوه، وبلغت حصيلته المادية مليون فرنك فرنسي أضيفت لميزانية هذا العمل الإنساني الجليل، مكافحة السرطان.

إلى هنا والخبر لا يعدو أن يكون إشادة ببادرة محمودة يقوم بها أناس بارزون لخدمة غاية إنسانية. ولكننا حين نقرأ اسم المؤسسة التي دعت إلى هذا الاحتفال، حين نستعرض أسماء المشتركين، فيه

ونتعرف على شخصياتهم، نعرف ما الذي اشترى القيمون عليه بالمليون فرنك فرنسي الذي جادوا به على أبحاث مكافحة السرطان. المؤسسة الداعية هي مؤسسة باستور ـ وايزمن. وهذا الجمع بين اسمي رجلين، هما لويس باستور وحاييم وايزمن، ذائعي الصيت وبالغي الشهرة كل في جوّه وفي إنجازاته التاريخية، أحدهما لخير الإنسانية والثاني لشرها، هذا الجمع وحده يكفي لتنبيه القارىء العربي بصورة خاصة إلى خلفيات هذه الحفلة ذات المظهر الإنساني التي بلغت حصيلتها مليون فرنك فرنسي...

* * *

باستور ـ وايزمن. لويس باستور وحاييم وايزمن! أي صلة تربط بين هاتين الشخصيتين في الاتجاه العلمي والأخلاقي، أو في الانتماء القومي، أو في تاريخ العيش، حتى يجتمع أسماهما في اسم واحد لهذه المؤسسة البالغة النفوذ التي يرأس مجلس إدارتها أحد حاملي جائزة نوبل والتي تجنّد لنشاطاتها أصحاب الأسماء الكبيرة في كل مجال؟

لويس باستور هو أحد كبار المحسنين إلى البشرية باكتشافاته وبإنجازاته العلمية. غيّرت أبحاثه في علم الجراثيم وأعماله في تهيئة اللقاحات خريطة الأمراض التي تصيب الإنسان، وحملت الأمل والشفاء إلى ملايين النفوس والأجساد في كل الأصقاع. كان رجلاً بسيطاً متواضعاً متجرداً من الغايات المادية ومن التعصب اللاإنساني. شعاره كان: «من أنت؟ لا يهمني... لا يهمني مَنْ قومك وما هي عقيدتك... أنت مريض وكفى. تعال إليّ لأوفر لك البرء والشفاء». أما حاييم وايزمن فهو الكيميائي الصهيوني الذي كانت وسيلته إلى التقرب من ساسة بريطانيا العظمى أثناء الحرب

العالمية الأولى هي اكتشافه طريقة جديدة تسهل صنع متفجرات تزرع الموت والدمار في كل مكان. قضى هذا الصهيوني عمره ساعياً لاستلاب أرض ليست له مشرداً شعبها الآمن المستقر فيها، وخطط لخلفائه وتلامذته من بعده سياسة المذابح لمن بقي من هذا الشعب في أرضه أو نزح إلى جوارها، بدءاً من دير ياسين وكفر قاسم وانتهاء بصبرا وشاتيلا، ومروراً بالمجازر التي ذهب ضحيتها الفلسطينيون والعرب الآخرون في حروب إسرائيل المتعاقبة.

ليس ثمة تقارب أو تشابه بين هذين الرجلين، لويس باستور وحاييم وايزمن، بل هو التعارض والتضاد الكامل. ومع ذلك فإن الصهيونية العالمية عملت على أن تجمع بين اسميهما فتسمي بهما مؤسسة ذات مظهر إنساني لتغطي بحسنات باستور ومنجزاته شرور وايزمن وجرائم خلفائه. جندت لهذه الغاية، كما قلت، أصحاب الأسماء الكبيرة التي تستحق أن نقف عندها ونستعرضها من خلال حضورها باليه روميو وجولييت، من ألحان الموسيقار الروسي سيرغي سيرغييفيتش بروكوفييف، في صالة أوبرا باريس.

* * *

جيري لويس، الذي ما أحسبه إلاّ يهودياً أميركياً، تلقى الدعوة إلى ترؤس الاحتفال من رئيس مجلس مؤسسة باستور ـ وايزمن، وهو البروفيسور أندره لووف، اليهودي أيضاً، حامل جائزة نوبل للطب. أما شهادة العضوية الفخرية للمؤسسة فقد تسلمها جيري لويس من السيدة سيمون فايل، الوزيرة الفرنسية السابقة ورئيسة البرلمان الأوروبي في واحدة من دوراته، اليهودية الناجية من أحد معتقلات النازي في الحرب العالمية الأولى. هذه السيدة التي تبرز صورها في كل مناسبة والتي تكثر حول اسمها الدراسات والاستفتاءات تركز

عليها الصهيونية العالمية وتهيؤها لتخوض الانتخابات الرئاسية المقبلة في سبيل أن تصبح أول رئيسة امرأة للجمهورية الفرنسية! ولست أدري إذا كان بروكوفييف، مؤلف روميو وجولييت هذه الباليه التي دعت إلى حضورها مؤسسة باستور ـ وايزمن، يهودياً أيضاً... إلاّ أني أعرف أن إحدى أشهر مقطوعاته الموسيقية تحمل هذا العنوان: افتتاحية عن قضايا يهودية!

واضح أن هذا التركيز على المزاوجة بين اسم أحد كبار المحسنين للإنسانية واسم صهيوني مجرم بحق الإنسانية، وهذا الحشد للأسماء العالمية اللامعة، حول هذه المزاوجة، يستحقان أكثر من مليون فرنك فرنسي تدفعها الصهيونية العالمية أو تجبيها من أثرياء ممالئين أو مخدوعين أو متحمسين، لكي تبرر تسمية مؤسستها باسم باستور ـ وايزمن، ساعية بذلك إلى التمويه على جنايات الأخير بالهالة العقبرية للأول.

يقول آبا إيبان، وزير خارجية إسرائيل الأسبق، في كتابه «شعبي» إن لويد جورج رئيس وزراء إنكلترا أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، عندما ودع حاييم وايزمن عقب انتهاء مؤتمر سان ريمو الذي ثبّت فيه وقوع فلسطين في قبضة بريطانيا وبالتالي أصبح لوعد بلفور مفعوله وقوته، قال له: «الآن أصبحت لكم دولتكم، وعليكم أنتم أن تكسبوا الرهان».

ونحن نعرف جميعاً كيف كسبت الصهيونية بقيادة حاييم وايزمن الجولات الأولى من هذا الرهان وكيف يستمر خلفاء وايزمن في كسب باقي الجولات. يكسبونها في الحرب بالنار والدمار، وفي السلم بهذه النشاطات الماكرة التي توهم العالم بأن صانعي النار والدمار ليسوا إلاّ ملائكة بررة، وأن حاييم وايزمن صنو للويس

باستور في العمل لخير الإنسانية. يستهين بهذه النشاطات بعضنا ويبتسم بعضنا ساخرين من اهتمامنا بها، وتتمزق لها صدور بعض آخرين منا. إنها من تلك التي سبق فيها القول:

أمور يضحك السفهاء منها
ويبكي من مغبتها الحليم

* * *

وبعد، فإن حكاية مؤسسة باستور ـ وايزمن واحدة من أساليب أعدائنا في تغطية الجرائم التي قام عليها كيانهم وفي صبغ مؤسسي هذا الكيان بصبغة المحسنين إلى الإنسانية. إنها حلقة من سلسلة طويلة من الأعمال، نغفل نحن عنها وهم دائبون في سلوك سبلها إلى الغاية التي خططوا لها منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ في بال. وهل أذكر من هذا القبيل جهودهم الدائبة لمحو مقطع من الإنجيل يؤمن به كل مسيحيي الشرق والغرب؟ إنه مقطع المسؤولية الأبدية عن دم المسيح، وقد أقرّ بها اليهود على أنفسهم فاستحقوا بذلك لعنة المسيحيين لهم أبد الدهر... وذلك حين قالوا، على ما ورد في إنجيل متّى، لبيلاطس البنطي وهم يطالبونه بصلب السيد المسيح: دمه علينا وعلى أولادنا!

ولكن هذا حديث يطول. وأرى نفسي تلومني وتدعوني إلى السكوت قائلة: «ما أهون أن تكون مثل ذلك الألماني القادر على أن يشتم البير لبرون في جادة الكورفر ستندام في برلين، بينما هو مطالب بأن ينتقد تصرفات هتلر بحق وطنه وشعبه والإنسانية!». وأجد لنفسي الحق في ما تقوله، فأطيعها. وأسكت.

١٩٨٣/٦/٢٤

حكايتي والمؤتمر

في مطار أثينا، بينما كنت في انتظار النداء للطائرة التي سأستقلها إلى بيروت، اقترب مني شاب كان واقفاً في أحد صفوف المسافرين وخاطبني بالفرنسية قائلاً: صباح الخير يا سيدي... أنا واحد من أعضاء بعثة جريدة «الفيغارو» إلى ندوتكم... يا لها من مؤتمر!

قلت: ما الذي استغربته من هذا المؤتمر، أعني من ندوتنا؟

قال: بدأتم بالثقافة وانتهيتم إلى السياسة. من كان يصدق أن بيير موروا، رئيس وزراء بلادنا، يصوّت في بيان الندوة الختامي موافقاً على التنديد بإسرائيل وعلى إقامة دولة فلسطينية؟! تلك أمور ضد الخط السياسي للحكومة التي يرأسها. لما سألناه، نحن الصحفيين، عن تفسير ذلك بدا عليه الحرج وقال إنه وافق على ما وافق عليه بصورة شخصية...

قلت: أنا لم أحضر الجلسة الختامية.

قال: أعرف جيداً. فلعل هذا يرضيك بعد الضجة التي أثرتها أنت في الندوة. إلى اللقاء يا سيدي.

ودعني الشاب بهذه الكلمة وانطلق معجلاً إلى إحدى البوابات المنفتحة على المدارج، مستجيباً إلى نداء كانت المكبرات تذيعه في قاعة الانتظار المزدحمة.

حدث هذا بعد ظهر يوم الرابع والعشرين من شهر مايو/ أيار الفائت. كنت، كما قلت، أتهيأ للعودة عن طريق بيروت التي لم تكن قد تعرضت لمحنتها الكبيرة الأخيرة، وذلك بعد أن حضرت في اليونان الندوة الثقافية العالمية التي اتخذت شعاراً لها «البحر الأبيض المتوسط دائماً واليوم». هل حضرت أنا تلك الندوة؟ الصحيح إني حضرت جزءاً منها فقط. جزءاً كفى وحده لأن يجعلني أثير الضجة التي أشار إليها مراسل جريدة «الفيغارو» قبل أن يودعني إلى طيارته.

ولقد أثرت تلك الضجة على الرغم مني. فحين قبلت حضور هذه الندوة، وقد أنبأتني برقية الدعوة إليها أنها ستدور حول العلاقات الثقافية بين شعوب البحر الأبيض المتوسط، توقعت أن أدخل في نقاش وجدل في أمور هامة لن تقتصر على الثقافة بل ستمتد إلى التاريخ القديم وإلى السياسة المعاصرة. إلاّ أني ما توقعت أن يركّز عليّ شخصياً بين كل حضور الندوة في محاولة لإدراك غايات بعيدة عن مشاغل مؤتمرنا المعلنة.

ولا بد من القول إن مؤتمرنا هذا، على كونه أقيم في أرض اليونان، فقد جاءت الدعوة إليه بآن واحد من وزير الثقافة الفرنسي، جاك لانغ، ومن وزيرة الثقافة اليونانية ميلينا ميركوري. دعوة صدرت من وزيرين مسؤولين، إلاّ أنها وجهت بصورة شخصية إلى مفكرين وكتاب وفنانين لهم شهرتهم العالمية، ينتمون إلى مختلف بلدان البحر الأبيض المتوسط دون أن يكون لهم ارتباط رسمي بحكومات

بلدانهم. بل إن بعض المدعوين كانوا على خلاف واضح مع حكوماتهم، مثل المخرج السينمائي التركي إيلماز كوناي الفائز بالمدالية الذهبية في مهرجان «كان» لهذا العام على فيلمه «الطريق»، والذي تلقت اليونان أثناء انعقاد الندوة طلباً من الحكومة التركية لتسليمه إليها بصفته محكوماً بالسجن المؤبد في بلاده لسلوكه السياسي المعارض...

قلت إن المدعوين كانوايتتمون إلى مختلف بلدان البحر الأبيض المتوسط، لذا فإن المنتمين إلى البلاد العربية المتوسطية لم يكونوا قلة في العدد بين نحو من سبعين مدعواً إلى الندوة سوى اليونانيين. بعضنا، مثل كاتب هذه السطور، جاء من بلده، وبعضنا جاؤوا من منافيهم أو من مقر إقامتهم في بلدان غير موطنهم. من هؤلاء مثلاً محمود حسين الكاتب السياسي المصري الذي يجهله العرب ويعرفه الفرنسيون معرفة جيدة. محمود حسين هذا ليس شخصاً بمفرده، بل هو كاتبان اسمهما عادل رفعت وبهجت النادي، يقيمان في فرنسا منذ زمن طويل وفيها يؤلفان كتبهما السياسية التي تصدر عن نزعة اشتراكية متطرفة تروتسكية أو ماوية.

إذن فقد كان في مؤتمرنا كتّاب عرب كثيرون. فلسطين نفسها كانت ممثلة بريموندا الطويل المقيمة في الأرض المحتلة، والتي عرفت السجن في دفاعها عن مواطنيها وعرفها المتتبعون لنضال عرب فلسطين عن طريق كتابها عن هذا النضال. ولما كانت تهيئة الندوة ترجع في نصفها، إذا لم يكن في أغلبها، إلى وزير الثقافة الفرنسي، فما كان مستبعداً أن يدعو هذا الوزير مفكرين من إسرائيل إلى الاشتراك بها. وحقاً كان هذا. فحين بلغت في أثينا فندق خاندريس، حيث حلّت الوفود، وتطلعت إلى أسماء المشاركين

وجدت بينها اسمين لإسرائيليين قادمين من تل أبيب، أحدهما نائب سابق مشهور بمعارضته للسياسة الصهيونية في بلاده، والثاني كاتب يساري معروف كذلك بمواقفه العدائية لتلك السياسة. ذانك المشاركان هما أوري آفنيري وآموس كينان. معارضان لأساليب الحكم في إسرائيل ولطريقة الصهاينة في معاملة العرب في فلسطين بلدهم، ولكنهما على كل حال إسرائيليان، من إسرائيل.

* * *

أن يحضر إسرائيليان، وإن كانا معارضين لحكومة بلدهما، كان بعض ما توقعت حدوثه في هذا المؤتمر ما دام الداعي الأول إليه هو، كما قلت، وزير الثقافة الفرنسي. إنها البداية، قلت لنفسي. فإحضار هذين الإسرائيليين إلى ندوة البحر الأبيض المتوسط وإشراكهما في أبحاثها يعنيان اعتبار شعب إسرائيل شعباً متوسطياً له انتماؤه إلى بلدان هذا البحر وله مساهمته في حضارة هذه البلدان. تلك أفكار ستطرح في جلسات الندوة، ولكننا نحن العرب لا نقبل بمبدئها ولا بمحاولة جعلها مقبولة عند الآخرين. وليس عسيراً علينا أن نورد الحجج القاطعة في دحضها إذا ما جرى إقحامها في المناقشات الدائرة. قلت هذا لنفسي، كما حدثت به بعض من آنست منهم اهتماماً بما أهتم أنا به من المشاركين العرب، ونحن في السفينة التي أقلّتنا من أثينا العاصمة إلى مقر اجتماعاتنا في جزيرة هيدرا.

ذلك أن ميلينا ميركوري، وزيرة الثقافة والعلوم في الجمهورية اليونانية اختارت لإقامة المؤتمر هذه الجزيرة الجميلة التي تبعد مسافة ساعتين عن أثينا بحراً في أسرع الزوارق. فنحن لن نتلبث في عاصمة اليونان إلاّ ليلة واحدة حضرنا في أولها حفلة الاستقبال

الكبيرة في قصر الثقافة، ثم ركبنا في صباح اليوم التالي سفينة سياحية فاخرة توجهت بنا إلى جزيرة هيدرا في جو منطلق تحرر فيه المشاركون من قيود الرسميات، وانصرفوا إلى التمتع بهذه النزهة البحرية مجتمعين في حلقات يتعرف أعضاؤها بعضهم ببعض، يتبادلون المعلومات عن اهتماماتهم وإنتاجهم الفكري والفني، كطليعة للمناقشات التي ستدور حول الموضوع الرئيسي للندوة، وهو العلاقات الثقافية بين بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

في هيدرا، تلك الجزيرة الساحرة، عقدنا أول اجتماعاتنا في كنيستها الأثرية الكبيرة التي لم تكن تبعد غير خطوات عن شاطىء البحر ومرسى المراكب فيه. وجلست في مقعدي من قاعة الاجتماع وحولي بعض زملائي الذين تهيأوا معي للتصدي لمحاولة إقحام إسرائيل بين الشعوب المتوسطية الأصيلة. إلاّ أن ذلك التصدي لم يقع في جلستنا الأولى. فما كدت أحكم على أذني سماعة الترجمة الفورية حتى جاءتني مديرة مكتب الوزير الفرنسي لتقول لي بلهجة قلقة إني مطلوب لمكالمة عاجلة بالهاتف من أثينا. وسمعت على خط الهاتف، في الغرفة المجاورة لقاعة الاجتماع، صوت دبلوماسي عربي، صديق ما كنت أظنه يعمل في أثينا، يقول لي بعد التحية: ما هذا المؤتمر الذي تحضره يا فلان؟ هل تدري بأننا، نحن الدبلوماسيين العرب، لم نسمع به إلاّ أمس حين دعينا إلى حفلة الاستقبال الرسمية؟ قلت: ولكنكم لم تحضروها... لم أر عربياً فيها غير ممثل منظمة التحرير الفلسطينية. قال: لأننا قاطعناها جميعاً، وسنعقد اجتماعاً لبحث هذه القضية... نرجوك أن تعود إلى أثينا مساء اليوم لتحضر اجتماعنا في صبيحة الغد...

لم تكن عودتي إلى أثينا متيسرة ذلك المساء، فكان لا بد من

الانتظار إلى صباح اليوم التالي. ولما ذاع أني سأترك اجتماعات الندوة لأحضر اجتماعاً للسفراء العرب يتعلق بموضوعها كثر التساؤل بين المؤتمرين عما وراء ذلك. وفي المساء، عندما كنا نتناول جميعاً العشاء على موائد متفرقة في الهواء الطلق، جاءت ميلينا ميركوري، وزيرة الثقافة، إلى المائدة التي كنت عليها يصحبها معاون وزير الثقافة الفرنسي، وهي تقول شاكية: ماذا يريد سفراؤكم من مؤتمرنا هذا؟ أنتم مدعوون بصفتكم الشخصية كرجال فكر، فليس للساسة أو الدبلوماسيين دخل في أمركم. قلت: يا سيدتي... فقالت الوزيرة محتجة: لا تناديني بيا سيدتي... قل لي يا ميلينا! ضحكت وناديتها باسمها الأول كما أرادت. فقد كانت في مخالطتها للمؤتمرين، وأنا من بينهم، تبتعد عن شكليات منصبها الرسمي مذكرة بماضيها كممثلة فنانة وكمناضلة يسارية. قلت لها: يا ميلينا... ربما كان للدبلوماسيين العرب عذرهم في الاستيضاح عن هوية ندوتنا، فهم لم يدروا بها إلاّ مساء أمس. قالت: كان خطأً أن نضع في كتاب الدعوة تحت توقيعينا لقبينا كوزير الثقافة في فرنسا ووزيرة للثقافة في اليونان... سأصدر مع وزير خارجيتنا، في هذا المساء، بياناً يؤكد ابتعاد المؤتمر عن الرسميات ويعلن أنكم لا تمثلون بلادكم سياسياً بل تمثلون قيم الفكر والثقافة والفن في حوض بحرنا المتوسط هذا...

* * *

صدرت صحف أثينا في الصباح التالي وفيها البيان الذي أشارت إليه ميلينا ميركوري. علمت بهذا في اجتماع السفراء العرب الذين عرضت عليهم فيه الغاية من الندوة وبرنامج عملها ونوعية المشاركين فيها. وكانت الوزيرة تنتظر مني هاتفاً على رقمها

الشخصي الذي سجلته بيدها في دفتري، كي أعلمها أن من اجتمعت إليهم قد أرضاهم بيانها، وإني عائد إلى المشاركة في أعمال المؤتمر. ولكني في الواقع لم أتصل بالوزيرة. فقد نشرت إحدى صحف الصباح الموالية للحكومة مع بيانها شيئاً آخر يتعلق بي شخصياً، ولم يدر بخَلَد المصطادين في الماء العكر أني سأطلع عليه في الوقت المناسب. كان في تلك الصحيفة الواسعة الانتشار ريبورتاج مطول عن ندوتنا تضمن صوراً عن رحلتنا البحرية من أثينا إلى جزيرة هيدرا، ومن بين هذه الصور واحدة تمثلني أنا والأديب التونسي عز الدين قلوز جالسين على مائدة واحدة...

لم يكن نشر هذه الصورة أمراً غير عادي. ولكن غير العادي كان ما كتب تحتها. فقد كان الشرح عليها بهذه الجملة: «رجال الفكر في العالم ليست بينهم حواجز... إنهم متكاتفون من أجل بحرٍ متوسط عماده الثقافة والفكر... في الصورة مندوبا سورية وإسرائيل يجلسان على مائدة واحدة».

كان هذا افتراء مقصوداً ومبيتاً. فالمشاركان الإسرائيليان، افنيري وكينان، معروفان معرفة تامة عند الصحفيين الحاضرين ولا يمكن أن تلتبس صورة أحدهما بصورة المشارك التونسي. هذا التزوير المتعمد قصد به دون شك تسخير حضوري وأمثالي لندوة البحر الأبيض المتوسط للإيهام بأن رجال الفكر العرب يخالفون ما تفعله دولهم وما تعلنه وسائلها الإعلامية من رفضها لوجود الكيان الصهيوني في المنطقة. وإذا كان المقصود من بيان الوزيرين اليونانية والفرنسي الذي صدر عشية أمس تبرئة الندوة من بعض الشبهات، فإن هذه الصورة بشرحها الكاذب جاءت مؤكدة واقعية تلك الشبهات وداعية إياي شخصياً أن أتخذ موقفاً لا بد من اتخاذه.

عدت في الواقع إلى هيدرا بمجرد اطلاعي على صورتي هذه في صحيفة «توفيما» اليونانية. ودخلت اجتماع الندوة في قاعة الكنيسة الكبرى بينما كان أحد المتحدثين الإيطاليين يلقي كلمته. لم تكن ميلينا ميركوري ولا كان جاك لانغ، وزير الثقافة الفرنسي، بين الحاضرين، فقد كانا في أثينا يستقبلان بيير موروا، رئيس وزراء فرنسا، الذي قدم من بلاده وقيل لنا إنه سيحضر كضيف حفل الندوة الختامي. وحين جاء دوري في الكلام بعد عدة مشاركين بدأت بالحديث عن بعض ما كنت أريد التحدث فيه من أمور الثقافة المتوسطية، ثم قلت إني لن أكمل حديثي في الندوة لأن ثقتي بغايتها قد تزعزعت بسبب حادثة شخصية أخشى أن يكون لها انعكاسها على الندوة بصورة عامة. قلت هذا ووزعت على الحاضرين نسخاً من تلك الصورة، مع ترجمة لشرحها بالفرنسية، وعقبت على ذلك بكلمات بيّنت فيها ما وراء هذا الافتراء من مقاصد مشبوهة...

وهكذا حدثت الضجة التي ذكرها مراسل «الفيغارو» فيما رويته عنه في مطلع هذا المقال. ضجة حقيقية دفعت المسؤولين اليونانيين في الجلسة إلى الاعتذار، وتحدث أثناءها عدد من المشاركين مستنكرين. وحين أعلنت انسحابي من الاجتماع انسحب مؤيداً لي المستشرق الكبير جاك بيرك، وهو بين أعضاء الوفد الفرنسي الشخصية الثانية في الأهمية بعد وزير الثقافة. واحتجاجاً على ذلك التزييف في الصورة وقّع الحاضرون بياناً يشجبون به ما أوردته الجريدة ويطالبون بتصحيحه. أما أنا فقد قلت للذين أرادوا مني أن أجد في هذا ترضية كافية، إني مصر على عدم العودة إلى الاجتماعات وإن كنت لا أطلب من غيري مقاطعتها. كل ما

يهمني هو أن يحول المشاركون فيها، وكلهم من ذوي النوايا الحسنة، دون أن تستخدم ندوتهم الثقافية كحصان طروادة للغايات السيئة المبيتة لها.

وكانت اجتماعات الندوة قد شارفت على الانتهاء على كل حال. ختام برنامجها كان حفلة موسيقية كبرى أقيمت في مدرج إيبيدور حضرها، كما كان مقرراً، رئيس وزراء فرنسا وكارامنليس رئيس وزراء اليونان. أما آخر أعمالها فهو بيان مشترك نشرته الصحف ونقلت خلاصته وكالات الأنباء العالمية، وفيه أجمع كل المشاركين في المؤتمر على التنديد بإسرائيل وشجب محاولاتها التوسعية وعلى المطالبة بإقامة وطن مستقل للفلسطينيين في بلادهم. وهذا مناقض كل المناقضة لما أراد الموالون للصهيونية تسخير الندوة له، مبتدئين من الصورة التي كشف زيفها غايتهم ولفت الأنظار إلى نياتهم.

وحين عدت إلى بلدي تلقيت من الأستاذ جاك بيرك، صديقي المستشرق الفرنسي الكبير، قصاصة من جريدة «لوموند» الباريسية فيها بيان الندوة الأخير، مع رسالة منه يقول فيها: «هكذا ترى أن المناورات التي حاكها ذوو النيات السيئة حول المؤتمر انقلبت عليهم، وجاء البيان الختامي ضد ما أرادوا...».

* * *

حدث كل هذا في فترة خمسة أيام، بين ٢٠ و٢٤ من أيار/ مايو الفائت. رجعت بعد ما جرى من اليونان إلى سورية عن طريق بيروت، وذلك في الأيام القليلة التي سبقت محنة لبنان، بل محنة العرب، الكبرى الأخيرة. حين عدت إلى قراءة قصاصة جريدة «لوموند» وأنا ألاحق أخبار النكبات المتتالية في هذه المحنة لم أملك

غير أن أهز رأسي، والأسى يعتصر قلبي، متسائلاً عن قيمة كل الكلام الذي قلته في الندوة، والذي أثرت به تلك الضجة، والذي انتهى إلى النتيجة التي تضمنتها القصاصة. ما قيمة الكلام الذي نقوله ونعبر به عما نعتقده إذا افتقدنا القوة التي تعطي الكلام شكله كفعل. ما جرى أمس في فلسطين، وفي لبنان، وفي كل الساحات العربية يصدّق ما آمنت به دوماً وما رددته دوماً، وما قاله قبلي بألف سنة المتنبي حين قال:

... حتى رجعت وأقلامي قوائل لي

المجد للسيف ليس المجد للقلم

اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به

فإنما نحن للأسياف كالخدم

١٩٨٢/٧/٩

أيام في الجزائر

يعرف أصحابي عني قلة الرغبة في حضور المؤتمرات والتحدث فيها. فقد دأبت على الاعتذار عن عدم قبول الدعوات التي توجه إليّ للكلام في الندوات قائلاً إني، في الكلام، أفضّل أن أكون فارساً لوحدي لا متكلماً مع الآخرين. ومع ذلك فقد ساقتني الظروف في العامين الفائتين إلى أن أحضر عدداً من المؤتمرات الفكرية والعلمية، في بلاد مختلفة عربية وأجنبية، وإلى أن أساهم بها محاضراً أو مناقشاً ومعقباً على ما يقوله المحاضرون. ولا أزعم أني أسفت لما ساقتني إليه الظروف، فقد وجدتني أعود من اللقاءات التي أحضرها، شبه مضطر، بحصيلة من الفوائد ومن المتع ومن الصلات الإنسانية تستحق ما أتكلفه لها من مشاق السفر وما أضيعه فيها من أيام العمل.

آخر ما حضرته من المؤتمرات هو الندوة العلمية التي أطلق عليها «الملتقى حول فكر ابن خلدون»، والتي عقدت في الجزائر في بلدة صغيرة تقع جنوبي غربي العاصمة الجزائرية، اسمها الحاضر تغزاوت واسمها التاريخي قلعة بني سلامة. وقد اختيرت هذه القرية التي

تبعد نحواً من ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً عن الجزائر العاصمة لأنها المكان الذي خلا فيه ابن خلدون بنفسه، ملتجئاً إلى أصدقائه البداة من بني عريف، بعد أن تهرب من خدمة السلاطين في المغرب الأقصى، فانصرف إلى كتابة مقدمته الشهيرة التي تؤلف المجلد الأول من سبعة مجلدات هي تاريخه الذي أطلق عليه اسم «كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».

ولا أريد أن أتصدّى هنا لوقائع جلسات هذا الملتقى الفكري ولا أن أورد البحث الذي أعددته له وألقيته في أولى تلك الجلسات. سأقتصر في هذه السطور على ذكر نبذ من الملاحظات والانطباعات على هامش المؤتمر، مما يدخل في باب المتع والفوائد التي أشرت إليها فيما سبق.

لقد كانت هذه زيارتي الأولى لأرض الجزائر. وهي زيارة طالما تقتُ إلى القيام بها فلم تتهيأ لي ظروفها، على الرغم من كثرة أسفاري بين مشارق الأرض ومغاربها، وبين بلدان الوطن العربي بصورة خاصة. لذا فإن أولى فوائد حضوري ملتقى فكر ابن خلدون كانت أن أتيحت لي رؤية هذا البلد العزيز، لا في زيارة محدودة مقتصرة على العاصمة وضواحيها، بل في رحلة عبر مسافة ليست هينة من أرضه، متعرفاً على طبيعة هذه الأرض، الجميلة بسلاسل جبالها المكسوة بالغابات في بعض الأنحاء، المخصبة في سهولها المتصلة بالصحراء الواسعة في أنحاء أخرى. وقد كان مروري سريعاً بالبلدان المتعددة بين الجزائر العاصمة ومدينة تيارت، وهي حاضرة الولاية التي تقع فيها قلعة بني سلامة. إلاّ أن سرعة المرور لم تحل دون أن ألاحظ ما أثلج صدري من علائم الرغبة الصادقة والفعلية

في التعريب، في بلد لا يزال التفاهم بالفرنسية فيه مع الناس أسهل من التفاهم بالعربية. حيثما وقعت عيني، في المدن والقرى الكبيرة التي اخترقتها سيارتنا قبل بلوغ تيارت، وجدت المخازن والمتاجر قد أعيد طلاء واجهاتها وكتب عليها بالعربية، وبالعربية وحدها، أسماء أصحابها ونوعية ما تبيعه، كأنها لم تعرف الحروف الفرنجية في يوم ما. قلت إن هذا أثلج صدري، أنا الذي حزّ في صدري ذات يوم، خلال زيارة قديمة لي لمدينة الدار البيضاء في المغرب، أن قرأت على واجهة إحدى صيدلياتها هذه الجملة: هنا نتكلم العربية!

بل إني رأيت أن التعلق بالعربية ومحاولة التخلص من الطابع الفرنجي الأجنبي تجاوزا حدهما في ذات مرة، فيما يشبه المزاح، على لسان عالم جزائري أثناء مناقشة حول أسلوب ابن خلدون في مؤلفاته جرت بيني وبين ذلك العالم. كان الأستاذ زهير الزاهري، وهو شيخ جليل تجاوز الثمانين من عمره، واسع الثقافة والاطلاع، يعقب على ردّي على آرائه في هذا المجال في إحدى جلسات الملتقى، فبدأ كلامه بقوله إنه لن يلقبني بلقب دكتور، إذ إن لفظة دكتور من صنع الاستعمار والتبشير، ولذا فإنه سيناديني بلقب الشيخ... الشيخ عبد السلام! وحقاً أخذ يخاطبني بهذا اللقب من على منبر المحاضرة وفي كل محادثاتنا أيام الملتقى، إلى أن ودعني وهو يعطيني عنوانه قائلاً بلهجته الجزائرية الأصيلة: أنا، يا سي الشيخ، معجب كثيراً بمداخلاتك أثناء مناقشة المحاضرين... فهي مداخلات هادئة، هادفة! وحين كرر الشيخ الزاهري هذه الجملة، ولقبي الجديد فيها، لم أملك إلاّ أن التفت إلى رفيقتي فأقول لها: هكذا ترين أني جئت الجزائر دكتوراً وعدت منها شيخاً!

ولا يعني هذا على كل حال أن ثمة تعصباً شوفينياً وراء ظواهر مثل

هذه ملحوظاً في أوساط الجزائريين المثقفة. فقد وقعت على صورة تخالف هذا الظن وتبين جانباً من جوانب الانفتاح الإنساني الذي اتصفت به الثورة الجزائرية في انطلاقتها للوصول بالبلاد إلى استقلالها. وقعت على تلك الصورة خلال حديث تبادلته مع أحد حضور الملتقى ونحن في طريقنا إلى قبور ملوك البربر وإلى آثار مدينة تغدامت التي أحياها الأمير عبد القادر الجزائري وسوّرها وحصّنها في أثناء حروبه مع فرنسا. كلمني ذلك الرجل بفرنسية صافية وهو يتلطف بالثناء على ما كنت أدلي به من آراء. وحين أردت التعرف عليه أخبرني بأنه خوري كاثوليكي، وأنه يفهم العربية جيداً ولكنه لا يتكلمها بطلاقة. سألته هل هو فرنسي؟ قال: بل جزائري. وحين رأى في نظرتي حيرة تقارب الشك قال مصرّاً: فرنسي الأصل ولكني جزائري... أقيم في الولاية المجاورة، وكنت عضواً عنها في أول مجلس للشعب في الجزائر المستقلة!

وكان ما قاله ذلك الخوري لي صحيحاً. سألت بعض الأخوة الجزائريين عنه فقالوا ببساطة إن الأب ب. مواطن جزائري، وإن أبناء ولايته انتخبوه نائباً عنهم في أول مجالس الشعب بعد الاستقلال، وقبل ذلك كان ممثلاً لجبهة التحرير الوطنية في أميركا الجنوبية... وإنه، لكل هذا، كان قد حكم عليه في فرنسا، وطنه الأول، بالإعدام...

ومرة أخرى أثلج صدري بالتعرف على هذا الراهب المناضل الذي قاده تحري الحق إلى أن يصبح، وهو فرنسي مسيحي، ممثلاً للجزائر الثائرة على فرنسا ونائباً عن المسلمين المعتنقين ديانة غير ديانته.

ومثلما كانت هذه مفاجأة سارة لي، فوجئت وسررت بأمور كثيرة في زيارتي القصيرة للبلد العربي المجاهد، الجزائر، أستطيع أن أملأ

بروايتها صفحات كثيرة لو اتسع لي المجال. وكان آخر تلك المفاجآت السارة حين وجدت في الجزائر العاصمة من يحفظ أبياتاً من قصيدة لي قديمة، سياسية ساخرة، كنت نظمتها منذ خمسة وثلاثين عاماً... وجدته يحفظ تلك الأبيات ويرجوني أن أكتب له القصيدة كاملة لأنه أضاع نسخته منها. كان ذلك هو الأستاذ الخمار، الموظف الكبير في وزارة الخارجية الجزائرية، الذي يرجع حفظه للقصيدة إلى أيام دراسته الجامعية في سورية ومصر. قال لي إنه ليس الوحيد في حفظ القصيدة بين الجزائريين، وأن المرحوم الشيخ البشير الإبراهيمي، عالم الجزائر الكبير ووالد وزير خارجيتها الحالي، كثيراً ما ردد أبيات تلك القصيدة في منفاه في القاهرة قائلاً بأن منطوقها المؤسي ينطبق على واقع العرب وواقع حكامهم في تلك الأيام، وربما في كل الأيام.

حيا الله على البعد عني الجزائر وأهلها، ولقّاها ولقّاهم من الخير ما يستحقه نضالها وجهادها.

١٩٨٣/١٠/٦

مدريد ومتاحفها

هذه هي المرة الرابعة التي تقودني فيها أسفاري إلى مدريد، عاصمة إسبانيا، ولكنها المرة الأولى التي أزور فيها، في هذه المدينة الكبيرة والجميلة، متحفها العسكري.

في زياراتي السالفة للعاصمة الإسبانية كان من أوائل ما أضعه في برنامجي هو التردد على متحفها الكبير، البرادو. كنت أجول في صالات هذا المتحف الواسعة وبين أجنحته المتعددة، ساعياً إلى لوحات بعينها أعرف أين تقع من زواياه. أسعى إليها كعاشق مسرع إلى موعد يحرص على الوصول إليه. لوحات لموريلو تمثل العذراء في «الحبل بلا دنس» وهي تضع قدميها على هلال تلفعه السحب بينما يتجمع حولها صغار الملائكة ويتناثرون كحبات سبحة نورانية... لوحَتيْ غويا المشهورتين، مايا الكاسية ومايا العارية، المتقابلتين في قاعتهما القصية، ترويان للمتأمل حكاية، غامضة وفاضحة في آن واحد، لفنان أحب دوقة رفيعة المقام فعبر عن لوني حبه لها بهاتين اللوحتين الرائعتين في تناقضهما. ولوحات غير هاتين وتلك لا تجدها في غير هذا المتحف المتميز، البرادو.

وربما كان البرادو أضيق رقعة وأقل عدد مقتنيات من متاحف عواصم العالم الكبيرة الأخرى، أمثال اللوفر في باريس والأرميتاج في لينغراد. إلاّ أن روائعه المنتقاة وحسن تنسيقها، وجواً خاصاً لصالات هذا المتحف، قربته من نفسي منذ زيارتي الأولى له منذ ثلاثين عاماً، وجعلتني أعتبره من أجمل ما رأيته من متاحف العالم الكبرى، وقد رأيت منها الكثير. فيلاسيكز وايلغريكو وموريلو وغويا وغيرهم من فناني أسبانيا الكلاسيكيين أعطوا البرادو طابعه الخاص الذي لا تجاريه فيه متاحف غيره أغنى منه وأوسع.

وعندما عدت من جولتي الأخيرة هذه في البرادو قال لي قريبي المقيم في إسبانيا، والذي كان يرافقني: تقول إنك زرت البرادو مرات أربع على الأقل، أفلا تزور المتحف العسكري مرة واحدة؟ قلت له متسائلاً: المتحف العسكري؟ لماذا؟ قال: لتشاهد فيه أشياء كثيرة تهمّك... سيف أبي عبد الله الصغير مثلاً... السيف الذي سلّمه لفرديناند وإيزابيلا عندما سقطت غرناطة في أيدي الإسبان...

جبل الحسرات

هززت كتفيّ لاقتراح قريبي وقلت له: وأيّ حاجة بي لاستعادة مأساة ذلك السيف ومأساة صاحبه؟ السيوف التي أضعناها ونضيعها في كل يوم كثيرة، ولن يزيد في عددها سيف أبي عبد الله الصغير أو ينقص منه. إذا ملكت فسحة من الوقت بعد عودتي من الأندلس فإني لن أزور فيها المتحف العسكري، بل متحف فناني القرن التاسع عشر الذي لم يسبق لي أن شاهدت مقتنياته.

وفي اليوم التالي توجهت إلى الأندلس لأقضي فيها أربعة أيام بين

قرطبة وإشبيلية وغرناطة. ولئن كانت زيارتي لمدريد وما حولها في هذا العام هي الرابعة، فإنها الثانية لجنوب إسبانيا ولمدن الأندلس، الفاتنة في مناظرها وآثارها والمثيرة للشجن بتاريخها وذكرياتها. فمنذ ثلاثين عاماً انطلقت من مدريد في قطار الكورّيوس، أو قطار البريد، الذي دار بي في جنوبي إسبانيا على هواه وهواي، أتوقف في كل بلدة يحلو لي التوقف بها، وأعود لأستقله إلى بلدة أخرى، ببطاقة سفر واحدة لا أغيّرها. ذكرياتي عن تلك الرحلة البوهيمية لا تنسى، وقد أوحت لي بقصص وكتبت عنها مقالات، وكنت أحن دوماً إلى أن أعود إلى معاهدها وأرى ماذا فعل بها الزمن. وإن كنت أعلم أن فعل الزمن يتمركز في النفوس أكثر من تظاهره في الأمكنة.

على أني في هذه المرة لم أستقل قطار الكوريوس في عودتي إلى مواطن الذكريات، بل قصدناها في سيارة سياحية كبيرة مكيفة الهواء، يشرح لنا الدليل فيها المعالم التي نمر بها وتصدح فيها ألحان الزارزويلا في الفترات بين الشرح. وفي غرناطة، حين كانت سيارتنا ترقى بنا من قلب المدينة في طريقها إلى المرتفع الذي يعلوه قصر الحمراء كتاج أرجواني، وتحيط به حدائق جنة العريف كقلائد زبرجدية، أجلت نظري فيما حولي وقلت للدليل: إني أبحث عن ذلك الجبل الذي توقف به أبو عبد الله، آخر ملوك غرناطة، بعدما سلم عاصمة ملكه لفرديناند وإيزابيلا. فأشار الرجل بيده إلى الغرب، إلى قمة بعيدة، ترتسم على الأفق بارزة بين الغيوم في آخر أنوار النهار، وقال: إنه هناك، جبل حسرات العربي!

السيف والوثيقة

كان ذلك هو اسم الجبل. عنده توقف أبو عبد الله الصغير ليلقي

نظراته الأخيرة على آخر معقل من معاقل العرب والإسلام في هذا الجزء من القارة الأوروبية. كان قد وقّع وثيقة الاستسلام ودفع بمفاتيح غرناطة وبسيفه إلى فرديناند وإيزابيلا، ثم انسحب يجر ذيول هزيمته عبر مسالك جبال سييرا نيفادا في طريقه إلى العدوة الأخرى والمغرب. وعلى هذه القمة وقف والتفت متطلعاً إلى غرناطة وإلى قصور بني الأحمر فيها، وأطلقها زفرة حرى بينما سال الدمع من مآقيه. هنالك قالت له أمه، عائشة الحوراء، التي كانت ترافقه في موكب الخذلان: إبك يا بني... إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً، لم تحافظ عليه مثل الرجال!

ومن يومها سميت تلك القمة «جبل حسرات العربي»، وبالإسبانية «مونتي سوسبيرو دل مورو».

ولعل الصورة التي بقيت في خاطري لهذه القمة، مكسوة بظلال الغسق الحزينة، هي التي دفعتني حين عدت إلى مدريد في رحلتي هذه إلى أن أبدل رأيي فأزور المتحف العسكري بعد أن كنت قليل الرغبة بمشاهدة معروضاته. ما منا إلاّ وفي أعماق نفسه أثر من النزوع إلى المازوشية، أعني الولع بتعذيب النفس، بالعودة إلى ما يثير الحسرة وحس القهر. وكأني أردت أن أكمل حس القهر الذي أثاره في نفسي منظر جبل حسرات ذلك الملك العربي البائس بأن أرى وثيقة هزيمته إلى جانب سيفه الذي لم ينتصر به في المعركة بل تقدم به إلى عدوه المنتصر رمز استسلام وخضوع.

تلك الوثيقة بخطها الأندلسي ولغتها الواضحة والجميلة تختصر التاريخ المحزن بكلمات. أما ذلك السيف بصنعته البديعة، وبصقال صفحته، وبحلية مقبضه وغمده المذهبة المزخرفة المرصعة، فهي أثر بالغ الجمال والروعة. ولكن...

ولكن! ... لقد أرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب يطلب منه أن يبعث إليه بسيفه الصمصامة لطول ما سمع عن مضاء هذا السيف وفتك ضرباته. وأجاب عمرو طلب الخليفة فأرسل إليه بسيفه المشهور ذاك. وقدم عمرو إلى المدينة بعد ذلك فقال له عمر رضي الله عنه: يا أبا ثور، جرّبنا الصمصامة فلم نجدها كما تحدث الناس عنها. فكان جواب عمرو بن معد يكرب قوله: يا أمير المؤمنين، بعثت تطلب السيف، ولكنك لم تطلب الزند الذي يضرب به...

غويرنيكا

لم تنسني زيارتي لمتحف مدريد العسكري، ولا رؤيتي لذلك السيف وتلك الوثيقة، زيارة متحف القرن التاسع عشر ومشاهدة مقتنياته التي لم يتسع لها متحف البرادو.

إنها في الواقع مقتنيات ثمينة وذات قيمة فنية كبيرة، وهي تنتمي إلى مختلف مدارس الفن الحديث التي أعقبت كلاسيكية المعلمين الأوائل في الرسم والتصوير. إلاّ أن أهم ما في ذلك المتحف لم يكن معروضاً في صالاته الرئيسية التي حوت أعمال فناني إسبانيا الكبار في القرن التاسع عشر، بل كان في قاعة خلفية مستقلة افتتحت حديثاً في هذا المتحف. إنها قاعة خصصت لتعرض فيها لوحة واحدة لبيكاسو، هي لوحة غويرنيكا التي رسمها ذلك الفنان المشهور ليعبّر فيها عن مذبحة تلك القرية إبان الحرب الأهلية الإسبانية في منتصف الثلاثينات من هذا القرن.

وقد سبق لي أن رأيت لوحة غويرنيكا هذه في باريس منذ سنوات بعيدة حين عرضت في متحف الفن الحديث في العاصمة الفرنسية

لأسابيع معدودة. كان بيكاسو قد حرّم آثاره على موطنه الأول إسبانيا، عندما كانت هذه تعيش في ظل حكم فرانكو الرجعي. أما اليوم، وبعد زوال ذلك النظام، فقد أصبحت تعرض في مختلف المدن الإسبانية، عدا عن متحفها الخاص في برشلونة. وانضممت إلى طابور المصطفين في انتظار أن يحين دوري للدخول إلى قدس أقداس هذه اللوحة التي سار بذكرها الركبان. والصحيح أني لم أكن مدفوعاً إلى مشاهدتها بدافع الإعجاب بها والتمتع بجمال فنها، بل كان دافعي هو الفضول والرغبة في تأمل سحنات المسحورين بفن بيكاسو الذي ما سحرني في يوم من الأيام. لذلك قلت إن ما احتوته القاعة المستقلة المخصصة للوحة بيكاسو كانت أهم ما في المتحف ولم أقل إنها أبدع ما فيه أو أروع أو أجمل. فأنا من عباد الله الذين يجدون الشجاعة للإفصاح عما يحسون به حقاً ويعلنون أنهم لا يرون في إنتاج هذا الفنان العالمي بشهرته، بيكاسو، أثراً لإبداعٍ فائق أو روعة أو جمال، وإنما يرون فيه ضحكاً على ذقون الناس في عصرنا هذا، عصر الصرعات والشذوذ في الفن وغير الفن.

على أن هذا حديث آخر. وهو حديث يطول ولا تتسع له هذه السطور عن متاحف مدريد، وعن سيف أبي عبد الله الصغير، وعن حسرات العربي في الأندلس وغير الأندلس...

١٩٨٣/١١/٦

أيام في الأندلس

في فصل عنوانه «الحج إلى قرطبة» من كتابي «حكايات من الرحلات»، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٤، تكلمت عن الحسرة التي بقيت في نفسي من زيارتي الأولى لقرطبة حين لم أستطع يومها أن أؤدي الصلاة في محراب جامعها العظيم. وقت الزيارة آنذاك كان قد انتهى، وكنت أنا أتنقل كالمشدوه بين الأساطين العجيبة التي يقوم عليها سقف الجامع، أحضن تلك الأساطين بساعديّ وأتحسسها بأناملي وأمرغ خدي على برودة رخامها، والدموع تكاد تنطلق من مآقيّ، بل إنها انطلقت حقاً، في روعة التأثر وتزاحم الذكريات. وحين أردت أن أضع جبيني ساجداً على أرضية المحراب البديع بهندسته وزخرفته وبالمحارة المرمرية التي تتوج تجويفه، أعجلني عن ذلك الرهبان المشرفون على الجامع. فقد كانوا يستحثون الزوار لإخلائه إذ حان وقت إغلاق الأبواب وانتهاء الزيارات.

بقيت الحسرة التي وصفتها في كتابي ذاك في نفسي إلى الخريف الفائت حين عدت إلى قرطبة، وعدت إلى جامعها، فأديت تحت سقفه صلاة فاتتني منذ ثلاثين عاماً. ولم أكن وحدي المصلي في

هذه العودة. فبعد أن تشهدت وسلّمت رأيت عدداً من الزوار المسلمين، أغلبهم إذا لم يكن كلهم عرب، قد اقتدوا بما فعلته فراحوا بين راكع وساجد في مختلف جوانب الجامع. وكان بين المصلين نساء أثرن عجب السيّاح الآخرين، من إسبانيين وأوروبيين، بتأديتهن هذه العبادة الغريبة عليهم في هذا المكان. وتحدّى بعض المصلين تعليمات الزيارة فصلّوا في تجويف المحراب تحت تلك المحارة المرمرية البديعة. لقد أراد القيّمون على الجامع المتحف صيانة جدران المحراب من مس أيدي المعجبين والمتبركين فحظروا التقرب منه بأن أحاطوه بحبل مشدود لا يسمح لأحد بالتطلع إليه إلاّ على بعد خطوات منه ليست قليلة.

هذا الحبل الحاجز الذي أحيط به محراب جامع قرطبة لم يكن له وجود في مكانه الحالي حين أتيته منذ ثلاثين عاماً. فما كان السائحون أيامذاك من الكثرة بحيث يخشى من مرور أيديهم على مرمر المحراب وزخارفه الدقيقة. ولكن تضاعف عدد المتدفقين على معالم الأندلس الأثرية عشرات المرات في العقود الثلاثة الأخيرة من السنين، اضطر المشرفين على هذه المعالم إلى تطوير في أساليب استقبال السائحين تطويراً يعتبر في كثير من نواحيه إلى الأفضل، ولكنه من نواح أخرى يحرم عاشق الآثار متعاً جمة، منها حميمية التواصل مع تلك الآثار، كالتي قضى عليها الحبل المشدود حول محراب جامع قرطبة.

ومن تلك المتع ما شعرت بفقده في زيارتي الأخيرة لإشبيلية شعوراً حاداً. نزلت في هذه المرة في إشبيلية في فندق لوس ليبريروس الضخم. وليس من مجال للمقارنة بين ضخامة هذا الفندق وترفه وبين تواضع النزل البسيط ذي الطابق الواحد بغرفه الصغيرة وأسرّة

تلك الغرف الحديدية، الذي سكنت فيه منذ ثلاثين عاماً. إلاّ أني في ذلك النزل البسيط لم أسمع التحذير الذي كررته علينا في هذا العام دليلة رحلتنا حين وزعت أعضاء الرحلة على فنادق إشبيلية الفخمة. كررت دليلتنا تحذيرها لنا من اللصوص الذين أصبحوا يملأون الفنادق الكبيرة في المدينة، ويتوزعون في مرابعها الأخرى، ويختصون بسرقاتهم السيّاح الغرباء! وحين انطلقت لأبحث عن إشبيلية القديمة، بأزقتها الندية والظليلة وردهات الباسيو في بيوتها الدمشقية الطابع، وجدت أن العمران الحديث قد زحف إليها بناطحات سحابه ومجمّعاته التجارية. لم يبق من المدينة الساحرة التي عرفتها إلاّ حي صغير، ضائع بين العمارات الشاهقة، يمر السائحون في دروبه سراعاً وراء أدلاء مستعجلين حريصين على أن يطلعوهم على أكثر ما يمكن من الطرف في أقل ما يمكن من الوقت. تذكرت عندئذٍ تلك الليلة الرائعة حين وصلت إلى إشبيلية، في زيارتي الأولى، بقطار الكوريوس في أول المساء، ثم مضيت بعد سهرة في الكاسينو أسير حتى الفجر في أزقتها الضيقة مسحوراً بجمال ردهات الباسيو في منازلها، وبنوسان القناديل المزخرفة في سقوف تلك المنازل، وبعطر الياسمين في خمائل تلك الردهات...

وكاسينو إشبيلية، أين هو الكاسينو؟ بحثت عنه في زيارتي هذه فوجدت مكان الحديقة الواسعة التي كانت تنتشر في أرجائها وتحت أشجارها الوارفة طاولات الساهرين، وجدت مسرحاً تصطف أمامه مقاعد متراصة يزحم الجالسون عليها بعضهم بعضاً لتتسع لأكبر عدد منهم، وهم يستمعون إلى غناء الفلامنكو ويشاهدون الرقصات الأندلسية المثيرة. الغناء لا يزال رائعاً والرقصات لا تزال ساحرة، ولكن المغنين والراقصات كانوا يختفون

وراء الستار فور انتهاء أدائهم لوصلاتهم، كما كان الحضور يدعون إلى إخلاء المكان فور انتهاء الحفلة لتحل محلهم وجبة جديدة من الساهرين. أذكر أن الفنانين والفنانات في الكاسينو، في زيارتي الأولى، كانوا يختلطون بعد أداء أدوارهم برواده، يجالسونهم ويحتسون مما يدعون إليه من شراب، ويبادلونهم حديث السمر والأنخاب. وجلست على مائدتي ليلتذاك راقصتان فاتنتان جذبهما إليّ أن كنت وحيداً غريباً، وكان جوابي على حديثهما الذي لم أكن أفهم منه غير كلمات قليلة ضحكات متصلة. ولما سألتني إحداهما لماذا أكثر الضحك، أخرجت من جيبي القاموس الصغير الذي كنت أحمله للملمات، وقلبت صفحاته حتى بلغت كلمات بعينها تقول: فيدا بيليتا... فيدا بونيتا. وكان ذلك يعني بلغة القاموس أن لماذا لا أضحك يا جميلة، ما دامت الحياة طيبة وجميلة!؟

هذا في قرطبة وإشبيلية، روعة وسحر وجمال ولكن ليس مثل ما تمتعت به فيهما في الماضي من الروعة والسحر والجمال. أما في ناطة فقد حججت مرة أخرى، في رحلتي الأخيرة هذه، إلى ر الحمراء وطوفت مرة أخرى في حدائق جنة العريف الفاتنة. لم ينقص تكرار الزيارة من الدهشة التي تؤخذ بها النفس أمام بدائع الهندسة والزخرفة في أبهاء الحمراء وغرفها وممراتها، ولا من توقد الأشجان التي تثيرها معالم المجد العربي الخالدة في هذا الفردوس المفقود. ولقد كنت حائراً بين اللحاق بالدليل الذي كان يستحثنا لسماع أقواله عن تاريخ الحمراء ومعاني نقوشها وبين الانصراف إلى نفسي متملياً في سحر ما تقع عليه عيني أو متأثراً بما يختلج في وجداني من ذكريات وعبر. ما الذي يستطيع هذا الدليل أن يزيدني

به معرفة بالحمراء وأهلها السالفين بترجمته الهزيلة لما هو منقوش على الجدران أو بتسميته المشوهة لسلاطين بني الأحمر وأمراء بني سراج، وأنا الذي كنت أقرأ بيوت الشعر المزخرفة بها القاعات بنصها وأعرف تاريخ غرناطة وسادتها الأوائل معرفة تثير الحزن والأسى؟!

ووجدتني في إحدى المرات أتصدى لدليلنا ذاك معنفاً إياه لرواية رواها للزائرين عن قاعة في القصر كنا نقف فيها. فقد قال إن سلطاناً عربياً من ملوك غرناطة اتصل به نبأ خيانة زوجته له مع شاب مجهول من أسرة نبيلة في المدينة. ولما لم يكن يعرف هوية ذلك الشاب بالذات، فقد دعا جميع الفتيان من أبناء الأسر الكريمة في غرناطة إلى حفل تكريم في هذه القاعة. وعندما اطمأن إلى أن أحداً منهم لم يتخلف عن الحضور أمر جلاديه بأن يقطعوا رؤوس أولئك الفتيان دفعة واحدة، وبذلك وثق من أنه قضى على غريمه المجهول! قلت للدليل بعد سماعي هذه الحكاية منه: من أين جئت بهذه القصة يا سنيور؟ قال إنها أسطورة تروى عن هذه القاعة. قلت له إنها أسطورة ملفقة قصد منها الإساءة إلى ذكرى الذين خلفوا لكم هذه الآثار، وهي روائع تدل على سمو في الذوق ورقة في الخصال لا يتناسبان مع الوحشية التي تزعمها أسطورتك هذه. وغمغم الدليل وجمجم وهو يعتذر بأن واحداً من الكتّاب القدامى روى الحكاية، وبأنه هو يرويها عن ذلك الكاتب القديم دون أن يقطع لها بصحة...

وكان الوقت أصيلاً حين انحدرنا من الجبل الأرجواني التربة الذي يعلوه كتاج ملكي قصر الحمراء، منحدرين إلى المدينة المنبسطة تحته. وحين أجلت النظر في ذرى أشجار جنة العريف المضيئة ثم

أدرته إلى قمم الجبال البعيدة، وكان نور آخر النهار ينحسر عنها ببطء كأنه يتركها مكرهاً، تذكرت مقطعاً لفردريكو غارسيا لوركا، شاعر إسبانيا وابن غرناطة، يقول فيه:

بأية حسرة محرقة يفارق النور غرناطة؟ يتشبث بذرى أشجار سروها ويندس في ثنايا مياهها!

١٩٨٣/١٢/٣

النطق والمال

ما من متأدب يحفظ شيئاً من شعر المتنبي إلاّ وجد نفسه في ذات يوم يردد هذا البيت لأبي الطيب:

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

نردد هذا البيت ساخرين أو معتذرين أو مشتكين حسب الموقف والمقام، معتبرين أن الكلمة المنطوق بها أدنى قيمة من المال، وأن الجود بها عطاء من لا قدرة له على غيرها.

ولا شك في أن هذا التقييم للكلمة صحيح في أكثر الأحيان. إلاّ أن ثمة أحياناً أخرى تعدل فيها قيمة الكلمة قيمة المال المعدود، وربما فضلت عليه. ويصح هذا حتى عند من يحسبون للمال حسابه ومن يتمنون الإكثار منه. فقد تكون حاجة واحد من هؤلاء في ظرف ما إلى كلمة طيبة، أو إلى جملة مؤثرة، أشد من حاجته إلى مال يعطاه.

أقمت منذ سنين عديدة فترة طويلة في باريس، كنت أتردد أثناءها في أخريات الليالي على مقهى صغير، اسمه «شيه ادريين» يقع قريباً

من فندقي في حي مونبارناس. كان المقهى مفتوحاً لرواده طيلة الليل، وتلجأ إليه زمر من الساهرين بعد انتهاء حفلات المسارح والملاهي ليتموا فيه ليل باريس الذي لا انقضاء له. اسم النادل الليلي لذلك الملهى نيكولا، وهو كورسيكي الأصل. ولم أكن شخصياً من زبائن نيكولا المفضلين، فقد كنت أرفض دوماً أنواع الأشربة الكحولية التي يقترحها عليَّ، وأكتفي بزجاجة من الكولا أو من عصير الفواكه، وبذلك كان نصيبه من البخشيش مني أقل بكثير مما يغدقه عليه الرواد الآخرون.

جئت مرة بعد منتصف الليل إلى هذا المقهى وجلست في زاوية منه أمارس هوايتي المحببة إلى نفسي، وهي ملاحظة أصناف المترددين والمترددات عليه، والاستماع إلى أحاديثهم، والتأمل في تصرفاتهم بعين الفضولي الطلعة الذي يجد لذة في التعرف على كل ما يقع عليه بصره. ووقف نيكولا على رأسي ليسألني عما أشرب. كان الإجهاد بادياً بوضوح على ملامحه. ولا غرو، فقد كنت أعرف أنه منذ الأصيل يدور كالمكوك بين البار وقبو الأشربة ومقاعد الزبائن الذين هم في تجدد دائم. إذ لا يتلبث واحدهم في قاعة المقهى المزدحمة إلاّ ريثما يحتسي كأسه ثم يخرج إلى شوارع الحي الصاخبة تاركاً مكانه إلى وافد جديد. قلت للنادل جواباً على سؤاله: كأس عصير... ولكن! قال: ماذا؟ قلت: أردت أن أقول إنك متعب يا نيكولا... لا بد أن يومك كان شاقا!

الصحيح إني لم أفطن إلى اللهجة التي قلت بها لنيكولا هذه الكلمات البسيطة. ولكني أذكر أني نطقت بها بحرارة، وأن إشفاقي على ملامحه المكدودة كان صادقاً. ورأيته يعتمد بكفيه على المنضدة التي تفصل بيني وبينه، بعد أن وضع عليها ما كان

يحمله من صينية وكؤوس فارغة، ثم يقول: مضت لي أعوام في هذا المقهى ولم أسمع من أحد كلمة لطيفة كهذه التي قلتها لي منذ لحظة... شكراً يا سيدي، شكراً! والتفت إلى فتاة كان مجلسها مع رفيقها يجاور مجلسي وقال لها وهو يشير إليَّ بإصبعه: أنظري يا آنسة... ألا ترين معي أنه أجمل فتى في باريس؟

* * *

ضحكت يومها من عبارة نيكولا التي قالها بحماس. وبالطبع لم يبلغ بي الغرور أن أصدق فحواها فأعد نفسي من فتيان باريس المتصفين بالجمال، ولكنني كلما تذكرت هذه الواقعة عرفت أن كلمة مناسبة في موضعها يمكن أن تعدل المال، أو أن تفوقه في بعض الأحيان. وقد أكدت لي هذا الذي أقوله حادثة صغيرة حدثت لي في آخر زيارة لي لمدينة عمان بينما كنت أنتقل من المطار إلى فندقي في العاصمة الأردنية.

يبعد مطار عمان الجديد عن قلب المدينة مسافة تقارب الأربعين كيلومتراً. وفي هذه المسافة الطويلة كان لا بد من أن يدور الحديث في أمور شتى بيني وبين سائق سيارة التاكسي التي كنت راكبها الوحيد. سألني ذلك السائق عما إذا كنت أزور عمان لأول مرة، قلت له طبعاً لا، فأنا أتردد إليها بين عام وآخر منذ عشرين سنة. قال: إذن فأنت ترى مثلي كيف تزداد عاصمة بلدنا إتساعاً عاماً بعد عام. قلت: كل مدن العالم آخذة في الإتساع... في عمان مثلاً أنا أجد أن دواراتها، وهي الجواد العريضة التي تحيط بمركزها القديم، تزداد دوّاراً جديداً في كل عودة إليها في العامين والثلاثة. فأمّن السائق على كلامي وراح يشير إلى طلائع أبنية المدينة حين بلغناها واصفاً لي فخامة الدور التي يتنافس الأثرياء في إشادتها في

أطراف العاصمة. وهزّ رأسه وهو يضيف قائلاً: نعم، يتنافسون في سعة القصور وتعداد غرفها، وآخرة ابن آدم إلى حفرة سعتها ذراع في ذراعين قد يجدها وقد لا يجدها. قلت له: الحق معك وفي التاريخ القديم حكاية بهذا المعنى لا أدري إذا كنت تعرفها. قال: تفضل واحكها لي. قلت: كان أحد الخلفاء منفرداً بنفسه في ساعة القيلولة فطلب من حاجبه أن يدخل إليه من يجده بباب القصر ليبادله الحديث. ولم يكن على الباب في تلك الساعة غير شيخ فقير طلب إليه الحاجب أن يتبعه، فتبعه هذا سائراً وراءه ومخترقاً أروقة قصر الخلافة والأبهاء والغرف الكثيرة واحدة بعد واحدة حتى انتهى إلى القاعة التي كان يتصدرها الخليفة. قال له هذا حين وقعت عينه عليه: ما عندك لي يا شيخ؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين:

أما بيوتك في الدنيا فواسعة

فليت قبرك بعد الموت يتسع!

فما كان من الخليفة عند سماعه هذا إلاّ أن قبض على لحيته وانخرط في البكاء...

أعجب السائق بحكايتي هذه، أو ببيت الشعر الذي انتهت به، وراح يستعيد مني ذلك البيت المرة تلو المرة. بل إنه أخذ يردده كأنه يريد حفظه، هازاً رأسه وهو يقول كالمحدث نفسه: «فليت قبرك بعد الموت يتسع!». واستمر في ذلك حتى وقف بسيارته بي أمام الفندق. ولما سألته عما هو مطلوب مني لقاء المشوار من المطار إلى الفندق قال: تعرفتنا يا سيدي ستة دنانير، ولكني أكتفي منك بخمسة دنانير. ضحكت وقلت: ولماذا هذا التخفيض؟ أهو ثمن

بيت الشعر؟ قال وهو يبتسم: نعم إنه بيت الشعر، إنه يسوى أكثر من دينار يا سيدي!

* * *

وقد يخرس اللسان عن النطق أحياناً، إلاّ أن ثمة ملامح في سلوك بني البشر، وفي تعاملهم فيما بينهم، تثبت أن المال ليس كل شيء في العلاقات الإنسانية، وأن تصرفاً مناسباً في مناسبته قد يواسي أو يرضي أو يسرّ عندما لا يتوفر المال أو يسعد الحال.

نزلت مرة في إحدى رحلاتي المبعدة في مطار كاتماندو عاصمة مملكة النيبال، في زيارتي لتلك المملكة على سفوح جبال هيمالايا. أحاط بي وبرفاقي عند مغادرتنا الطائرة جمع من الصبية الصغار وتزاحموا علينا وهم يمدون أيديهم إلينا بالسؤال في إلحاح. لم نكن نملك شيئاً من عملة ذلك البلد لنصرفهم عنا بقليل من النقود، ولا كان ممكناً أن نرضيهم بكلمة مواساة طيبة أو نقنعهم ببيت شعر بليغ. فما كان أولئك الصبية الشحاذون يفهمون حرفاً واحداً من لغتنا العربية، ولا من الفرنسية أو الإنكليزية اللتين نتكلمهما. كانوا يحاصروننا بأيديهم الممدودة وبسيل من الكلام الذي لا نفقهه حتى أعاقونا عن اللحاق بالسيارات التي كانت في انتظارنا على باب المطار.

كان إلحاح أولئك الصغار علينا، في ذلك البلد الفقير المتخلف، مزعجاً حقاً. ولاحظت أن صبياً منهم، دون العاشرة من عمره، كان يمد يده إلينا حتى ليكاد يدخل كفه في جيوبنا بينما كان بصره متردداً بين وجوهنا وبين وردة حمراء، كبيرة وزاهية، مغروسة في شعر رفيقتي، كانت المضيفة في الطائرة قد أهدتها إياها قبل

نزولنا منها. وفي إحدى المرات، حين نزعت يد الصبي عني بعنف، رأيته يمد بصره بشوق ومسكنة إلى تلك الوردة ويشير إليها بإصبعه. نزعت رفيقتي الوردة من شعرها ومدت بها كفها إلى الصبي، فتناولها هذا بلهفة فقربها من أنفه وشفتيه، ثم رفعها فوق رأسه مشيراً بها إلى رفاقه كأنه يفاخرهم بالفوز بها. ولدهشتي رأيت الصغار يلتفون حوله، ثم رأيتهم يركضون وراءه حينما أخذ يركض مبتعداً عنا، مزقزقين فرحاً ومخلين بيننا وبين طريق الخروج من بهو المطار، وكأنهم بتلك الوردة قد فازوا بأحلى غنيمة وأغلاها...

* * *

إنها ذكريات، بين قديمة وجديدة، تداعت إلى خاطري ببيت المتنبي الذي أثبته في مطلع هذا الكلام. فغبطة المعدمين الصغار بوردة أجزأتهم عن هبات الزوار الغرباء وبيت شعر قديم قيّمه سائق التاكسي الكادح في عمّان بدينار، وجملة مواساة عابرة شرحت صدر الساقي الكورسيكي في باريس، كلها تعني أن الكلمة البسيطة أو التصرف اللبق قد يكون لهما في النفس الإنسانية تأثير لا يستهان به. شرط هذا التأثير أن يصدر التصرف وتصدر الكلمة عن سجية صادقة لا عن افتعال مصطنع. فليس أقدر على هذه النفس الإنسانية من تمييز الصدق من الزيف في مثل هذا المجال. والمتنبي نفسه قال ذات يوم في هذا المعنى:

إذا اشتبهت دموع في خدود
تبين من بكى ممن تباكى

١٩٨٤/٥/٢٧

مفارقات في عصرنا

السيد ليوندبرغ مواطن سويدي أجريت له منذ عدة شهور في بريطانيا عملية جراحية جريئة وخطيرة، هي الأولى من نوعها في هذا البلد، ألا وهي زرع قلب ورئة من أحد المعطين في صدر السيد ليوندبرغ مكان قلبه ورئته التالفين.

وقد أجريت هذه العملية للسيد ليوندبرغ السويدي في بريطانيا لا عن ضعف في كفاءة جراحي السويد بلده الشخصي، بل لأن قانون بلده ذاك يقف عقبة أمام بعض جراحات نقل الأعضاء. فالقانون السويدي لا يعترف بما يسمى بالموت الدماغي، وهو المرحلة التي تعتبر فيها القوانين الأخرى الإنسان ميتاً عندما ينعدم نشاط دماغه انعداماً تاماً لا رجعة فيه، ولو ظلت بقية أعضائه، ومنها القلب، تعمل عملها الصحيح. ولذلك فإن القانون في السويد لا يقبل بانتزاع قلب إنسان ماتت جملته العصبية المركزية، بمعنى أن دماغه فقد كل أثر للحياة، كي ينقل هذا القلب إلى إنسان آخر ولو كان في هذا النقل حياة الإنسان الأخير الذي تلف قلبه بينما ظلت سائر أعضاء جسمه سليمة.

وعلى هذا أجريت تلك الجراحة الخطيرة لذلك المواطن السويدي في بريطانيا، برضى الحكومة السويدية نفسها بل بتبنيها لها. فقد تولت هي، أعني الحكومة السويدية، دفع تكاليف العملية كما تولت بلدية مدينة السيد ليوندبرغ دفع نفقات إقامة مواطنها في المستشفى. وبلغت تلك التكاليف والنفقات مبلغاً لا يستهان به: خمسة وثلاثين ألف جنيه إسترليني، من جنيهات صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا العظمى!

هل يبدو هذا المبلغ كبيراً لإنجاز تلك العملية الفذة التي أبقت شعلة الحياة متقدة في صدر السيد ليوندبرغ وأطالت عمره؟ إنه كبير حقاً، إلاّ أنه يهون أمام ما تكلفه عمليات أخرى لنقل الأعضاء أجريت في الولايات المتحدة الأميركية، مثل عملية زرع كبد استبدلت فيها بكبد معطوبة كبد صحيحة، مأخوذة من مدهوس بسيارة أو من ضحية حادث مات فيه صاحبها موتاً دماغياً بينما ظلت بقية أعضاء جسمه سليمة. عملية زرع الكبد هذه كلفت بالدولارات ما يعادل مائة وثلاثين ألف جنيه إسترليني! ترى ماذا يكون رد فعل ذلك العاشق القديم حين يأتيه الجواب بهذا الرقم من آلاف الجنيهات على السؤال الذي طرحه ذات يوم في بيت شعره المشهور:

ولي كبد مقروحة من يبيعني
بها كبداً ليست بذات قروح؟...

إذن فإن مبلغ خمسة وثلاثين ألف جنيه إسترليني مبلغ معقول لعملية زرع قلب ورئة جديدين للسيد ليوندبرغ السويدي، تلك العملية التي نجحت من الناحية الفنية والعلمية نجاحاً كاملاً ولكنها، ويا للأسف، لم تفلح في إطالة عمره أكثر من اسبوعين أسلم

بعدهما الروح لخالقه. وكذلك فإن مئات الآلاف من الدولارات تنفق على تبديل كبد لواحد من رعايا الولايات المتحدة الأميركية قد تبدو مقبولة في إنفاقها لتحقيق ما أنجزه العلم من تقدم ولإنقاذ حياة إنسان، ولو كان هذا الإنسان قد أتلف كبده في شرب الكحول وكان الإنقاذ لمدة لا تتجاوز أسابيع محدودة.

أقول إن هذه المبالغ وتلك تبدو معقولة ومقبولة، بل إن إنفاقها في ما أنفقت فيه يثير في نفسنا الإعجاب بما حققه العلم في عصرنا من إنجازات، لولا أننا نقرأ في المجلة التي تحدثت عن هذه الأمور ما يدعونا إلى إعادة النظر في تقديرنا وفي إعجابنا. ففي الوقت الذي تشيد فيه تلك المجلة بعملية زرع القلب والرئة، الناجحة لمدة أسبوعين فقط، في صدر السيد ليوندبرغ، نجدها تشير إلى أن عشرات الآلاف من أطفال العالم الثالث مهددون بالموت من نقص السوائل وقلة الإماهة في أبدانهم، وأن هذا التهديد يمكن رفعه عن حياة عشرات الآلاف بتزويدهم بظروف إعادة الإماهة. هذه الظروف تحوي مركبات ملحية بسيطة، ولا تكلف كثيراً. فنفقات زرع الكبد في جنب أحد الأميركيين من الكحوليين، أو نفقات عملية مثل التي أجريت للسيد ليوندبرغ، تكفي لشراء كميات هائلة من ظروف الإماهة القادرة على إنقاذ حياة مئات الآلاف من الأطفال الذين فقدوا سوائل أبدانهم بالانتانات والإسهالات...

لا بد لهذه المقارنة، بين ما أنفق لإنقاذ حياة فرد واحد وبين ما يمتنع عن إنفاقه لإنقاذ حيوات عشرات الألوف، من أن تمحو من نفوسنا إعجاباً خالجها في البدء بمقدرة الجراحين في عصرنا هذا على تبديل عضو بعضو في الجسد البشري، وبتقدم العلم الذي سمح بنقل قلب ورئة في صدر ميت فعلاً ليبعث بهذا النقل الحياة في صدر

آخر مشرف صاحبه على الموت. فأي فخر للبشرية في أن تنفق الثروات وتبذل الجهود لتمد أسابيع في حياة إنسان واحد مقيم في زاوية معينة من عالمنا، بينما يحجب الجزء اليسير من تلك الثروات والجهود عن آلاف الأنفس البشرية المشرفة على الموت في زوايا أخرى من العالم نفسه، وهي الزوايا التي يسمونها العالم الثالث؟ وأي معنى للتقدم العلمي والروح الإنسانية إذا كانت حصيلتهما أن يفرق بين حياة بشرية وحياة بشرية أخرى وأن تغمض الأعين عن مآسي الملايين لتختص بالرعاية العشرات أو الأفراد؟!

* * *

إنها لمقارنة مؤسية، وإنه لتفريق صارخ وجارح ذاك الذي يتبدى لنا فيما ذكرناه آنفاً. ويبدو لنا هذا التفريق أمض وقعاً في القضية التي شغلت في الشهور المنصرمة مختلف الأوساط الطبية والقضائية في الولايات المتحدة الأميركية والتي سميت بقضية العامل البرتقالي. لقد انتهت هذه القضية باتفاق حبي تعهدت فيه سبع شركات كيميائية أميركية بأن تدفع مائة وثمانين مليوناً من الدولارات كتعويض إلى المتضررين بالعامل البرتقالي هذا.

والعامل البرتقالي هو مركب كيمائي مسقط لأوراق الأشجار، استخدمه الأميركيون بكميات هائلة أثناء حرب فيتنام بهدف تعرية أشجار الغابات الكثيفة حيث كان الفيتناميون يرابطون ويكمنون ويشنون الغارات على غزاة بلدهم. وتبين بعد سنوات من انقضاء تلك الحرب ومن انسحاب الجيوش الأميركية الغازية إلى بلادها أن ضرر العامل البرتقالي لم يقتصر على إبادة الغابات والقضاء على معالم الحياة فيها، بل إنه أثّر في كثير ممن لامس أوانيه أو تنشق ذراته. وقد تظاهر هذا التأثير في الأعوام الأخيرة بالإصابات

السرطانية والاضطرابات العصبية وأمراض الكبد والجلد فيمن تعرضوا لأذاه. وعلى هذا أقيمت الدعاوى على الشركات الصناعية التي قدمت هذا المركب الكيميائي للجيش الأميركي مدعية أن لا ضرر له على الإنسان، واضطرت تلك الشركات إلى عقد ذلك الإتفاق الحبي الذي قبلت بموجبه أن تدفع للمتضررين هذا المبلغ غير الزهيد: مائة وثمانين مليون دولار أميركي.

لعل لنا الحق في أن نبتسم شماتة بتلك الشركات لخسارتها الفادحة في هذه القضية نتيجة متاجرتها بسلامة بني البشر وبأرواحهم. إلاّ أن ابتسامتنا لا تلبث أن تنقلب إلى كآبة، أو إلى سخرية سوداء، حين نعرف إلى أي من المتضررين ستدفع هذه التعويضات الهائلة. إنها لن تدفع لسكان المناطق التي تعرّت غاباتها في فيتنام، ولا إلى الذين أصبحت قراهم فيها قاعاً صفصفاً ودفن ذووهم أحياء تحت ركامها، ولا إلى الذين خلّف العامل البرتقالي في أجسادهم السرطان والجنون وآفات الكبد والجلد والعظام من أبناء تلك البلاد. لن تدفع الشركات الأميركية تعويضاتها للفيتناميين الذين غُزوا في عقر دورهم بالعامل البرتقالي، وإنما ستدفعها إلى المحاربين القدماء في الجيش الأميركي. إلى الغزاة الذين ارتد بعض بأسهم إليهم وتجرعوا قليلاً من السم الذي كالوه بالقناطير المقنطرة للآخرين... فلنتأمل!

* * *

خمسة وثلاثون ألف جنيه إسترليني لعملية نقل قلب ورئة لم يعملا أكثر من اسبوعين، ومائة وثلاثون ألف جنيه إسترليني لزرع كبد صحيحة مكان كبد تالفة، ومائة وثلاثون مليون دولار تعويض لمن أضر به العامل البرتقالي بين المحاربين القدماء في الجيش

الأميركي... مبالغ ضخمة وخيالية حين نتدبرها ونتصور ما يمكن أن تمسح من بؤس في مناطق كثيرة لا يحتاج فيها الناس إلاّ إلى القليل كي يصحوا ويعيشوا سعداء.

ومع ذلك فإن هذه المبالغ الخيالية نفسها تتضاءل أمام ما ينفق في أبواب أخرى تبدو في ظاهرها إنجازات علمية رائعة يحق للبشرية أن تفخر بها، بينما يكمن في باطنها الشر المستطير لهذه البشرية نفسها. مئات الملايين ومليارات الدولارات التي تنفق في صنع الصواريخ ذات الرؤوس النووية، وعلى الغواصات الذرية، وعلى الطائرات الجبارة المشحونة بعوامل القتل والتدمير والتي تجوب أجواء كرتنا الأرضية أربعاً وعشرين ساعة في كل يوم، وعلى سفن الفضاء الخالية والمأهولة والمكوكات الناقلة لها... كم يهدر من هذه وتلك من مال هو في مصدره معتصر من بؤس البؤساء ودم الفقراء، وهو في غايته أداة تخريب وإفناء؟!

في نيسان/أبريل الفائت قام ملاحو المكوك الفضائي شالنجر بعملية فريدة في نوعها، رائعة في دقة تنفيذها، هي إصلاح عطب في قمر إصطناعي كان قد أطلق في شباط/ فبراير عام ١٩٨٠ وتعطل فيه بعد إطلاقه جانب من تجهيزاته الألكترونية. في عملية الإصلاح هذه خرج أحد الملاحين من المكوك إلى الفضاء الحر، ممتطياً كرسياً ذا حركة ذاتية مستقلة، واستطاع الإمساك بالقمر الإصطناعي مقدمة لفك لوالب التجهيزات المعطوبة باليد، وهي ستة وثلاثون مسماراً لولبياً قطر واحدها ثلاثة مليمترات. لم تكلف هذه العملية التي أجريت في مدار فضائي يبعد عن سطح الأرض خمسمائة كيلومتر سوى مبلغ زهيد... خمسين مليون دولار فقط! إنه مبلغ زهيد بالقياس إلى ثمن القمر الإصطناعي المعطوب، فهو لو لم

يصلح لوجب أن يرسل قمر غيره ليوضع في مداره قيمته مائتان وأربعين مليوناً من الدولارات! وما هي مهمة هذا القمر الإصطناعي وأمثاله؟ إنها مهمة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب. ظاهرها مراقبة النشاط الشمسي في السلم، وباطنها أن تكون سلاحاً فعالاً في حالة الحرب فتنقل أو تمطر قنابل نووية على أقاليم يسكنها من البشر جماهير مجمهرة، غير مفرقة بين صالح وطالح أو بين بريء ومجرم...

* * *

رووا أنه جيء للمأمون في أحد مجالسه برجل ادعى أنه يحسن شيئاً لا يستطيع أن يأتي به غيره. وقام الرجل بعرض ما يحسنه أمام المأمون، فغرس إبرة دقيقة في الأرض أمامه وابتعد خطوات ثم راح يقذف من يده بمجموعة من الأبر واحدة بعد الأخرى، فيصيب برأس كل إبرة مقذوفة عين الإبرة التي سبقتها، أعني الفتحة التي ينتظم بها الخيط. كرر الرجل ذلك حتى بلغ ما أنفذه من الأبر واحدة في عين الأخرى مائة إبرة. وكان ذلك شيئاً رائعاً حقاً ومعجزاً. فلما انتهى الرجل من عرضه أمر المأمون بمكافأته المكافأة التي يستحق. أمر بإعطائه مائة دينار وبأن يجلد مائة سوط: مائة دينار لمهارته الفائقة، ومائة سوط لإهداره هذه المهارة فيما لا يفيد ولا يغني...

ترى بماذا كان يأمر المأمون لدهاة العلم ودهاقنة السياسة والإدارة في عصرنا هذا حين يرى كيف يهدر هؤلاء وأولئك عبقريتهم العلمية وقدراتهم السياسية وكفاءاتهم الإدارية، لا في أمور تفيد البشرية وتخفف من أوجاعها، بل إنهم يهدرونها في ما يزيد بؤس

هذه البشرية في بعض الأحيان وفي ما يهدد كيانها ووجودها بالامحاء والتلاشي في كثير من الأحيان؟!

١٩٨٤/٦/١٥

مصادفات، ولكنها مذهلة

السيدة هيلين كيكيدو، ولا مانع من ذكر اسمها الصحيح ما دام قد مضى على حادثتي معها ما يقرب من ثلاثين عاماً، السيدة هيلين كيكيدو هذه إمرأة يونانية الجنسية، نصف في عمرها، لا يخلو وجهها من حسن وملاحة. أبرز ما يجذب المتطلع إلى محياها عينان سوداوان واسعتان، عميقتا النظرة. ولا غرو، فقد كانت الصفة التي تتخذها هذه السيدة، والمسجّلة تحت اسمها في بطاقة زيارتها، صفة الوسيطة الروحية، ميديوم، بمعنى أنها كانت تمتهن قراءة الأفكار والبحث عن المخبآت والتنبؤ بالمستقبل. بهذه الصفة، ولهذه المهنة، كانت السيدة هيلين كيكيدو تتنقل بين مدن العالم الكبرى حين لقيتها في دمشق، في منتصف الخمسينات، في فندق سميراميس الذي كنت أنزله كلما أممت العاصمة السورية في تلك الأيام.

كان الوقت شتاء آنذاك. البرد فيه منقطع النظير والثلوج تقطع الدروب بين المدن السورية، حتى إن رفاق سفري الذين تأخروا في الانطلاق من حلب بعدي اضطروا إلى البقاء ليلتهم على الطريق

بين حمص ودمشق، إذ غاصت سيارتهم في أكوام الثلج ولم يتمكنوا من استئناف السفر إلاّ في الصباح. كان طبيعياً في ذلك البرد القارس أن أفضل قضاء أغلب أوقاتي في دفء الفندق، ولا سيما بعد ما يحل المساء ولا يبقى ما يدعوني إلى التجول في المدينة. وفي بهو الفندق التقيت بالسيدة كيكيدو، فهي كذلك كانت تقضي أغلب أوقاتها فيه، تنعم بدفئه وتستقبل قصادها ممن بلغتهم دعايتها في القدرة على الوساطة الروحية واستطلاع المغيبات.

أذكر الآن كيف أقبلت نزيلة فندقي هذه، تتبعها سكرتيرتها العجوز التي تلازمها كظلها في كل خطوة تخطوها، في واحدة من تلك الأمسيات، لتجالسنا في زاوية من بهو الفندق، أنا وثلاثة أو أربعة من الزوار من أبناء بلدتي. وأحسب أن أولئك الزوار، بثيابهم البدوية الغريبة عليها، هم الذين اجتذبوها إلى مجالستنا. لا بد أنها رأت فيهم زبائن مثاليين لمن كان مثلها. أوسعنا لضيفتنا في المجلس وأصغينا إلى حديثها عما يمكن للنفس الإنسانية المزودة بقوى فوق الطبيعة أن تجترحه من عجائب. وقمت أنا بترجمة هذا الحديث إلى زواري الذين ما كانوا يفهمون كلمة من لغة السيدة كيكيدو الفرنسية. ويبدو أن تعليقاتي على ما كانت تقوله والابتسامة الخفيفة التي لم تفارق شفتيّ أوحت إلى محدثتنا بأني قليل الاقتناع بما أسمعه منها، فقالت لي:

ـ كأنك تشك في الذي أتكلم عنه... مع أنك تعرف، بصفتك مثقفاً، أن تجارب العلماء في العصر الحديث أثبتت وجود الوقائع الميتابسيكية، وهي الحوادث النفسية الخارقة التي لا تخضع لقوانين المادة المعروفة.

فقلت، ودون أن أتخلى عن ابتسامتي الساخرة: من قال يا سيدتي إني أشك بما تتفضلين به؟ أنا أؤمن به لأني شخصياً أملك جانباً من القوة الروحية التي تتكلمين عنها.

قالت: أنت؟

قلت: نعم. إلاّ أني لا استخدم هذه القوة في ما تستخدمينها أنت فيه. إني احتفظ بها لنفسي.

قالت: أنت تمزح... وإلاّ فاعطني الدليل على ما تقول.

كنت أمزح حقاً، فما كنت أعرف لنفسي أي أثر من القوة التي ادعيتها. ولكني رأيت أن أسير في مزاحي إلى نهايته، فقلت لمخاطبتي:

ـ إذا كنت راغبة في ذلك فعليك أن تتحملي مسؤوليته. أين تقع غرفتك من هذا الفندق يا سيدتي؟

قالت: في الطابق الرابع، ورقمها ٤٠٥، أقيم فيها أنا وأنجليكا، معاونتي.

ـ قلت: أما أنا فأقيم في الطابق الثاني. ما رأيك إذا جعلتكما تهجران طابقكما وتنزلان إلى الطابق الثاني قبل انقضاء هذه الليلة؟

قالت مستغربة: لِمَ ذلك؟ وكيف؟

فلم أجب على استفهامها وإنما قلت لها: ضعي يدك هنا...

وكانت في يدي حلقة مفاتيح بسطت كفي بها فوضعت هي كفها فوقها كما أشرت عليها، وظلت كذلك لحظات إلى أن سحبت كفي من تحت أصابعها. قالت:

ـ وبعد؟

قلت: وبعد... ليس لك إلاّ أن تنتظري ما سيجري.

وأنا اليوم، وبعد ما يقرب من ثلاثين عاماً من تلك الأمسية، لا أدري كيف قلت ذلك الكلام ولا لماذا تصرفت ذلك التصرف. كل ما أذكره أن سخريتي المرحة استمرت بي فدفعتني إلى هذا وذاك. لم أكن أنتظر على أية حال أن يحدث ما حدث بعد ذلك، أعني بعد أن انصرف زواري وآوى نزلاء الفندق في تلك الليلة، المفرطة في بردها، كل إلى غرفته.

ما حدث كان من البساطة، ومن الغرابة كذلك، بمكان كبير. ففي نحو الواحدة بعد منتصف الليل أحسست بباب غرفتي يطرق بعنف. لم تكن العادة أن ينبه موظفو الفندق الكبير زواره بهذه الطريقة. ولما أسرعت ففتحت الباب فوجئت بصاحبتي الوسيطة الروحية تقف أمامي بثياب نومها ملفوفاً عليها رداؤها المنزلي، ووراءها تقف ظلها العجوز، وعلى ملامحهما أمائر الدهشة البالغة. صاحت بي المرأة:

ـ كيف فعلت هذا؟ كيف فعلته؟!

لم أدر عماذا كانت تتحدث مخاطبتي، فلم أجبها بشيء. وفي هذه الأثناء جاء أحد الخدم فأشار للسيدتين يدعوهما إلى دخول غرفة مجاورة لغرفتي. سألته عما يجري فقال:

ـ الأمر بسيط يا سيدي. توقف محرك التدفئة المركزية الرئيسي في الفندق عن العمل، فاضطررنا إلى أن ننقل نزلاء الطوابق العليا إلى غرف الطوابق الدنيا. المحرك الاحتياطي لا يدفىء غير الطابقين

الأوليين، وفي هذا الجو الجليدي لا يقوى أحد على أن ينام في غرفة دون تدفئة...

إذن فقد نزلت هيلين كيكيدو، على رغمها، من طابقها الرابع إلى الطابق الذي تقع فيه غرفتي، وصحّ ما أنذرتهما به في أول المساء! كنت نسيت، في الواقع، انذاري الهازئ، ذاك، ولكن ها إن ما قلته قد تحقق! مجرد مصادفة... هكذا قلت لنفسي. إلاّ أن السيدة اليونانية، المتعاملة ليل نهار مع القوى الغيبية والمعطيات الروحية، تلقت هذه المصادفة تلقيا مغايرا. تبين ذلك في ملامحها وهي تسألني كيف فعلت هذا، مؤمنة بأني أنا فعلته حقاً. كانت دهشتها أقرب إلى الفزع منها إلى الاستغراب. وحين ساقتني أسفاري، بعد عدة سنين، إلى زيارتها في منزلها في أثينا تصحبني زوجتي، ودعتنا إلى العشاء في إحدى ضواحي العاصمة اليونانية، راحت تقدمني إلى أصدقائها بوصفي الفتى الذي يملك قدرة روحية تفوق قوتها هي... قدرة أطفأت المحرك الرئيسي للتدفئة المركزية في أكبر فنادق دمشق لتحقق ما أردته لها من النزول من غرفة في الطابق الرابع إلى غرفة في الطابق الثاني من ذلك الفندق!

* * *

في الواقعة التي أوردتها كان الاندهاش الذي بلغ حد الذهول ثم الفزع من نصيب السيدة هيلين كيكيدو، بينما لم يتعد نصيبي منها السخرية من إيمان تلك السيدة بقدرتي الروحية المزعومة. أما في الواقعة التي سأرويها فكان الاندهاش من نصيبي أنا. اندهاش لم يبلغ حد الفزع، وإنما لم يخل من قدر كبير من الحيرة والتساؤل.

حدث ذلك منذ سنوات قريبة. حمل البريد إليّ في عيادتي ذات يوم

رسالة في عدة صفحات، مصدرها مدينة طرطوس على الساحل السوري. كاتب الرسالة شرطي عرفته منذ أعوام حين كان يقوم بوظيفته في بلدتي، وكنت أخصه ببعض الرعاية عندما كان يحتاج إليها. انقطعت عني أخباره منذ أمد طويل، وها هو الآن يكتب إليَّ ليخبرني خبر حادثة مؤلمة نزلت به. فقد كان هلال، وهو ذلك الشرطي، يستقل إحدى سيارات مفرزته حين انقلبت السيارة فتسببت له برضوض وكسور أصبح بعدها غير مؤهل للاستمرار في عمله كشرطي، فتقرر تسريحه من الوظيفة بإحالته على التقاعد. لم يكن هلال يشكو من التسريح أو الإحالة على التقاعد، بل كانت شكواه من أن رؤساء له، ولنقْص في الشكليات الروتينية، اعتبروا ما جرى حادثاً عادياً تقع المسؤولية فيه عليه شخصياً، وليس حادثاً أثناء أداء مهمة رسمية. بهذا الاعتبار يفقد هلال حقه في التعويض المخصص للإصابات أثناء العمل الرسمي، ولا يتبقى له من مورد غير راتب التقاعد الهزيل.

لماذا كتب لي هلال بكل هذا؟ كتبه لأنه علم أن اللواء ش.، وهو المسؤول الذي يملك صلاحية البت في حقه من التعويض، صديق لي. لذا فإنه، أي هلال، يرجوني أن أطلب من صديقي اللواء مساعدته بما يؤمن له ولأسرته المؤلفة من أم وزوجة وستة أولاد بعض ما يعينهم على عيش الكفاف.

وحقاً، كانت لي معرفة وثيقة باللواء ش.، إلاّ أني لم يسبق لي أن سألته أمراً يدخل في نطاق عمله، عدا عن ثقل رجاء الآخرين على النفس ولو كان المرجوّ صديقاً حميماً. غير أن رسالة هلال كانت، على كثرة تفاصيلها وسذاجة لغتها وتعابيرها، مؤثرة بما تضمنته من وصفٍ لسوء حال كاتبها وللغبن الذي سيلحق به إذا لم ينصف

فتعتبر إصابته حادثة أثناء عمله الرسمي. وقرّ رأيي، وأنا أدير في بالي أمر هذه الرسالة وصاحبها في طريقي إلى المنزل، بعدما انتهيت من عملي في عيادتي، أن أضع الرسالة في مظروف وأرسلها إلى صديقي المسؤول الذي يقيم في العاصمة على بعد ستمائة كيلومتر من بلدتي حيث أقيم، مرفقة ببطاقة مني. إن تأثره بها لن يكون أقل من تأثري أنا. وإذا لم يكن قد صدر قرار مخالف في أمر هلال، فإني أحسب شكواه ستنصف وسينال في النهاية مبتغاه.

بلغت منزلي على هذا القرار. وما كدت ألج باب الدار حتى قيل لي بأن متكلماً على الهاتف ينتظرني، فأسرعت لأمسك بالسماعة. وهنا كانت مفاجأة المصادفة التي شدهت لها. كان خاطري مشغولاً بالأفكارالدائرة فيه حول هلال ومشكلته، وحول طريقة الاتصال بالصديق القادر على حل هذه المشكلة. كنت أتساءل متى أرسل إلى صديقي الرسالة ومتى يتلقاها، كيف يتقبلها وماذا يبت بشأنها... متى، وكيف، وماذا؟ وإذا بالمتكلم على الهاتف هو صديقي نفسه، يعلمني بأنه على بعد خطوات مني، وأنه لأول مرة يغادر مكتبه في العاصمة ليتفقد مصالح دائرته في أنحاء البلاد القصية، في جولة أوصلته إلى بلدتي فسارع إلى الاتصال بي ليراني، ولو لدقائق، قبل أن يتابع سفره!

إنها مصادفة عفوية، ولا شك في ذلك. ولكن اقتناعي بعفويتها لم يحررني من الذهول الذي أصابني حين تناهى إلى مسمعي هذا الصوت الذي ما كنت أتوقعه، أو أتوقع أن يكون صاحبه قد قطع مئات الكيلومترات فيصبح بقربي في لحظة كنت أتصوره فيها في مكتبه في العاصمة البعيدة. أهي رحمة الله بالمسكين هلال هي التي فعلت هذا؟ تجاوزت هذا السؤال الذي طرحته على نفسي وهتفت

بصديقي مرحباً وداعياً إياه إلى الإسراع إلى حيث أنا في انتظاره وفي حاجة إليه...

* * *

هاتان واقعتان حدثتا لي شخصياً، رويتهما كما جرتا رداً على من سألني عن ولع كتاب القصة بخلق المصادفات غير المعقولة التحقق. لست شخصياً ممن يعتمدون على المصادفة في بناء القصص التي أكتبها، بل إني أعتبر الاعتماد عليها نقطة ضعف في موهبة القاص. إلاّ أن هذا لا يعني خلو الحياة من غرائب المصادفات، وأن غرابتها تدفع المرء أحياناً إلى تفسيرها بغير ما تقول به قوانين الاحتمالات. يفسرها بادعاء قدرة روحانية خارقة جعلت محرك التدفئة المركزي يتوقف في منتصف ليل الشتاء تحقيقاً لإنذاري للسيدة هيلين كيكيدو. أو يفسرها بادعاء كرامة للشرطي المتقاعد ساقت المسؤول عن قضيته إلى قطع المسافات الشاسعة كي يتبلغ الرجاء بانصافه. إنها تفسيرات بعيدة عن الصواب. فهاتان الواقعتان، ووقائع أكثر غرابة منها وإدهاشاً، لا تعدو أن يكون مجرد مصادفات، وإن كانت مصادفات مذهلة.

١٩٨٤/١٠/٣

للمداليّة وجهان

سؤال: دكتور بتلر، هل تستطيع علوم الطب أن تمد في حياة الإنسان حتى يعيش مائة عام؟

جواب: ليس من مانع ملزم يحول دون ذلك. كثير من اختصاصيي طب الشيخوخة يعتقدون بأن العمر الطبيعي للإنسان، كما تؤهله له مكوناته الموروثة، هو مائة وعشرة أعوام أو ما يقارب هذا العدد من السنين.

هذا السؤال الذي بدأت به الصفحة موجه من محرر إحدى المجلات الطبية إلى الدكتور روبرت ن. بتلر مدير المعهد القومي للشيخوخة في الولايات المتحدة الأميركية. وجواب الدكتور بتلر هو مقدمة لحديث مستفيض عن إمكانية الجسد الإنساني القيام بوظائفه الحيوية قياماً كاملاً مدة تنوف على القرن الكامل من الزمن، وعما قدمته العلوم الطبية ولا تزال تقدمه لمساعدة الفرد البشري على العيش إلى هذه السن المتقدمة.

وما تحدث به الدكتور بتلر يدور حول واقع حياة الإنسان في عصرنا الحاضر في الولايات المتحدة الأميركية وفي غيرها من

البلدان المتقدمة صناعياً، المستفيدة من معطيات العلم الحديث في الوقاية من الأوبئة والأمراض قبل حدوثها وفي المعالجة منها بعد حدوثها. ربما كانت الأرقام التي أوردها هذا العالم في حديثه لا تنطبق كل الانطباق على واقع بلدان العالم الثالث، أو علينا نحن أبناء الوطن العربي، في الزمن الحاضر، إلاّ أنه ما من شك في أننا سائرون في الطريق التي تقدمتنا بها الدول الصناعية في أمل أن نلحق بها وأن نوازيها في هذا المضمار.

لقد زاد في عصرنا الحاضر أمل الإنسان في العيش الطويل زيادة ظاهرة وكبيرة. ففي مطلع هذا القرن كان متوسط عمر الفرد في أميركا سبعاً وأربعين سنة. أما اليوم، ونحن في منتصف الثمانينات، فإن الإحصاءات تشير إلى أن المولود هناك له كل الأمل في أن يعيش ثلاثة وسبعين عاماً. زادت إمكانية التقدم في السن وسطياً ما يفوق خمسة وعشرين عاماً، وهي كما نرى زيادة ليست هينة. ومع ذلك فإن العلماء يرون أن الجسم البشري فيه القدرة على أن يعيش سبعة وثلاثين عاماً أخرى، وأن على الباحثين أن يجدوا السبيل لتمكين الجسم من تدارك هذه الأعوام الثلاثين والسبعة التي توصله إلى مائة وعشر سنين من العمر، فلا تضيع هباء... وإنهم لجادون في العمل لذلك.

والسبيل إلى تدارك هذه السنين الضائعة الآن، كما يراها العلماء، معروفة في بعضها وبعضها لا يزال قيد البحث والاستقصاء. المعروف منها هو تجنب السموم التي يشحن بها الإنسان جسده طوعاً، عن جهل أو تهاون، من مثل التبغ والمشروبات الكحولية، فتؤدي إلى الشيخوخة المبكرة المتظاهرة بتصلب الشرايين وارتفاع الضغط وتفضي إلى موت مستعجل بالآفات القلبية والوعائية. أما

الشطر الذي لا يزال قيد البحث والاستقصاء فهو تأثيرات الغدد الصم التي يؤدي قصور بعضها إلى تحولات تشيخ فيها خلايا الجهاز العصبي المركزي ويشيخ بها جسد الإنسان كله قبل الأوان. لقد تبين مثلاً أن دماغ الشيخ يحتوي كمية من معدن الألمنيوم تزداد بزيادته عوارض التردي والخرف، واتهمت في هذه الزيادة الغدة نظيرة الدرق التي تقصر في عملها. كما تبين أن هورموناً معيناً، هو المسمى ديهيدرو بياندرو ستيرون، إذا ما زرق لحيوانات المخبر أدّى إلى إبطاء الاستحالات الشيخوخية في أجساد تلك الحيوانات، مما يشير إلى إمكانية استخدامه في إقصاء أعراض الشيخوخة المبكرة عن الإنسان في مقبل الأيام.

هذان مثلان مما تحاول المختبرات العلمية في البلدان المتقدمة أن تصل فيه إلى إبلاغ الإنسان عمره الذي خلق له جسده، وهو مائة وعشرة أعوام. إنه عمر إذا كان قد فاتنا أمل بلوغه، نحن أبناء الجيل الحالي، فقد لا يفوت أبناءنا أو أحفادنا على الأقل. وكأن علينا أن نغبطهم، أولئك الأبناء أو الأحفاد، على طول العمر الذي سيبلغونه ولم يبلغه قبلهم آباؤهم وأجدادهم.

* * *

هل يجدر بنا حقاً أن نغبط الأجيال القادمة من بني البشر على هذا العمر الطويل الذي نتوقعه لأفرادها؟

علينا قبل ذلك أن نفكر في أن علوم العصر الحديثة هي التي ستعين أولئك الأفراد على بلوغ هذا العمر الطويل... مائة وعشرة أعوام! هذه العلوم هي حصيلة عصرنا الحاضر بمحاسنه ومساوئه، بملذاته وهمومه. الملذات موجودة حقاً وكثيرة حقاً، ولكن الهموم فيه

تقصم الظهر وتحيل طول العيش أحياناً إلى جحيم يحاول المتمتعون به الخلاص منه. وهذا هو الوجه الآخر للمدالية.

نعم، إن الحياة الحاضرة، ولا سيما في البلدان الصناعية المتقدمة تغدق على إنسانها من نعم المادة ما لم يكن يحلم به الآباء والأجداد. تغدق عليه النعم المادية في صباه وشبابه إلى أن تبلغ به أول الكهولة، وهي تبدأ في الخمسين من العمر. بعد هذه السن يبدأ العمر الجديب، كما يسميه المختصون. إنه عمر تتضاءل فيه الملذات وتكثر الهموم، ولا سيما في عالمنا المتطور بسرعة، الذي يصطنع في كل يوم أساليب جديد في الإنتاج والاستهلاك، متطلباً مرونة في التطابق لا تتوفر لمن قطع من مرحلة العمر نصفها. عالم يجدد شبابه باستمرار. فكأنه مصنوع للشباب، أما من تجاوز مرحلة الشبيبة فإنه مقذوف به إلى الزوايا المظلمة المهملة.

بعد الخمسين من العمر، إذا سلم إنسان العالم الصناعي المتقدم في أيامنا من أمراض الجسم فإن أمراض النفس لا تترك له راحة. إن تطور الصناعات المستمر ومكتشفات العلوم العصرية تجعل الآلة المعتبرة حديثة منذ ثلاثة أعوام آلة عتيقة قد امحى طرازها، وتجعل مدير الآلة العتيقة إنساناً متخلفاً كثيراً ما تلجأ الشركة إلى استبداله بمن هو أصغر سناً وأحدث معلومات. كما أن هم البطالة والتعطل اللذين تخلقهما الأزمات الاقتصادية والتحولات السياسية أصبح سيفاً مسلطاً على الأعناق، ربما استطاع الشباب أن يتخلصوا بخفتهم من تحت شفرته أما الذين تجاوزوا الخمسين، ممن ثقلت خطاهم وتيبست مفاصلهم، فيظلون في خوف دائم منه. ثم إن تهلهل الروابط العائلية وهجر الأبناء لمنازل الآباء منذ بلوغهم سن الرشد، وأحياناً قبل تلك السن، يسلبان من نفوس من تجاوزوا

الخمسين إحساس الأمن في مجتمع الأسرة وغبطة الأبوة الهانئة ويشعرانهم بعزلة الشيخوخة وضعفها المرير. وحين تستجيب الدول لمطالب مواطنيها في إنقاص سن التقاعد إلى سن مبكرة فإن الراحة التي يكسبها المتقاعد في سن الخامسة والخمسين أو ما دونها تتنغص بفقده لذة العمل المفيد، وبشعوره بأن المجتمع استغنى عن خدماته واعتبره عالة لا مشاركاً في الإنتاج، فيحس بأسى الشيخوخة قبل الأوان وينصرف تفكيره إلى ملجأ العجزة الذي سيستقبله عما قريب.

هذه المشاغل النفسية مضافة إلى الإرهاق الذي يخلقه الازدحام والتنافس والوقت المبرمج بالوثائق والثواني، والمهيىء لأشهر وأعوام مقبلة، هي للغربيين الذين تجاوزوا الخمسين من عمرهم هموم ماحقة لم نعرفها بعد في ربوعنا تمام المعرفة. إنها تتظاهر في أجسادهم وفي نفوسهم بعلل تتفاقم في أيام الأزمات المختلفة. وقد ذكر أحد الاختصاصيين الفرنسيين من أطباء الأعصاب أنه في عام ١٩٨١، عندما فاز الاشتراكيون بالحكم في فرنسا، غصت عيادته بعشرات المرضى المتماثلين في وضعهم الاجتماعي والمتقاربين في أعمارهم. كانوا مدراء للشركات أو رجال أعمال كبار، وكلهم في مرحلة الخمسينات من العمر، وكلهم يشتكون من العنّة، والضعف الجنسي. لقد أثّر تخوفهم من قدوم الاشتراكيين والتحول الكبير المتوقع في سير الأعمال الحرة في أعصابهم، فأفقدهم رجولتهم وأفرغ عيشهم من لذته.

ومثل هذا أوردته الصحف الباريسية مؤخراً عن تأثير الشدات النفسية في أيامنا الحاضرة على أناس متميزين في المنزلة الاجتماعية والثقافية. ففي خلال أيام قليلة أعلنت وفاة أستاذين من أساتذة كلية

الطب، وهما في الخمسينات من العمر، بصورة مفاجئة. كان موتهما في الحقيقة انتحاراً وليس وفاة طبيعية. وفي الوسط نفسه الذي ينتمي إليه ذانك الاستاذان طبقة اجتماعية وعمراً أحصيت في المدة الأخيرة أربع وفيات، ثلاثة منها بالسكتة القلبية ورابعة بالنزيف الدماغي، ووراء كل هذه الميتات المختلفة هموم العصر وشداته النفسية. إنها الهموم التي تجعل كثيراً من الناجحين والمحسودين على بلوغهم ذرى الشهرة والثروة والمكانة الاجتماعية يختصرون حياتهم بأيديهم في أول الكهولة تهرباً من العمر الطويل الذي يتوقعون بلوغه. نعدّ من هؤلاء الذين اختصروا حياتهم بأيديهم قبل أن تحين وفاتهم الطبيعية إرنست هيمنغواي منذ عشرين عاماً، وآرثر كوستلر وزوجته في المدة الأخيرة.

لقد كان آرثر كوستلر، الكاتب المشهور ومؤلف «الظلام في الظهيرة»، وزوجته، عضوين في الجمعية التي تطلق على نفسها اسم «منظمة الحق في الموت بكرامة». إنها جمعية تسعى لتجعل من الانتحار في ظروف معينة عملاً مشروعاً وتخوّل الأطباء أو الأهلين في تلك الظروف حق سلب حياة أعضائها أو القضاء عليهم قبل أن تحين وفاتهم الطبيعية. وتضم هذه الجمعية؛ إلى جانب عدد من المفكرين والفنانين وذوي الشهرة العالمية، الآلاف من الأفراد الذين كتبوا في حياتهم وصيات يتنازلون فيها عن حقهم في العيش إذا ما تعرض واحدهم لألم مبرح أو أصيب بداء مستعصٍ في الشفاء، طالبين فيها أن يقضى عليهم حينذاك بصورة أو بأخرى. وفي فرنسا وحدها بلغ عدد أعضاء هذه الجمعية في آخر عام ١٩٨٣ أحد عشر ألفاً وسبعمائة من الأعضاء!

للمدالية وجهان

هذا هو وجه المدالية الآخر لطول العمر الذي تسعى علوم عصرنا السعي الحثيث لتبلغ به غايته...

* * *

يروي أسامة بن منقذ، ذلك الأمير الفارس الشاعر، في كتابه «الاعتبار» حكايات كثيرة عن صيد الأسود في الغابات حول شيزر، قلعة آل منقذ، وفي أدغال شواطىء نهر العاصي، ويذكر تصديه هو أحياناً بمفرده لأسد يقطع على السابلة الطريق وكيف كان يقضي على ذلك الأسد بضربة سيف أو طعنة رمح واحدة في مقتله. عاش أسامة بن منقذ حتى بلغ من عمره السادسة والتسعين. وحين بلغ الثمانين كانت الشيخوخة قد أنحلت قده وأوهنت عزمه حتى لترتجف يده بالقلم بين أصابعه حينما كان يتصدى للكتابة، فقال في ذلك:

فاعجبْ لضعف يدي عن حملها قلماً
من بعد حطم القنا في لبّة الأسد
فقل لمن يتمنّى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد!

لقد أدرك أسامة بن منقذ منذ ذلك الحين أن لطول العمر الذي تطمح إليه نفس كل إنسان، والذي يسعى في زمننا روبرت ن. بتلر وأعوانه إلى إبلاغه إلى مائة وعشرة أعوام، مساوئه... وأن لهذه المدالية في عصرنا، مثلها في عصر أسامة بن منقذ وفي كل العصور، وجهين...

١٩٨٤/١١/٧

التقدم، بأساليب التخلف

في آخر عام ١٩٨٠ أصدر الصحافي والسياسي الفرنسي جان جاك سيرفان شرايبر كتابه «التحدي العالمي» الذي لقي عند ظهوره اهتماماً منقطع النظير وترجم في آن واحد إلى خمس عشرة لغة. في هذا الكتاب عقد سرفان شرايبر فصلاً عنوانه «أنديرا تتساءل»، تحدث فيه عن مشاكل الهند وعن طموحات أنديرا غاندي، وكانت قد عادت مجدداً إلى الحكم، في إخراج بلدها من وهدة تخلفها، وعن احتمالات تحقق تلك الطموحات.

عند عودة أنديرا غاندي إلى الحكم في مطلع عام ١٩٨٠ كانت أحوال الهند على درجة من السوء كبيرة. كان فيها حقاً نخبة متميزة من العلماء والمفكرين ورجال الأعمال والصناعة، ولكن هذه النخبة ليست إلاّ ذرة في صحراء الجوع والجهل والمرض التي تمثلها القارة الهندية. متوسط الدخل للفرد الهندي سنوياً لا يتجاوز مائتي دولار، بينما يبلغ هذا الدخل المتوسط في بلاد الغرب وفي اليابان عشرة آلاف دولار. عدد الأميين في الهند أربعماية مليون، والعاطلون فيها عن العمل عشرات الملايين. الكوارث والأوبئة

والمجاعات، إلى جانب تزايد السكان المستمر، تجعل الأفق حالك السواد في عيني رئيسة الوزراء الجديدة، ابنة جواهر لال نهرو، التي تطمح إلى أن ترفع حياة الشعب الهندي إلى المستوى اللائق بكرامة الإنسان في هذا العصر.

لم يكن أحد يشك في الصفات الإيجابية لسيدة الهند الأولى، من قوة شكيمة وإخلاص لبلدها، ومن مقدرة سياسية وذكاء. وفوق ذلك فهي متواضعة لا تتردد في الإقرار بأنها قاصرة المعرفة في بعض الأمور، وبأنها مستعدة لأن تتعلم. كانت تقول عن نفسها إنها لا تدرك مثلاً الفرق بين الصناعة والتكنولوجيا وتعتبرهما شيئاً واحداً. ولما عرّفتها الدراسات الاقتصادية المعمقة بأن مستوى الدخل الفردي في الهند لن يرتفع من مائتي دولار سنوياً إلى ثلاثمائة دولار، ما دامت فعاليات الهند في مستواها الحالي، إلاّ في العام ٢٠٠٠، أدركت أن عليها أن تجد وسيلة تخرج بها بلادها من هذا القَدَر السيىء. إن الغرب لم يبلغ ما بلغه في المجال الحضاري إلاّ عن طريق التقدم التكنولوجي، لذا قررت أنديرا أن تلحق الهند بركب العصر الحاضر عن طريق التصنيع الذي هو والتكنولوجيا، في نظرها، شيء واحد.

بدا لرئيسة وزراء الهند، كما بدا لكثير من قادة العالم الثالث الذين يتوقون مخلصين إلى تحرير بلادهم من تخلفها، أن التصنيع، مجرداً، هو الوسيلة المثالية لهذا التحرير. حتى لقد تحول التصنيع لشدة الإلحاح عليه من وسيلة إلى هدف مثالي في نظر كثير من أولئك القادة. أليس هو الذي يؤمن العمل للملايين العاطلة لاحتياجه إلى ملايين السواعد، فيقضي بذلك على البطالة وشرورها الكثيرة وأخطارها؟ وهكذا بشرت أنديرا غاندي بانفتاح الهند على

عالم الصناعة وخططت لإنشاء المعامل الكثيرة. معامل للصناعات الثقيلة وللصناعات الكيماوية وحتى لصناعات الفضاء. كما رحبت برؤوس الأموال الأجنبية وبالشركات المتعددة الجنسيات من كل لون، ما دامت تكفل للهند تحقيق خطتها التصنيعية الجبارة.

كل هذا أورده جان جاك سرفان شرايبر في كتابه الذي صدر، كما قلت، في آخر العام ١٩٨٠. وفي العام ١٩٨٤، أعني بعد أربعة أعوام من صدور ذلك الكتاب، وقبل أن تنضج في الهند ثمرات التصنيع المرجوة، سقطت أنديرا غاندي صريعة برصاص حراسها السيخ. لم يكن للتصنيع يدٌ في مصرعها بلا شك. إلاّ أن يده ظاهرة في ما حدث في آخر هذه السنوات الأربع حين جنت الهند ثمرة بالغة المرارة لما خططت له رئيسة وزرائها. هذه الثمرة هي كارثة بهوبال التي تسببت بها واحدة من كبريات الشركات الصناعية المتعددة الجنسيات، شركة يونيون كاربايد الأميركية الأصل. حصيلة هذه الكارثة ألفان وخمسمائة قتيل في الدفعة الأولى من الضحايا، وعشرات الآلاف من العُمي والمشوهين، ومدينة سكانها ثمانمائة ألف نسمة يخيم فوقها شبح الموت والدمار الذي تسرب من فتحات صهاريج غاز ايزوسيانات الميثيل في تلك المدينة المنكوبة.

* * *

هل تعتبر أنديرا غاندي مسؤولة عن الخلل في خطة التصنيع التي وضعتها للهند، وكانت هذه الكارثة من عقابيلها؟

ليس منصفاً من يفكر بأن يحمّل رئيسة وزراء الهند الراحلة أية مسؤولية فيما حدث في بهوبال. ولكن حدوثه في الهند، وهي واحدة من أبرز بلدان العالم الثالث، يدعو كل ذي فكر إلى التأمل

في مسبباته، بغية استنتاج الدرس المفيد في التوقي من أمثال هذه الفاجعة في هذا العالم الثالث نفسه.

نحن نعرف أن كارثة بهوبال ليست الوحيدة بين كوارث التصنيع في هذا العصر، لا في العالم الثالث ولا في غيره. فقبل سنوات قليلة فجعت مدينة مكسيكو بكارثة مماثلة كان ضحاياها مئات من سكان تلك المدينة هلكوا تسمماً بالغاز المميت. وفي خلال ست سنوات، بين العام ١٩٧٢ و١٩٧٩، سجلت المراكز الدولية المتخصصة عدة حوادث خطيرة من هذا القبيل، لعل أكثرها إثارة للذعر العالمي كان حادث تسرب المواد المشعة من المفاعل النووي في مركز ثري مايل آيلاند في ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأميركية العام ١٩٧٩. إلاّ أن الفارق بين ما يجري في البلدان المتقدمة وما يجري في البلدان النامية، هو أن الضحايا البشرية في كوارث التصنيع في الغرب لا تتجاوز الآحاد، بينما هي بالمئات وبالألوف في العالم الثالث. هذا عدا ما يتكبده هذا العالم الأخير في كوارثه من ضربات فاجعة لاقتصاده ولمسيرة التطور الاجتماعي فيـه. فلماذا هذا الفارق المأسوي بين ما يجري هنا وما يجري هناك؟

نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال بجواب بسيط، نسكت به ضمائرنا أو نخدرها به، بأن نقول إنها جريمة الغرب، الرأسمالي الاستعماري، الناهب لثروات العالم الثالث والمتآمر على أرواح شعوبها. إنه جواب يقول جزءاً من الحقيقة ويتناسى كثيراً منها، وبه ندس رؤوسنا في الرمال شأن النعامة أمام الخطر المداهم. وأنا أعلّق على جواب مثل هذا بإيراد إحصائية آسف على أن مصدرها ليس بين يديّ الآن لأذكر أرقامها بدقة. فقد ورد في إحصائيات العام

١٩٨٣ عن حوادث المرور في العالم أن ضحايا الطرق العامة في إنكلترا، التي تجري فيها على تلك الطرق ثلاثة عشر مليون سيارة، بلغ عددهم خمسة آلاف قتيل. وأن ضحايا تلك الطرق في واحد من البلدان العربية لا تتجاوز سياراته المليونين في العدد بلغوا في الفترة نفسها سبعة آلاف قتيل! ولنا أن نتساءل هنا عما إذا كان هذا الفارق من صنع الغرب الرأسمالي الاستعماري أم أن علينا نصيباً من الوزر فيه؟

عندما يقر السياسيون وواضعو الخطط الاقتصادية في عالمنا المتخلف بأن جزءاً، صغيراً كان أو كبيراً، من مسببات كوارث التصنيع يقع على عاتق أبناء هذا العالم نفسه، فإنهم سيدركون أن عليهم أن يحسبوا عند التخطيط حساب نقاط الضعف في مواطنيهم. ما من شك في أن شركة يونيون كارբايد الأميركية، بجشعها ولا مبالاتها بقيمة الأرواح البشرية للعاملين في مصانعها في الهند، مسؤولة أكبر المسؤولية عما جرى في بهوبال. إلاّ أنه ما من شك أيضاً في أن العمال الذين كانوا ينظفون صهاريج إيزوسيانات الميثيل، وهو الغاز المميت، دون أن تكون لهم الدراية الكافية بذلك، كانوا هنوداً. وكانوا هنوداً أيضاً المهندسون الذين عليهم الإشراف على التنظيف ثم تغيبوا عنه تهاوناً وانعدام إحساس بالمسؤولية. وكان على أنديرا غاندي، ومثلها كل من يخطط لتصنيع يحمل خطراً من نوعية ما يحمله غاز إيزوسيانات الميثيل، أن يعرف في أي الأيدي يضع مثل هذا العامل الفتاك، وبأية احتياطات يجب أن يتم تصنيعه، وأية صفات نفسية وخلقية يجب أن تتوفر في العاملين في تصنيع عصري معقد كي يمنح البلاد الحياة والرفاه لا أن يحمل إليها الموت والدمار.

* * *

كل هذا نتحدث عنه وعن مسؤوليات القادة في العالم الثالث، الذين يريدون خير بلادهم وهم مخلصون في نواياهم ونزيهون في تصرفاتهم. فماذا لو أننا تحدثنا عمّن تفتقد فيهم النزاهة ويفتقد الإخلاص؟

من أخبار الأسابيع الأخيرة في أفريقيا أن الشرطة في مالي كانت في انتظار السيد محمد ديوارا عند هبوطه من طائرته، فألقت القبض عليه ونقلته سجيناً إلى إحدى الثكنات العسكرية. ديوارا هذا كان وزيراً سابقاً للتخطيط في جمهورية ساحل العاج ثم أصبح أحد كبار المسؤولين في صندوق المجموعة الاقتصادية الأفريقية الغربية. والتهمة التي اعتقل من أجلها وزير التخطيط السابق هذا هي اشتراكه مع طغمة من كبار المسؤولين أمثاله في اختلاس ما يعادل ٣٢٠ مليون فرنك فرنسي من صندوق المجموعة، وهو صندوق معد لتنمية عدد من دول أفريقيا الناطقة بالفرنسية. هذا المسؤول الكبير نموذج للذين توكل إليهم مقدرات بلاد متخلفة فيسيرون بها إلى الوراء مراحل عديدة باسم التخطيط لتقدمها. ومثله كثيرون من المصممين لمشاريع وهمية لا تُنَفّذ، أو من المقيمين لمصانع تغلق أبوابها فور إكمالها، بعد أن تكون أفرغت في إقامتها جيوب الشعب. ذلك لأن تلك المشاريع لم تصمم وتلك المصانع لم تقم إلاّ لإملاء جيوب ذوي النفوذ من المخصصات المرصدة لها. أما الشعب فليس له منها إلاّ الانبهار بالواجهات البرّاقة أو الانخداع بالشعارات الطنانة.

حدث قبل الحرب العالمية الأولى أن زار أمبراطور الصين مدينة نيويورك فبهرته أنوارها المتلألئة التي تحيل الليل نهاراً. وعند عودته إلى بلاده استدعى رئيس وزرائه وأمره بأن يتولى إنارة بكين

العاصمة كما هي نيويورك منارة. قال رئيس الوزراء إن ذلك يكلف خزينة الدولة مليون تايل، وهي عملة الصين في ذلك الحين، فأذن له الأمبراطور بصرف ذلك المبلغ، في سبيل أن يغرق النور بكين كما يغرق نيويورك. دعا رئيس الوزراء آنذاك وزير الداخلية وكلفه بأن ينير بكين حتى تصبح مثل نيويورك وأعطاه لذلك نصف مليون تايل. فما كان من وزير الداخلية إلاّ أن استقدم محافظ بكين وسلّمه ربع مليون تايل كي ينفقها على إضاءة بكين حتى تتوهج ليلاً توهج نيويورك. وظلت مهمة الإنارة تنتقل من مسؤول إلى من هو أدنى منه، وظل المبلغ المخصص لها يتضاءل شيئاً وراء شيء، حتى انتهى أمرها إلى مخاتير حارات العاصمة الصينية الذين لم تصل إلى أيديهم إلاّ تايلات عددها أقل من عدد أصابع اليدين. وهنا قام مخاتير الحارات بواجبهم على ما يرام، فأطلقوا المنادين ينادون في أزقة الأحياء بأن على كل مواطن أن يعلق على باب منزله مصباحاً ورقياً يضاء بالزيت، وأن يشعله حالما تغيب شمس النهار، كي تصبح بكين مضيئة كما هي نيويورك... وتقول الحكاية إن الأمبراطور، عندما صعد إلى سطح قصره في ذات مساء، فرأى عشرات الآلاف من المصابيح المشتعلة تنير أزقة بكين امتلأ صدره حبوراً واطمأن إلى أن أوامره قد نفذت حرفياً، وإلى أن عاصمة بلاده أمست تسبح في النور مثل أكبر مدن الولايات المتحدة الأميركية...

إنها حكاية مضحكة قد لا تتناسب والحديث عن مأساة بهوبال التي بدأت بها هذه السطور. إلاّ أنها، على كل حال، تصلح مثالاً بريئاً للتقدم إذا اتبعت في الوصول إليه الأساليب المتخلفة. هذا في زمن كان التقدم فيه بتلك الأساليب قليل الخطر. فهو لم يكن

يعرض آلاف الأرواح البشرية للهلاك ولا يهدد مصائر بلاد برمتها أو وجودها بالفناء، كما أصبح يعرضها التقدم بأساليب التخلف في آخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين.

١٩٨٤/١٢/٣١

حلم في رسالة

يروي سيغموند فرويد في واحد من مؤلفاته حكاية فتاة شابة جاءت إليه شاكية من حلم تكررت رؤيتها له في منامها، وأزعجها مضمونه. كانت ترى في الحلم أباها مسجّى في الفراش، ميتاً. فإذا استيقظت أحسّت بانزعاج شديد وتألمت، لا حزناً مما رأته وما تدرك أنه أضغاث أحلام، بل لشعورها في حلمها بأن السرور كان يملأ قلبها برؤية أبيها فاقد الحياة في نعشه. إحساسها بالذنب كان كبيراً كلما استيقظت من هذا الحلم المتكرر. إنها تحب أباها محبة بالغة، ولا تفهم كيف تُسرُّ بموت هذا الأب، ولو كان سروراً في المنام. ولذا طلبت من فرويد أن يعينها من التخلص من انزعاجها وتألمها بالبحث عن دوافع سرورها البشع ذاك.

والحلم عند فرويد هو بالدرجة الأولى «تحقيق رغبة». وقد كان تفسيره لحلم هذه الفتاة أحد شواهده على صدق ذلك التعريف للحلم. لقد استجوبها داعياً إياها إلى استعادة ذكرياتها القريبة والبعيدة، محللاً نفسيتها فحصل منها على اعتراف توضحت به مشكلتها. كانت الفتاة تحب صديقاً لأبيها حباً جماً دون أن يتاح

لها أن تشعر ذلك الصديق بعاطفتها فيبادلها حباً بحب. وفي ذات يوم مرض أبوها فراح الصديق يعوده، وكان سرورها برؤيته في دار أسرتها كبيراً. وعندما أبل الأب من مرضه انقطع الصديق عن التردد على داره مما جعل العاشقة تفتقد زياراته في منزل أهلها. كانت رغبتها في ذلك الحبيب كبيرة، ولم يكن من سبيل لتحقيق تلك الرغبة في غير الحلم. وأوحى لها لا شعورها بأنه ما دام مرض الأب قد أتاح لها رؤية من تهواه، فلا شك في أن موت الأب نفسه سيتيح لها ما هو أكثر من مجرد الرؤية... أعني الوصال! وهكذا مات الأب في حلم الفتاة، فسرت بموته الجدير به أن يحقق رغبتها العميقة في وصال حبيبها...

على أن هذا الشاهد الذي قدمه فرويد برهاناً على صدق نظريته، وشواهد كثيرة مثله، لا يكفي ليجعلنا نسلم تسليماً مطلقاً بأن الحلم هو دوماً تحقيق رغبة، وتحقيق رغبة جنسية على الأخص، كما يؤكد على ذلك فرويد. ومع ذلك، فإن أحداً لا ينكر على هذا العالم ما أحدثه من انقلاب في تفسير الأحلام. ربما سبقه كثيرون تحدثوا فيما تحدث هو فيه، إلاّ أنه هو الذي جعل من التفسير علماً محدد الأصول. وبينما كانت الأحلام عند قدماء المفسرين، بدءاً من ارتيميدوروس الافسيسي ومروراً بما نسب إلى ابن سيرين وجعفر الصادق، تنبؤاً عما سيحدث في المستقبل أو إخباراً بما هو جارٍ في الحاضر، أعاد فرويد إلى الحلم حجمه الأصلي بأن جعله مجرد رغبة دفينة تنتمي بكافة عناصرها إلى الماضي. الماضي القريب أو البعيد، وأحياناً إلى ماضي الإنسان قبل أن يولد، كما أشار إلى ذلك في مؤلفه «مختصر في التحليل النفسي».

وإذا تجاوزنا ما نؤمن به نحن من القيمة المستقبلية لرؤيا الأنبياء

والصالحين، وأحياناً لرؤيا أناس عاديين وقعنا على تجاربهم فيما قرأناه أو سمعناه، فإننا نعرف أن الحلم ليس دوماً مجرد تحقيق رغبة. هناك أحلام تتراءى للمرء في منامه بدوافع مختلفة، خارجة عنه أو داخلية فيه. ويروي فرويد نفسه عن أحدهم أنه حلم ذات مرة بنفر من الرجال هجموا عليه وطرحوه أرضاً وأوثقوه ثم جعلوا يدقّون وتداً غليظاً بين إبهام قدمه والاصبع الذي يليه، واستيقظ من ذلك الحلم فرأى قشة عالقة بين اصبعيه هذين... إحساس ذلك الحالم المرهف في منامه ضخم القشة وحولها إلى وتد يدق في قدمه.

تلك رؤيا كان دافعها عامل خارجي. ومن الرؤى التي تثيرها المنبهات الخارجية حلم مشهور لباحث فرنسي عاش في القرن التاسع عشر واستشهد به فرويد كثيراً، هو ألفريد موري. عرف ذلك الحلم بين الباحثين في هذا المجال باسم حلم المقصلة، وأصبحت له قيمته في الدلالة على أن ليس من علاقة بين الزمن الذي تدور فيه أحداث حلم ما وبين الزمن الحقيقي كما يقاس في الواقع. ويروي موري الحلم الذي ذكرناه في كتاب له صدر في العام ١٨٦٠ بما يلي:

«أحلم بأني أعيش في فترة الإرهاب في أيام الثورة الفرنسية الكبرى وبأني أحضر مجازر تلك الفترة... أمثل أمام محكمة الثورة وأرى فيها كبار زعمائها: روبيسبيير ومارا والنائب العام المخيف فوكيه ـ تنفيل... أتناقش وإياهم... يحاكمونني ويحكمون عليّ بالإعدام. أقاد في عربة المحكومين مع جمع كبير إلى ساحة الثورة حيث أصعد على منصة التنفيذ... يربطني الجلاد إلى الخشبة ويحرك ذراع المقصلة فتسقط سكينها على عنقي... أحس برأسي ينفصل عن جذعي! وهنا أستيقظ والذعر يملأ نفسي فإذا بي أجد أن قضيباً معدنياً من مسند سريري قد

سقط على عنقي، فوق فقرات رقبتي، مستقراً عليها كما تستقر سكين المقصلة على عنق المحكوم عليه. كان سقوط القضيب قبل لحظة من استيقاظي، بهذا أخبرتني أمي التي كانت في الغرفة ورأت وقوعه عليَّ واستفاقتي السريعة».

ويعلق ألفريد موري على حلمه هذا بما يدل عليه من أن الإحساس الخارجي المتمثل بسقوط قضيب، لم يستغرق غير لحظة، على فقرات عنقه، هو الذي أطلق في تصوره حلماً احتوى أحداثاً متتابعة لا تتم في اليقظة إلاّ في زمن طويل طويل.

* * *

سقت ما سبق من الكلام لأتحدث بعده عن تفسير حلم في رسالة تلقيتها منذ نحو من ثماني سنين. يحدث أن أتلو هذه الرسالة على أصحابي في بعض المناسبات فيعجبون منها أو يتندرون بما ينسب كاتبها إليَّ من صفات مميزة هو شديد الإيمان باتصافي بها، بينما لا يجد أصحابي ولا أجد أنا في نفسي شيئاً منها. وقبل أن أنقل للقارىء نص تلك الرسالة لا بد من التحدث عن الظروف التي دعت كاتبها إلى توجيهها إليَّ.

فقد حدث قبل ثمانية أعوام، وفي شهر آذار/مارس سنة ١٩٧٧ على التحقيق، أن سجل لي التلفزيون العربي السوري ثلاث حلقات من الحوار أجبت فيها على ما طرح عليَّ من أسئلة حول شؤون شخصية وعامة مختلفة. أذيعت الحلقة الأولى في مساء الرابع عشر من ذلك الشهر، آذار/ مارس، وأذيعت الحلقتان الأخريان بعد الأولى بأسابيع. وقد لقيت في حينها كثيراً من المشاهدين لي على الشاشة الصغيرة ممن أظهروا اهتمامهم بما قلته في حواري أو إعجابهم به، صادقين فيما أظهروه أو مجاملين لي.

كما إني تلقيت لتلك المناسبة عدداً من الرسائل كان أغربها وأدعاها إلى الاهتمام والتعليق هذه الرسالة التي أنقلها فيما يلي، بنصها وبأغلاطها الإنشائية والإملائية، حرصاً على نكهتها العفوية.

إن إرادة الله فوق كل شيء

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الدكتور عبد السلام العجيلي المحترم

من بعد السلام والتحية والإكرام. سوف أقص عليك قصة تعارفي الروحي معك دفعتني بالكتابة إليك وكم كنت مشتاق لأرى صورتك كما رأيتها في التلفزيون في ليلة ١٤/ ١٩٧٧/٣ صورة إنسان أديب رازن وطبيب مهذب فشتان بين الخيال والحقيقة حيث كنت رأيتك في ليلة حالكة شاب وسيم طويل القامة ذو شارب صغير ولا شك ألك مثلي وقد تجاوزت الخمسين.

أنا صاحب بقالية (بسيطة) وقد صدف في منتصف ليلة ١٩٧٧/٣/١٤ على ما أذكر رأيت حلماً أنك أنت تطرق باب داري ففتحته لك وكنت بلباسك العادي وكان معك رجل آخر يرتدي اللباس الأبيض فقلت لي بالحرف الواحد (أنا الدكتور عبد السلام العجيلي وهذا هو معاوني الممرض لقد جئنا من الرقة لزيارتك فقط) فقلت لك تفضل بالدخول فأهلاً وسهلاً بصديقي الطبيب ورفيقه ولما دخلتما معي عتبة باب داري استيقظت من الحلم ورأيت نفسي مندفعاً بلا شعور تاركاً فراشي متجهاً نحو باب الدار لاستقبالك ففتحته فعلاً ولم أر أحداً ولكنني شعرت بأن شخصان أو أكثر ولوا مسرعين نحو الطريق الغربي وكانت ليلة ممطرة وعاصفة لفت نظري بأن ألقي بنظرة خاطفة على الغلق الحديدي لدكاني الملاصق لداري وسرعان ما أخذتني الدهشة لقد داهم اللصوص دكاني وأفلحوا في كسر أحد الأقفال واستعصى عليهم القفل الثاني فاستعجبت في أمري وأخذتني رعشة نفسية ثم اعتراني خشوع إلهي وتشرد فكري وسبحت في عالم روحاني جميل فقلت عندها يا ربي ما أعظمك لما جعلت صديقي الدكتور يتحمل مشاقة السفر من الرقة إلى دمشق ليخبرني بأمر هذه السرقة برهة وقوعها يا إلهي ما أعظمك لما لم ترسل لي غيره من جواري أو أحد من داخل هذه المدينة دمشق التي تعج بالأطباء والمصلحين من أهل الحسب والنسب ثم بقيت حيث أنا أمام باب دكاني برهة من الزمن تحت وابل من رزاز المطر والريح تلفحني وأنا أسبّح الله تعالى عن هذا التعارف الروحي مع هذا الصديق الذي أرسله الله لي من عالم الغيب دون غيره من الناس أليس هذا عجيب إلهام إلهي ينتحل اسم هذا الشخص ليدفع عني الشر والأذية. أرجو منك المعذرة. فأنا لا أعرفك شخصياً ولا أنت تعرفني وبين مدينتي دمشق والرقة مدينتك شوطاً واسعاً ومئات من الكيلومترات ولم أر وجهك طيلة حياتي حتى ولم أقرألك شيئاً من نصوص الأدب أو القصص.

وفي ليلة المقابلة في التلفزيون التي أجريت معك في المساء التالي ضحكت من نفسي وقلت لها إن هذا الإنسان الطيب قد أسدى إليّ جميلاً دون أن يعلم فواجبي أن أشكره شكراً جزيلاً لعله يضحك مني أن يستهزىء بي فذلك شأنه أو يستغرب من قصتي هذه فيجد له تعليلاً أو تفسيراً أما أنا فإنني أؤمن بأن روحه طاهرة ونقيه أرسلها الله إليّ في وقت الضيق.

إنني أرجو منك المعذرة فلو حدثني أحد الناس بهذه القصة أو بواحدة مشابهة لكذبته وضربته بالجنون وانفصام الشخصية أو قلت عنه إنه معتوه أما أنا حدثتك بها والله شاهد على ما أقول على ما حدث معي دون زيادة أو نقصان.

وفي الختام إقبل مني فائق الشكر والاحترام وأدامك الله عوناً لأمثالي الفقراء سواء في اليقظة وأنت في عيادتك تداوي المرضى أو في الحلم تآزر عباد الله ودمتم

١٩٧٧/٣/١٥

الداعي لكم صديقك

أبو محمد خير

ملاحظة:

إذا حضرت لطرفكم سوف أزوركم إن شاء الله تعالى صديقاً لا مريضاً

هذه هي رسالة مكاتبي الدمشقي الذي اسمه أبو محمد خير، وهذا هو حلمه الذي ساقه إلى أن يعتقد في شخصي من الولاية والصلاح ما أفصح به في رسالته وما يجعل أصحابي يتندرون به عليّ حينما أتلو الرسالة عليهم. أما أنا فإني أجاريهم في تندرهم ولكني لا أقف عند ذلك، بل أروح مفسراً لهم الحلم التفسير المعقول الذي أراه له. ومفتاح ذلك التفسير المعقول هو المفتاح نفسه الذي فسر به ألفريد موري السالف الذكر رؤياه عن المقصلة في العام ١٨٦٠، والمبني على أن لا علاقة أو تناسب بين زمن الحلم والزمن الحقيقي في اليقظة.

ذاك أن كل الحلم الطويل الذي رآه أبو محمد خير كان منطلقاً من سماعه في لحظة معينة صوت عبث اللصوص بقفل باب مخزنه

القريب من مكان نومه، في محاولتهم سرقة ذلك المخزن. لقد أثارت قرقعة القفل في مراكز خلق الرؤيا في الدماغ عنده هذا الحادث الذي تراءى له في الحلم، حادث وفودي عليه وتحيتي له وتعريفي إياه بنفسي وبمرضي. خلق كل هذا في اللحظة الخاطفة التي انتبه فيها لأصوات محاولة اللصوص كسر القفل. تماماً مثل خلق سقوط قضيب مسند السرير على رقبة ألفريد موري حلمه المستمد من معلوماته عن أحداث الثورة الفرنسية، وذلك في اللحظة الخاطفة التي انقضت بين سقوط القضيب واستفاقته الفورية.

بقي الجواب على ما تساءل له أبو محمد خير نفسه في رسالته حين قال لماذا لم يبعث الله إليه غيري أحداً يوقظه من نومه وينقذ مخزنه من السرقة. الجواب سهل. صحيح أن الرجل لا يعرفني شخصياً، كما صرّح في رسالته، ولكني لا أستبعد أن يكون اسمي قد تردد أمامه في مناسبات عديدة. ففي الرسالة ما يدل على أنه يعرف أشياء غير قليلة عني سمعها من أناس يحسنون الظن بشخصي. فلما خلق ذلك الحلم في تصوره كان لا بد أن يكون الموقظ له إنسان ذو شهرة بإعانته للآخرين في مجالات عديدة. وكان أن وقع اختيار لا شعوره، عشوائياً أو تحت تأثير عوامل لا نستطيع تحديدها بدقة، على كاتب هذه السطور في حلمه المنقذ ذاك...

* * *

لقد مضت ثماني سنوات على وصول هذه الرسالة إليّ ولم أحظ بعد بزيارة السيد أبو محمد خير الموعودة لي. لعل الظروف لم تتح له القيام بها. ولعله لو زارني لخاب أمله حين أفسر له حلمه بهذا التفسير الذي شرحته وحين أفجعه بمشاعره الروحانية التي وصفها

في رسالته. وقد يقع هذا المقال بين يديه فيقرأه ويتعرض لخيبة الأمل وللفجيعة بتصوراته التي لا أتفق معه بشأنها. ولكنه، وإن لم تكن بيننا معرفة سابقة، يصفني بأني صديقه. وجدير به على هذا أن يعذرني حين يتذكر الحكمة القديمة التي تصلح في أمر تفسير الأحلام مثل صلاحها في سائر الأمور، وهي أن صديقك من صدقك لا من صدّقك...

١٩٨٥/٥/٣

مساكين أهل العشق...

بين محفوظاتي بيت شعر قديم كنت قرأته في أيام الصبا في ألف ليلة وليلة، هو التالي:

مساكين أهل العشق، ما كنت أشتري

جميع قلوب العاشقين بدرهمِ

تلوتُ بيت الشعر هذا على صاحبي يوسف بك، وأسميه هكذا تعمية مني على اسمه الحقيقي، في آخر لقاء لي به في مدينته التي زرتها منذ مدة قريبة، فبدا عليه الامتعاض كأني أسأت به إليه. كان قد فتح لي صدره وقصّ عليَّ من أمره ما ساقني إلى ترديد هذا البيت عليه. إلاّ أنه ما لبث أن ابتسم ابتسامة خفيفة وقال، بعد أن فكر قليلاً: صدقت، أو صدق قائل هذا الشعر... الحق معه، والحق معك...

ويوسف هذا صاحب قديم لي، تعود معرفتي به إلى أول شبابنا حين جمعتنا مقاعد الدراسة الثانوية وبعض فترة دراستنا العليا. عدت أنا إلى بلدتي الصغيرة بينما ظل هو في مدينته يتدرج في طريقه الذي اختاره لحياته إلى أن أصبح ذا اسم شهير ومكانة كبيرة. كان له من

هيبة الناس له ما يغنيه عن تخوفهم منه، وما كان يسمع ممن حوله إلاّ عبارات التقدير ولا يرى ممن يعاملهم غير التجلة والاحترام. ولا شك في أن تعوده على هذا هو ما خلق في نفسه النقمة التي ضاق لها صدره وكست وجهه ملامح انقباض واضحة جعلتني، عندما التقيت به في هذه المرة، أسأله بإلحاح عما يشكو منه. تردد أول الأمر في الإفصاح عما به مدعياً أن كل أحواله على ما يرام. غير أنه، بعد أن تمادينا في أحاديثنا إلى ما عاد بنا إلى ذكريات الشباب وحكاياتنا الحميمة القديمة، خرج عن تحفظه. ورأيته يقاطعني فيما كنت أتحدث به ويقول:

ـ يا فلان... أتدري أن صاحبك، الذي هو أنا، عاشق في هذه الأيام؟

تطلعت إليه في شبه دهشة وقلت:

ـ اسمعني الله عنك الأخبار الطيبة يا يوسف بك. في هذا العمر، وهذه المكانة؟!

ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكاً وأنا أضيف:

ـ لا أصدّق. ليس لأن العشق محرم عليك، ولكن لو كان الأمر كما تدّعي لفاض وجهك بشاشة على الأقل، ولما لقيتني بهذا التجهم... إلاّ إذا كنت عاشقاً مهجوراً أو محبّاً غير محبوب.

فهز صاحبي رأسه وقال: بل إني من حبي في سعادة غامرة. أما التجهم الذي تراني فيه فسأعلمك بسببه. إنه يعاودني كلما عادت إلى بالي واقعة بسيطة جرت لي بسبب هذا الحب منذ أيام قليلة. واقعة بسيطة، ومرت فوق ذلك بسلام، ولكنني لا أملك التخلص من النقمة التي تثيرها ذكراها في نفسي. هل تريد أن تستمع إليَّ؟

قلت: كلي آذان صاغية. ماذا جرى لك منذ أيام قليلة؟

* * *

راح يوسف بك يروي لي أسباب حنقه الذي نغّص سعادته بحالة الحب التي يعيشها قال:

ـ نعم، في هذا العمر وهذه المكانة! ألست أنت الذي طالما رددت عليَّ أن الحب لا يأبه بالأعمار، وأن غوته أحب وهو في الخامسة والسبعين فتاة في دون العشرين من عمرها؟ إحسبني يا أخي مثل غوته. ما أقصه عليك لا يتعلق بحبي ذاته، بل بما تعرضت إليه وأنا في طريقي إلى هذا الحب. منذ ثلاثة أيام، ثلاثة أيام فقط، عدت من سفر بعيد، من إحدى رحلاتي التي يفرضها المركز الذي احتله عليَّ. وجه الحبيبة الجميل لم يفارقني في حلِّي وترحالي. كنت أرى تقاطيعه الدقيقة ونظرة عيني صاحبته، التي يتراوح إيحاؤها بين هدوء البحيرة الساجية ونفور القطة الشرسة، أرى هذه وتلك في وجوه الفاتنات اللواتي كن يتسابقن إلى تحيتي في حفلات الاستقبال التي تقام لي، وبين سطور الوثائق التي كنت أتلوها لنفسي قبل أن أضع توقيعي المبجّل في أدناها. وحين رجعت إلى البلد، وكان وصولي إليه مساء، منذ ثلاثة أيام كما قلت لك، كان أول شيء فعلته أني هتفت للحبيبة أعلمها بعودتي. ردت عليَّ بقولها إنها متلهفة لتراني، ولتراني في هذه الساعة! وأنا، هل كنت أقل لهفة؟ وإنما كنت محاطاً بمن كان عليهم أن يحيطوا بي بعد هذه الغيبة الطويلة، وليس سهلاً أن أتخلص منهم لأزورها هي في دارها. لم تقبل لي عذراً في أن أؤجل لقاءنا إلى الغد، وكانت كلمتها الأخيرة: لا تقل إنك لن تخلص من واجباتك الملحة في

الفجر... سترى نافذة غرفتي المطلة على الشارع مضاءة إذا مررت تحتها عند الفجر... حتى تلك الساعة سأكون في انتظارك!

ماذا يكون، يا عزيزي، ردّك على هذه الكلمات إذا كنت في مثل حالي؟ على كل حال لم تستبد بي واجباتي إلى الفجر ليلتها، وإنما تأخرت بي حتى قاربت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. خرجت من منزلي في تلك الساعة واستوقفت سيارة أجرة في الطريق وقصدت الحي البعيد الذي كانت، هي، تنتظرني فيه خلف نافذتها المضاءة. انحدرت من السيارة على مبعدة من العمارة التي يقع فيها منزلها وأكملتُ طريقي مشياً في الشارع المؤدي إلى ذلك المنزل.

كان الحي غارقاً في الهدوء، والشارع بعماراته المطفأة أنوار النوافذ والشرفات يلتف في ظلام سابغ، وكنت أنا أمشي على الرصيف الأيمن الذي تقع عليه العمارة التي أقصدها والذي تظلله أشجار كثيفة. انحدرت من ذلك الرصيف واتجهت نحو وسط الجادة رافعاً رأسي لأتبين أنوار النافذة المضاءة من أجلي. وفي تلك اللحظة، حين خطوت الخطوات الأولى على إسفلت الشارع، حدث ما لم أتنبه له، وما لم أكن أتوقعه، والذي أثّر فيَّ إلى الدرجة التي رحت تتساءل معها عما أشكو منه.

ما الذي حدث؟ خرق سمعي فجأة صوت بوق صاعق آتٍ من ورائي تلاه صرير حاد، كاد أن يمزق طبلة أذني، لفرامل سيارة وقفت من ظهري على قيد أصبع. نجوت من الدهس في تلك اللحظة نجاة لا تصدق. هل تظنني ارتعت لما حدث؟ صدقني أن لا. كنت من أحاسيسي آنذاك في استغراق يبعد عني كل خوف، غير تارك في نفسي مكاناً لغير الغبطة التي ملأتها وأنا أتميز النافذة

المنيرة في ظلمة الحي الغافي. وكنت مستعداً إلى أن أتابع سيري دون أن ألتفت إلى الوراء لأتبين لون العربة التي كانت ستقضي عليَّ أو نوعية سائقها الذي كاد أن يحمل وزر دمي في عنقه. إلاّ أن ذلك السائق، ورجل آخر كان يرافقه، لم يتركاني في حالي. فقد نزلا من مقعديهما وتوجها إليَّ بصراخ حاد، وبكلمات عنيفة، بل بكلمات تجاوزت العنف إلى البذاءة. ما تصورت يوماً أن إنساناً يجرؤ على أن يتلفظ بمثل تلك الكلمات في حضوري، فكيف أن يوجهها إليَّ، إليَّ بالذات! تلك الكلمات بحدتها وبفحش معانيها هي، وليس خطر الموت الذي نجوت منه قبل لحظة، هي ما أخرجني من سديم الغبطة التي كانت تسبح فيها مشاعري لتنبهني إلى ما أنا فيه في الواقع.

كيف تراني يا صاحبي؟ أقصد كيف تراني من الناحية البدنية؟ أؤكد لك أن البطش بذينك الرجلين لم يكن أمراً عسيراً عليَّ. لم يكونا من ضخامة الجسم بما يخيف مثلي، وكان الحنق من النعوت الفاجرة التي ألصقاها بي جديراً بأن يهبني قوة شمشون في تلك الساعة. بل إني رفعت يدي... رفعتها ثم لم ألبث أن أنزلتها، وأطرقت برأسي. لم أخبرك بأني كنت أحمل في يدي هديتي إلى التي أضاءت نافذتها إلى الفجر في انتظاري. هدية هي آخر ما ابتكرته مصانع العطور في البلد الذي كنت في زيارته، في تغليف بالغ الأناقة. في تلك اللحظة نسيت صراخ الرجلين وشتائمهما، وداخلني الخوف لأول مرة مما كاد أن يحلّ بي. ماذا لو أن هذه السيارة لم تقف على بعد اصبع من ظهري فاستمرت وسارت على جسدي؟ ماذا سيقول الناس، أولئك الذين يعرفونني ويسمعون بي والذين يحلفون باسمي، حين تتحدث الألسنة بما وقع لي، بعد

منتصف الليل وفي جادة بعيدة، وحيداً، وأصابعي مطبقة على زجاجة عطر لم تعرفها بعد غانية في هذه المدينة؟ وكل ذلك تحت شباك مضاء لفاتنة ليست نكرة في الاسم والمنزلة؟!

نعم، أنزلت يدي وأطرقت برأسي، ولم أرد على الرجلين بكلمة، وإنما انسحبت من أمامهما أجرّ قدميّ في سيري إلى موعدي. غطى خوفي مما كان ممكناً أن يحدث، على حنقي مما كالاه لي من شتائم في تلك الدقائق. في تلك الدقائق فقط. أما بعدها فقد راحت تتردد في ذهني كلماتهما ويعود إلى خاطري موقفي الجبان الذي وقفته أمامهما وأنا أتلقى شتائمهما المقذعة منهالة عليّ كأنها الصفعات. لماذا جبنت هكذا؟ أهو خوف أن أخوض شجاراً يحرمني موعد تلك الليلة، أم خوف أن يجتمع علينا الناس فأُعرف من أنا وما الذي جاء بي إلى هذا المكان في تلك الساعة؟ ربما كان هذا وربما كان ذاك، وربما كان الأمران معاً. إلاّ أن الذي لا شك فيه أني ما وقفت موقف الغضاضة والهوان، ذاك إلاّ لأني كنت عاشقاً. وحين تراني في لحظة ما ممتعضاً متجهم الوجه، تأكد أني في تلك اللحظة أراجع نفسي وألومها على أنها ورطتني في العشق إلى أن أذلني هذا الذل...

* * *

وتوقف يوسف بك عن الكلام فابتسمت له كالمواسي. وكالمواسي أيضاً رددت عليه بيت الشعر الذي افتتحت به مقالي، عن مسكنة أهل العشق، وأنا أحدث نفسي بأن صاحبي يعمل من الحبة قبة. أو لعله العشق هو الذي وتّر مشاعره، وضخّم ردود الفعل فيها على ما جرى له إلى هذه الدرجة. وتابعت مواساتي له بأن قلت له:

ـ لا بد دون الشهد من إبر النحل، يا عزيزي، ولا بد من أن تتطعم سعادتك بالحب ببعض المنغصات. أنت مع هذا حسن الحظ بأن نجوت بجلدك، وبسمعتك، هكذا. إنك تذكرني بعاشق مثلك كان مقدراً له حظ أبأس من حظك بكثير. لعلك تتعزى عما جرى لك إذا أخبرتك بما جرى له.

قال: من هذا الذي تعنيه؟

قلت: إنه مريض جاءني في ذات يوم حاملاً مشكلته. وعسى أن لا يأخذ زملائي الأطباء عليَّ أني بحت بسر المهنة لأني رويت لك تلك المشكلة.

دخل هذا الرجل عليَّ في غرفة المعاينة مع زمرة من المرضى. لعلك سمعت بطريقتي في العمل في عيادتي وكيف تضطرني كثرة المترددين عليها إلى أن استقبلهم جماعات. كلما طلبت من ذلك الرجل أن يتقدم لأفحصه، لأن دوره حان، كان يستمهلني طالباً أن يظل إلى آخر الحضور. كان امرءاً بدوياً، في آخر الشباب وأول الكهولة، مورد الوجه نظيف الثياب، وليس في ملامحه ما يشي بإصابته بمرض ظاهر. ولما لم يبق غيره أمامي سألته عمّا يشكو منه، فأجابني في شبه تردد: لست مريضاً، إنما جئت أسألك سؤالاً. قلت: تفضل واسأل. قال: منذ أيام عضني كلب... أترى في عضة الكلب ما يضر؟ قال هذا وهو يكشف لي عن ساقه اليسرى فبان لي في ربلة الساق أثر جرح سائر إلى الاندمال. وكرر لي سؤاله قائلاً: أترى في هذه العضة ما يضر؟

مثل كل طبيب أمام مثل هذه الحالة رحت أستفهم من الرجل وأسأله: منذ متى عضك ذلك الكلب، وهل تعرفه، وهل لا يزال

حياً؟ أجابني قائلاً: أعرف الكلب، فهو كلب منزل أناس أعرفهم، وهو لم يعد حياً... قتلته بمسدسي هذا حين أنبت أنيابه في ساقي... ومن حسن الحظ أني فعلت ذلك وقبل أن يبتعد عني، إذ خرست الطلقة لقرب المرمى فلم يسمع أحد صوتها... كان ذلك ليلاً، بعد العشاء، ومنذ خمسة أيام! قلت للرجل: بل لعل ذلك لسوء الحظ... لو ظل الكلب حياً بعد عشرة أيام من عضه لك لحكمنا بأنه سليم من داء الكَلَب. أما الآن فلا بد من سوقك إلى المستوصف الحكومي لتأخذ الحقن الواقية من ذلك الداء، فما من أحد يضمن لنا سلامة ذلك الحيوان من السعار... لماذا لم تراجعني قبل الآن؟

جمجم الرجل لسؤالي الأخير هذا وتمتم. وراح يرجوني أن أصف له علاجاً لا يحيجه إلى التردد على المستوصف، لئلا يتسامع معارفه بأنه تعرض لعضة كلب في ذات ليلة. قلت له: ليس في عضة الكلب ما تتخوف له من كلام الناس عنها، وكان الأجدر بك أن لا تتأخر في مراجعة الطبيب إلى اليوم. قال: ما كنت أنوي التحدث عن هذه العضة إلى أحد، ولكني تغلبت على ترددي وجئت إليك... الكلب، يا حكيم، هو كلب دار أعرفها جيداً... هاجمني وأنا أحاول، في غفلة الأهلين، أن أتسلل إلى التي أحبها، تلك التي تسكن في تلك الدار!

وأضفت وأنا أحدث صاحبي، فقلت له: وهكذا يا يوسف بك يا أخي، تجد مأزق ذلك البدوي أخطر من مأزقك بكثير، وقد زجّ نفسه فيه لأنه كان، مثلك، عاشقاً. الخطر الذي كان يتهددك أنت هو فضيحة تدوم يوماً وليلة. وفي أقصى الأحوال كان يمكن أن تفارق الدنيا، تحت عجلات السيارة التي كادت أن تقضي عليك.

أما ذلك المسكين فإنك لا تتصور ما كان مهدداً به لو لم يراجعني قبل خمسة أيام من انتهاء مدة فاعلية اللقاح ضد داء الكَلَب. كان سيغدو مسعوراً، وسيموت حتماً... ليس الميتة الهادئة التي كانت تهددك، بل ميتة شنيعة لا يصل إليها قبل أن يمر بمراحل من العذاب المرير. يصاب بالسهاف، وهو ظمأ جنوني لا يستطيع إرواءه لأن مجرد رؤية الماء تثير فيه تشنجات حادة تصل إلى درجة الاختناق، كما أن أشعة الضوء تبدو له كأسياخ محماة تنغرس في كرتي عينيه. يصرخ ويعوي ويهذي، ويصبح خطراً على نفسه وعلى من حوله قبل أن يفارق الحياة في نوبات تشنج مريعة. كل ذلك تقبّله ذلك الرجل، وسكت عليه، وتردد في محاولة الخروج منه، لأنه كان عاشقاً! مساكين أهل العشق...

* * *

عندما انتهيت من رسم صورة العذاب الذي كان يتهدد مريضي البدوي ليوسف بك، رأيت التجهم الذي كان يكسو وجه صاحبي يتلاشى، فتنبسط أساريره وترتسم على شفتيه ابتسامة بين الرضى والاستكانة. وسمعته يتمم من نفسه كلمات ذلك البيت من محفوظاتي في أيام الصبا قائلاً:

ـ الحق معك... ما كنت أشتري جميع قلوب العاشقين بدرهم!

١٩٨٥/٦/١٠

تقشير الخيار بالسيف البتار

لقيت منذ أيام معلمي القديم الأستاذ عمر فأخذ بيدي وقال:

ـ تعال سايرني قليلاً. لم أرك منذ زمن طويل وإن كنت أتابع أخبارك وأقرأ لك بين الحين والحين. ماذا تكتب لنا في هذه الأيام؟

فسرت معه في الشارع الذي كان مقفراً إلى الحديقة العامة التي أعرف أنه يقصدها كل أصيل، وأجبته قائلاً:

ـ تعلم يا أستاذ ان الكتابة ليست مهنتي... أمارسها في أوقات فراغي. أنا الآن في سبيل كتابة رواية بعنوان «الأيقونة».

قال: وما هو موضوعها؟

قلت: إنها مجموعة من الذكريات والأحداث تربط بينها أيقونة. منذ عدة سنوات طلبت مني زوجة صديق عزيز عليَّ في بيروت أن أبحث لها في حلب عن أيقونة قديمة، أصيلة، لتقتنيها وتتبرك بها، وقالت إنها مستعدة لأن تدفع ثمنها مهما كان مرتفعاً. كنت في الواقع أنوي أن أقدم لها الأيقونة هدية عندما أجدها.

سألني الأستاذ عمر: وهل وجدتها؟

قلت: لم أعثر على واحدة ترضيني في ذلك الحين. ولكني، في تنقلي باحثاً بين مقتني التحف القديمة وتجار الآثار والكنائس العريقة في مدينة حلب، سمعت حكايات وقابلت أصنافاً من الناس وعرفت أموراً تستحق أن تسجل كتاريخ وأن تروى كأدب. ومنذ ذلك الحين ظلت تراودني فكرة تأليف رواية حول ما شاهدته وعرفته في جولاتي بحثاً عن الأيقونة. وأنا الآن، وبعد أن تقضت سنوات على تلك الجولات، مكب على كتابة هذه الرواية. أعتقد أنها ستكون رواية جميلة ذات موضوع مبتكر، وأنها ستعجب القراء.

قال الأستاذ عمر بعد أن سمع مني هذا الكلام: ستكون رواية جميلة بلا شك. فما تكتبه شيّق دوماً ويستحوذ على اهتمام من يقرأ لك. ولكني أرى أنك في هذا تقشّر الخيار بالسيف البتار...

كنا قد وصلنا، الأستاذ عمر وأنا، في تسيارنا إلى حديقته المألوفة، فدخلتها معه وجلسنا على مقعد منزوٍ في أحد جوانبها. قلت له، بعد أن أدرت في ذهني عبارته الأخيرة مرات:

ـ لم أفهم يا أستاذ ما تقصده بتقشير الخيار بالسيف البتار.

قال: السيف البتار هو قلمك يا ولدي. وما تكتبه عن الأيقونة والذكريات حولها هو تقشير الخيار. أترى السيوف الباترة صنعت ليقشّر بها الخيار ويقطع بها الباذنجان؟

ضحكت ضحكة خفيفة لهذا التشبيه الذي لم يخطر لي على بال، وسألته بدوري:

ـ وماذا تريد مني أن أفعل بسيفي البتار؟

قال: ليس منك وحدك. أنت واحد من كثيرين. أنتم الذين تحملون الأقلام التي هي سيوف باترة. ما علمناكم، نحن مربيكم وأساتذتكم، حمل هذه السيوف لتفعلوا بها ما تفعلون الآن...

قلت: أعذرني يا أستاذ. حتى الآن لم أفهم ما الذي تأخذه عليَّ، أو علينا نحن تلامذتكم، في استخدامنا أقلامنا. إننا ننتج بها أعمالاً تعجب الناس وتترجم إلى كل اللغات ويصفها الجميع بأنها روائع أدبية وفكرية.

فسكت معلمي الشيخ قليلاً وهو يجيل نظره في جوانب الحديقة قبل أن يقول:

ـ ألا ترون العالم أمامكم وحولكم؟

قال هذه الكلمات بلهجة أسى تبين لي من خلالها بعض ما تبطنه كلماته العاتبة. ومع ذلك فقد أجبته، مكابراً:

ـ بل إننا نراه. إنه عالم جميل، وفي تطور مستمر... تطور إلى الأفضل!

فتطلع إليَّ بنظرة ثابتة وقال: هل أنت جاد في كلامك؟ الفساد المستشري في العالم وبين الناس، والكوارث التي هي ليست من صنع الطبيعة وعناصرها الجبارة بل التي يصنعها أخوك الإنسان بجهله أو بالشر الذي يملأ نفسه، والحقوق المهضومة، والحرمات المهتوكة... هل كان هذا تطور إلى الأفضل؟!

قلت: لنفرض جدلاً بأني أوافقك على حكمك المأسوي على عالمنا... فأي ذنب لنا، نحن الذين نكتب، في هذا؟ وما الذي تطالبنا به على التحقيق؟

قال: أطالبكم بأن تكون كتاباتكم في هذا. إنها مسؤوليتكم. مسؤولية أن تعملوا أقلامكم في الفساد الذي يسود هذه الدنيا والمصائب التي تنزل عليها متلاحقة، وليس في تقشير الخيار، أعني في تأليف روايات عن الأيقونات والذكريات التي تثيرها الأيقونات.

ابتسمت وأنا أتذكر بحدة كلام الأستاذ عمر لهجته القديمة في تقريع طلابه المقصرين أيام تتلمذنا عليه. وسكت قليلاً قبل أن أردّ عليه بقولي:

ـ الحق معك فيما تلومنا به يا أستاذ. ولكن...

فقاطعني قائلاً بالحدة نفسها: ولكن ماذا؟

قلت: إحلم، سيدي، عليَّ. أنت تتحدث من موقع المتفرج، بينما نحن نعيش واقعاً نضطر فيه إلى كتابة هذا الذي نكتبه ولا يرضيك أنت.

قال: وما الذي يضطركم؟ أهو الخوف؟

قلت: فلنسمّه الحذر. قد يكون واحدنا شجاعاً لا يبالي بما يمكن أن يصيب شخصه، إلاّ أنه يظل في حذر مما يمكن أن يصيب الآخرين بجريرته.

قال الأستاذ، وقد تطامنت حدته: لم أفهم عليك يا بني.

قلت: أسوق إليك مثالاً شخصياً. المثال قديم، يعود إلى أكثر من ثلاثين عاماً، فالتمثل بالجديد أمر ليس هيناً. في ذلك الزمن البعيد عدت من زيارة لي في العراق الذي كان يرزح تحت أحكام عرفية قاسية فرضتها عليه حكومة نوري السعيد. كتبت عند عودتي مقالاً

نشرته إحدى المجلات السورية في دمشق، عنوانه «عنتر في بغداد»، تحدثت فيه عن مشاهداتي من حسنة وسيئة في ذلك القطر العربي. وأعجب بهذا المقال أصحابي العراقيون الذين لقيتهم في بغداد، وكان منهم الصديق الأستاذ خالص عزمي صاحب مجلة «الأسبوع»، فأعاد نشره هناك في أحد أعداد مجلته. إلاّ أن ذلك العدد صودر وفرضت غرامة بمبلغ من الدنانير لا أذكره الآن على الأستاذ عزمي لتجاوزه محظورات الأحكام العرفية. وحدث بعد ذلك بعام أن ألغيت تلك الأحكام العرفية واطمأن رجال الصحافة إلى أن من حقهم أن يتنفسوا بحرية، فأعادت «الأسبوع» نشر ذلك المقال المحظور، فكان أن صدر أمر نوري السعيد بإلغاء امتياز المجلة من أساسه. وبهذا فقد صديقي خالص عزمي مجلته نهائياً...

قال الأستاذ عمر متمثلاً:

ومن ظن ممن يلاقي الحروب أن لن يصاب فقد ظن عجزاً

وأضاف: هذا بيت شعر قديم للخنساء، يصدق عليكم كما يصدق على كل من يقوم بواجبه. من المنتظر أن يحدث لصديقك ما حدث له. المهم أنه قام بواجبه.

قلت: ولكنه خسر ماله وحرم من مجلته يا أستاذي، وبسببي أنا. لست مستعداً أن أجلب لأصدقائي هذا النوع من المكاسب.

قال: صاحبك أشجع منك دون شك. أنا أجزم أنه كان يتوقع ما أصابه، ولم يتراجع مع ذلك عن نشر المقال وعن إعادة نشره. خسارة المال ليست شيئاً أمام راحة الضمير.

لم أعرف كيف أقنع الأستاذ عمر بأنه يطالب الكتّاب بأمر يفوق طاقتهم، وقلت:

ـ ليس المال وحده يا أستاذ. أعرف رجلاً حرمت عليه بلاده، وبلاد كثيرة غيرها، لأنه لم يقنع بأن يقشّر الخيار، مثلي، بسيفه. كلما زرت باريس جالسته في مقهى الكريستال بجانب قوس النصر هناك وسمعت من حسراته لفراقه وطنه ما يبعد عني كل رغبة في بطولة من نوع بطولاته.

سألني الأستاذ عمر: وأي بطولة قام بها هذا الرجل؟

قلت: استخدم قلمه فيما تريده أنت يا سيدي. أول ما أصابه أنه اضطر إلى الهروب بنفسه من عاصمة بلاده إلى بيروت. لا تنس أني لا أسوق إليك الأمثلة من الحاضر بل من الماضي القريب، في الزمن الذي كانت فيه بيروت موئل الحرية للمهددين في حريتهم. كانت لهذا الرجل شهرة في الكتابة تفتح له أبواب الصحف أينما ذهب. كتب أول ما كتب مقالاً لجريدة «النهار» في تلك المدينة. وحينما قرأ الأستاذ غسان تويني، رئيس تحريرها، مخطوط ذلك المقال رفع رأسه إلى رجلنا ذاك وقال له: سننشر لك ما كتبته... وإنما ليكن في علمك أنك ستحكم لأجله بخمس عشرة سنة من السجن في كل بلد عربي تدخله جريدتنا...

سألني الأستاذ: وهل نشر المقال؟

قلت: لا، طبعاً. ومع ذلك فإن بيروت، على سعة صدرها في تلك الأيام، ضاقت بصاحبنا إلى أن انتهى به قلمه ولسانه إلى أن يتحرق حسرات في مقهى الكريستال بجانب قوس النصر في العاصمة الفرنسية..

* * *

لم يبد على الأستاذ عمر أنه اقتنع بما أقوله. لقد ظل على إصراره

على أن واجب الكتّاب الجديرين بهذه الصفة أن يشرعوا أقلامهم ليحاربوا الإعوجاج أينما كان في هذه الدنيا وأياً كان مصدره، قبل أن يشغلوها بالإبداع الفني. ولما كنت أعرف تعلقه بالتاريخ وبالماضي البعيد الذي طالما لقننا الدروس فيه، فقد رأيت أن أضرب له مثالاً منه، فقلت له:

ـ كأنك تريد للأدباء في هذا الزمن مصيراً كمصير بشار بن برد...

قال: وما دخل بشار فيما نتحدث فيه الآن؟

قلت: أنت الذي أخبرتنا أنه فقد حياته حين نظم في فساد الحكم في أيامه بيتين كان فيهما هلاكه تحت السياط.

وهنا تلا الأستاذ بيتي بشار المشهورين:

بني أمية هبوا طال نومكمُ
إن الخليفة يعقوب بن داوود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفة الله بين الزق والعود

ثم تابع قائلاً: ذاك كان شاعراً هجاءاً خبيث اللسان، لم يقل ما قاله طلباً للصالح العام، فلاقى جزاءه. أما ما أريده من الكتّاب الحقيقيين فهو شيء آخر. أريد منهم أن يكونوا بنّائين في نقدهم، إيجابيين في ما يوظفون أقلامهم فيه.

وكانت الشمس في هذه الأثناء قد قاربت المغيب، فتذكرت أن عليّ موعداً انشغلت عنه برفقتي لمعلمي القديم وبحديثه. رحت أعتذر منه لاضطراري إلى مفارقته، وقلت له ممازحاً:

ـ سأبلغ دعوتك هذه يا أستاذ إلى أدبائنا الذين اتخذوا من الكتابة

مهنة لهم. أنت حريص على أن ترى هالات الشهادة حول رؤوسهم، ولكني لا أعرف كثيراً منهم ممن يرغبون بهذه الهالات. أما أنا فلست، على ما تعرف، كاتباً محترفاً. أعذرني إذن إذا رأيتني أتسلّى بين الحين والحين بتقشير الخيار بالسيف الذي في يدي، وإذا عدت إلى إكمال روايتي التي بدأتها عن الأيقونة...

قلت هذا وأسرعت في ابتعادي عن الأستاذ عمر. فلم يعد لديَّ مزيد من الوقت أبقى فيه معه، ولا كانت لي رغبة في سماع مزيد من تأنيبه أو من استنكاره لما أؤلف وأكتب.

١٩٨٥/٦/٢٨

يداك أوكتا...

(جواب على رسالة شكوى)

صديقي العزيز

أحييك، راجياً أن لا تعتب عليَّ إذ يجيئك جوابي متأخراً. رسالتك لم تصل إليّ إلاّ منذ يومين. معنى ذلك أن رحلتها من يدك إلى يدي استغرقت من الوقت ثلاثة أسابيع بالتمام والكمال. ومع ذلك فليس لك أن تستغرب أو تستكثر هذه الأسابيع الثلاثة. فالتأخر هو عادة البريد المألوفة في هذه الأيام في كل مكان، أو في شرقنا العربي على الأقل. ربما كان علينا أن نحمد حظنا أن يقتصر الأمر على تأخر وصول رسائلنا إليها، فلا تفقد في انتقالها من بلد إلى آخر، ولا سيما إذا كان محتوى تلك الرسائل مشهياً ومغرياً.

كان من عادتي أن أبعث إلى أصدقائي، من كل بلد أحله في أسفاري المتعددة، بطاقات بريدية مصوراً فيها أجمل ما تقع عيني عليه من مناظر أو من روائع فنية تضمها متاحف العالم المختلفة. إلاّ أني تركت هذه العادة في الزمن الأخير. تبين لي أن بطاقات تحتوي صوراً من أمثال تمثال القبلة لرودان أو آمور وبسيشيه لكانوفا،

وروائع فنية مشابهة، أقول تبين لي أن بطاقات مثل هذه تختفي دوماً في الطريق إلى من أرسلها إليهم. كنت، مثلاً أتحف بعض أصحابي بصورتي اللوحتين المشهورتين، مايا الكاسية ومايا العارية، اللتين رسمهما غويا لدوقة آلبا، في كل زيارة لي لمتحف البرادو في مدريد. إلاّ أن من أبعث بهاتين الصورتين إليهم يفتقدون في غالب الأحوال وجودهما في المظاريف التي يتلقونها مني. وإذا أسعد أحدهم الحظ فإنه يجد في مظروفه صورة مايا الكاسية وحدها، إذ يبدو أن من مد يده إلى ذلك المظروف معجب بعري دوقة آلبا لا بالثياب المفوفة التي كساها بها غويا في اللوحة الأخرى...

هذا عن بطاقات البريد المصورة والممثلة لروائع الفن من لوحات وتماثيل. أما عن الكتب والدوريات المطبوعة وما شابهها فإن مصيبتي أنا وأصحابي فيها كبيرة. كثيراً ما تشاكيت وإياهم أمر فقدان الكتب التي ترسل إلينا أو نرسلها نحن في البريد، حتى المسجّل منه. وفي ذات مرة كتبت إلى الصديق الدكتور عيسى الناعوري رسالة عرجت فيها بالحديث عن هذه المشكلة وتساءلت عما إذا كان السبب في فقدان الكتب أن اللصوص أصبحوا في هذه الأيام مثقفين فنسعد بذلك، أم أن المثقفين أصبحوا لصوصاً فنأسى له؟ وقد تلقف الدكتور الناعوري هذه الكلمة فعقد عليها مقالاً في زاويته من جريدة الدستور، ناقلاً لها على لساني، مما سبب لي بعض العتب ممن قرأوا مقاله وظنوا أني أعنيهم بكلمتي. ولم يرتفع عني عتبهم إلاّ حين أقنعتهم بأنهم كانوا بعيدين عن تفكيري حين تساءلت ذلك التساؤل لأنهم، أعني أولئك العاتبين ليسوا من هؤلاء ولا من أولئك...

وبعد، فأحسبك يا عزيزي تقول الآن إني، فيما كتبته لك، أذكرك

بالتعبير الشائع: لا تشك لي فابكي لك! وذاك لأني أجبت على شكواك بشكوى مثلها. وكان المنتظر أن أواسيك فيما تذمرت منه في رسالتك وأن أخفف من ضيقك به. وهو ما أشك في فعلي له، وستعلم مني لماذا.

شكواك يا صاحبي تتلخص في أن الرجل الذي أحسنت إليه وأحطته بالرعاية والعناية، فارتفع بفضلك من الحضيض إلى مناصب ما كان يحلم بتسنمها في يوم من الأيام، هذا الرجل خانك وانحاز إلى خصمك. وقد فاضت رسالتك بالمرارة من فعلته هذه، ومما اكتشفته من مؤامرات كان يحيكها ضدك في وقت كانت يدك فيه تحمل إليه الطيبات وتدسها في حلقه. وبعض المرارة في رسالتك كان مبعثها ما اعتبرته أنت غباء منك حين غفلت عن لؤم ذلك الرجل. فضعة منبته وحقارة بداياته، على ما كتبت لي في الرسالة، كانتا جديرتين بأن تحذراك من احتمال انقلابه عليك في ذات يوم. إلاّ أنك غفلت عن ذلك الاحتمال وظننت أن إغراقك إياه بالفضل وتنصيبك له في مكان ليس مؤهلاً لها سيجعلان منه عبداً مقيداً بإحسانك الذي لا يمكن أن ينساه أو يجحده.

أبدأ فأقول إن هذه الشكوى التي سقتها إليَّ في رسالتك ليست الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات البشرية. الجحود ونكران الجميل ديدن متبع ومشهود في كل الأمكنة وكل الأزمان. ولا بد أن بصرك يقع يومياً أكثر من مرة على اللافتات المعلقة في المكاتب والمحلات التجارية وأبهاء المنازل والتي تحمل هذه الحكمة المشهورة: «إتّق شر من أحسنت إليه». فكأن إساءة من تحسن إليه، إليك، أمر محتم عليك أن تتهيأ له وتأخذ منه حذرك. وفي هذا المجال أروي لك حكاية تنقل عن الدكتور و.، الذي ما أظنك إلاّ وقد سمعت

باسمه. فهو رجل معروف في بلده، كان في أحد العهود البائدة ذا مقام سياسي بارز. كان الدكتور و. ذات مرة يتمشى على كورنيش الشاطىء في بلدته الساحلية، وذلك بعد أن دالت دولته وظهر عليه خصومه السياسيون، فوقفت إلى جانبه سيارة للبلدية فيها ثلاثة رجال تعاونوا على رفع برميل قمامة في السيارة وألقوا محتواه عليه. تطلع صاحبنا إلى الرجال الثلاثة، متفرساً فيهم، وقال: أنت يا فلان أعرفك... جئتني تشكو الفقر وكثرة العيال فعينتك في هذه الوظيفة في البلدية... وأنت الآخر أعرفك جيداً، فمنذ فتحت عيادتي في هذه المدينة وأنا أعالجك وأسرتك مجاناً... أما أنت أيها الثالث، فلا أذكر أن عيني وقعت عليك قبل اليوم... لم أحسن إليك بشيء فيما مضى، فما الذي يدفعك الآن إلى الإساءة إليّ؟!

إتق شر من أحسنت إليه! لا تحسب يا صديقي أني ممن يحبون هذه الكلمة، فأنا أثور دوماً في وجه من يعلقها مكتوبة في لافتة، في منزله أو مقر عمله، من أصحابي. إنها كلمة تدعو إلى التقاطع وتسد سبيل فعل الخير أمام فاعليه. وإذا كان من لوم في هذا المجال فإن جزءاً كبيراً منه يقع على فاعل الخير نفسه حين لم يحسن وضعه في موضعه... كما فعلت أنت، مثلاً، يا عزيزي. من قراءتي لشكواك أجدني مسوقاً إلى أن أردد عليك المثل العربي القديم: يداك أوكتا وفوك نفخ. هذه الكلمة، كما يذكرها الميداني في مجمع الأمثال، قيلت لسابح قصد جزيرة في البحر على زق نفخه وما أحكم نفخه أو أنه ما أحسن ربط فوهته بعد النفخ. أشرف ذلك السابح على الغرق حين أخذ الهواء يتسرب من الزق والشاطىء بعيد منه، فراح يستغيث ويشتكي مما أوقعه به الزق، فقال له الآخر: لا تلم غير نفسك... يداك أوكتا وفوك نفخ!

أرجو أن لا تعتبرها مني شماتة إذا جبهتك بلومي هذا. أنت انتقيت رجلك الذي تشتكي منه اليوم، على الرغم من سابق معرفتك بعيوبه. فضلته على من هو أجدر منه بأن ينال قربك وبأن يتولى ما أسندت إليه من مناصب. قلت لنفسك إن هذا الهش الدنيء سيظل طوع بنانك لأنك أحللته، على ضعفه وحقارته، محل الخيرين الأكفياء. فانظر إلى ما فعله بك البغاث حين استنسر. مرة أخرى أقول لك: لا تشتك... يداك أوكتا...

أعرف أنك في هذه اللحظة تبتسم لنفسك، على الرغم من مرارة شكواك، وتقول من أين جئت لي بهذا المثل الذي يحتاج إلى قاموس لفهم مفرداته. حسناً... سأعيد عليك المعنى ذاته في صيغة ترضاها وتلقى هوى من نفسك، أنت الذي تقول بالتقدمية وتشغف بالمعاصرة. صيغة تؤدي أحسن الأداء ما أريد التعبير عنه لك. إنه مثل روسي يخاطب من حالهم مثل حالك وشكواهم مثل شكواك فيقول لهم: تصنعون الأصنام من الثلج، ثم تشتكون من أنها تذوب!

لك مني، في الختام أطيب التمنيات، واسلم لصديقك.

ع

١٩٨٥/٩/٢٣

جامعة لوزان الجديدة

كانت مضيفتنا، السيدة السويسرية الكريمة، قد تجولت بنا في قلب مدينة لوزان، فزرنا كاتدرائيتها التي بنيت في القرن الميلادي الثالث عشر، وألقينا نظرة معجلة على أبنية جامعة لوزان القديمة. وفي طريقنا بالسيارة إلى جنيف أشارت بيدها إلى غابة كثيفة من الأشجار على أيمن الطريق، تقوم فيها أبنية ضخمة متعددة ليس فيها أثر من الطراز القوطي الذي طبع لوزان بطابع العصر الوسيط. أشارت بيدها وقالت: هذه جامعة لوزان الجديدة... لم تعد مباني القرون الوسطى كافية لاحتضان التقدم العلمي في كل مجال، فأنشئت هذه الجامعة الحديثة لتحتضن علوم العصر الحاضر، وسويسرا لا تقصّر في ميادين البحث والتطبيق لهذه العلوم عن أكبر الدول وأغناها.

قلت أنا: ولكنني أراها أبنية متباعدة. ليس فيها تمركز الأبنية الجامعية العريقة في القدم.

قالت: هذا صحيح. بنيت العمارات في الفسحات بين مجموعات الشجر احتراماً للأشجار المغروسة في المكان قبل أن يتقرر إنشاء

هذه الأبنية. الحرص على الشجر واجب وطني لا يمكن أن يتهاون فيه إنسان. وإذا قضت الضرورة الملحة بقطع شجرة واحدة فإن ذلك لا يتم إلاّ بعد أن يقوم استفتاء عام في المقاطعة عليه.

قلت مستفهماً: استفتاء عام؟!

أجابت: نعم، يشترك فيه سكان المقاطعة، أو على الأقل سكان الناحية المعنية بالأمر، فيقررون إذا كان الأفضل قطع الشجرة للضرورة الملحّة، أو الإبقاء عليها. وغالباً ما تكون نتيجة الاستفتاء في صالح بقاء تلك الشجرة الوحيدة في مغرسها...

فطنت إلى أن استفهامي المستغرب كان في غير محله. فأنا أعرف منذ زمن طويل أن هذه هي طريقة السويسريين في تقرير الأمور المتعلقة بالمصلحة العامة، صغيرها وكبيرها. ففي إحدى زياراتي القديمة لمدينة زوريخ حضرت استفتاء من هذا القبيل دار حول مشكلة تتعلق بساحة في المدينة يتوسطها تمثال لعظيم من رجالات المقاطعة القدماء. كان قد جرى توسيع هذه الساحة من أحد جوانبها فلم يعد موقع التمثال يحتل الوسط الهندسي لها. ومن هنا نشأت المشكلة... هل ينقل التمثال من موقعه الحالي وينصب في الوسط الهندسي للساحة مراعاة للتناسق العمراني، أم يترك في مكانه مراعاة لوضعه التاريخي وما تعوده الناس من رؤية حيث هو؟

وحلت المشكلة بأن دعي سكان زوريخ إلى استفتاء يقررون ما يرونه في شأنها. وكان الرأي القائل بإبقاء التمثال في موقعه القديم هو الرأي الغالب، وبه أخذ من كان بيده التنفيذ.

* * *

وبالطبع فإن الاستفتاء في سويسرا لا يطبق دوماً على نقل تمثال من

مكانه أو على قطع شجرة لغاية معينة. إلاّ أن المواطن السويسري يشترك باستفتاء على أمور مثل هذين بجد واهتمام كجده واهتمامه بالاستفتاء الذي طرحته سلطات الجمهورية الكونفدرالية في ذات يوم حول ما إذا كان الواجب أن تتزود سويسرا بالسلاح النووي أو أن تقتصر في قوتها الدفاعية على الأسلحة التقليدية. ويكاد يكون أول ما يقوم به ذلك المواطن في أيام الآحاد، قبل توجهه إلى الناحية التي ينوي قضاء عطلة الأسبوع فيها، هو أن يمر على مركز الاقتراع ليلقى الورقة التي تحمل رأيه في الاستفتاء المطروح في ذلك الأسبوع.

وأذكر اليوم كذلك أن أمراً آخر، غير الاستفتاء على نقل التمثال، أثار في نفسي استغراباً كما ساق الابتسامة إلى شفتي، في زيارتي القديمة تلك لزوريخ. ذلك أني قرأت آنذاك في إحدى صحفها إعلاناً عن دعوة للترشيح لمنصب عضو في مجلس بلدية إحدى قرى المقاطعة. كان الإعلان يعدد الشروط التي يجب أن تتوفر في المرشح، من عمر ودرجة تعليم وسواهما من المؤهلات، ويضيف بعد ذلك هذه الجملة «ويفضّل من يحسن العزف على الكلارينيت نظراً لافتقار فرقة القرية الموسيقية لعازف على هذه الآلة.»!

بديهي أن ترسم الابتسامة على شفتي لقراءة هذا الشرط التفضيلي. فما عودتنا الانتخابات في بلادنا، ولا في بلاد العالم الأخرى، على شروط من هذا اللون. ولكن السويسريين لهم نظرتهم الخاصة إلى الحياة وشؤونها. إنها نظرة شعب يبدو للمتطلع إليه من بعد مجبولاً على الاختلاف، وذلك لتعدد لغات أبنائه وتباين مذاهبهم الدينية وانتماءاتهم التاريخية والجغرافية. ولكنه الشعب الذي نبذ مفهوم الاختلاف من سلوكه منذ زمن طويل. فقد مرت القرون عليه وهو

يعيش في سلام وحياد، متجنباً الإنزلاق إلى محارق التهلكة وإلى الحروب التي انزلقت إليها البلدان المحيطة به، وبلاد العالم الأخرى، في ركضها وراء الأمجاد الزائفة والأطماع الجشعة أو بدافع الايديولوجيات الضيقة. ومن المعروف أن سويسرا، على بعد عهدها بالحروب واحترام دول العالم لحيادها، لا تنام على وعود السلامة والاطمئنان إلى المواثيق الدولية، بل إنها تتجهز للحرب وتتسلح لها تجهز وتسلح من يرى تلك الحرب منه قاب قوسين أو أدنى.

وإذا أضفنا إلى سلام سويسرا وبعدها عن الاضطرابات من خارجية وداخلية، إذا أضفنا إلى ذاك جمال طبيعتها الفاتن وبحبوحة العيش التي يرتع فيها سكانها، والنظافة والأمانة والوداعة التي يتصف الناس بها فيها، بدت لعين الزائر الغريب، كما بدت لي في زيارتي الأخيرة لها، كأنها جنة الله في أرضه...

فهل سويسرا كذلك حقيقة؟

* * *

كنا نتحدث في هذا حول مائدة الغداء في جنيف، ورحت من ناحيتي أعدد النعم الدنيوية التي يتمتع بها السويسري والسويسرية في هذه الجنة الأرضية. قال أحد جلوس المائدة، وهو سفير عربي سابق اختار العيش في جنيف بعد اعتزاله المنصب:

ـ كل ما عددته، في حماس، عن النعم التي سميتها دنيوية في هذه البلاد، صحيح. هل سمعت بخط الزلازل الذي يحيط بالكرة الأرضية مائلاً على خط الاستواء؟

قلت: سمعت به... خط وهمي يبدأ بالشيلي ماراً بأميركا الوسطى

والبحر الكاريبي، ثم بساحل الجزائر وجنوبي إيطاليا، ويخترق اليونان وشمالي تركيا حتى ينتهي بأرخبيل اليابان التي لا تهدأ فيها الاهتزازات الأرضية، إذا لم تتحول الاهتزازات إلى زلازل لا تبقي ولا تذر. ولكن... ما دخل هذا الخط بنعمة العيش في سويسرا؟

قال السفير السابق: في سويسرا خط يشبه الخط الذي وصفته يدعى بخط الانتحار. خط وهمي يبدأ بجنيف ويمر إلى الشرق من لوزان مخترقاً برن العاصمة حتى يتلاشى في شمال البلاد. سمي هكذا لأن نسبة الانتحار بين سكان المدن التي تقع عليه تفوق كل نسبة، لا في سويسرا وحدها، بل في بلدان كثيرة غيرها.

قلت: الناس في جنيف وفي ما حولها ينعمون بخير ما ينعم به الناس في أي بلد زرته في العالم. ما الذي يدفعهم إلى الانتحار؟

قال: لا أحد يعلم الدوافع على التحقيق. جو هذه المدينة وأمثالها، على خط الانتحار، جو خانق من الناحية النفسية لمن يعيش فيها بصورة مستمرة. هناك جوانب في النفس الإنسانية تتأثر بمؤثرات يجهلها العلماء والباحثون، غير كفاية الغذاء والأمن الاجتماعي والسياسي.

كان في ما قاله السفير العربي السابق جانب من الحقيقة غير قليل. وقد أكده لي حديث صديقي الطبيب السوري الأصل، الذي يحمل جنسية سويسرية خولته العمل في مركز طبي مرموق في جنيف. زرت هذا الصديق في مقر عمله فغبطته على ما تحت يده من تجهيزات علمية في ذروة التقدم، وعلى أناقة مكتبه ومقدرة سكرتيرتيه الجميلتين، وهنأته على توفيقه في ملء هذا المركز بكفاءة. قال لي: بقي لي من العمل فيه هنا سنتان، أستحق بعدهما

راتب تقاعد مجز وأعود لأعيش في... حلب! قلت مستغرباً: في حلب؟! أنت يا صاحبي سوري المولد حقاً، إلاّ أنه ليس لك في سورية عشيرة أو أسرة تلزمك بالعودة إليها... حتى أرومتك ليست عربية في أصلها... ثم إن زوجتك الفاضلة سويسرية ولك منها ابنة وحيدة تزوجت من سويسري، مدّرس في الجامعة، في مطلع الصيف الفائت... فما الذي يدفعك إلى أن تهجر هذه البقعة التي نغبطك على الحياة فيها وتعود إلى مكابدة ما نكابده في شرقنا المسكين؟ قال وهو يباعد ما بين ذراعيه علامة الضيق والتبرم: أنت لا تدري يا صاحبي... الجو هنا لا يطاق لا يطاق!

* * *

ليس من شك إذن في أن في جو جنيف، وفي العيش على ذلك الخط الوهمي الممتد منها إلى العاصمة برن، رغم كل طيبات الحياة المتوفرة فيهما، شيئاً لا يطاق! ما هو سر ذلك الشيء؟ لعل جامعة لوزان الجديدة التي رأيت أبنيتها مبثوثة بين مجموعات من الشجر لا تقطع واحدة منها إلاّ باستفتاء، لعل هذه الجامعة ستكشف في يوم قريب هذا السر في مخابر أبحاثها وعلى أيدي علمائها الأفذاذ. أم تراه سيظل سراً مغلقاً لأن جنة الله الكاملة الأوصاف لا يمكن أن توجد على أرض البشر في هذه الدنيا، ولو كانت هذه الأرض في سويسرا نفسها!؟

١٩٨٥/١١/٢٢

كتاب بغيض

ما قولك يا صاحبي في كتاب اقتنيته أنا منذ عشرة أعوام، في عام ١٩٧٥، متلهفاً على اقتنائه، حريصاً على تلاوة محتواه باهتمام وروية، ومع ذلك فإن قراءته استغرقت مني عشرة أعوام كاملة، فلم أطبق الغلاف على صفحته الأخيرة إلاّ منذ فترة وجيزة في مطلع الشهر العاشر من السنة الفائتة، سنة ١٩٨٥؟

قد تظن الكتاب الذي أعنيه كتاباً ضخماً، أو سفراً يتألف من عدد كبير من المجلدات، أو تحسبه مخطوطاً، احتجت في قراءته إلى تدقيق وتحقيق حتى أخذت تلاوته مني هذا الزمن الطويل. ليس الواقع كما تظن أو تحسب. إنه، أعني هذا الكتاب، يقع في مجلد واحد. صحيح أن صفحاته من القطع الكبير وأن حروفها أميل إلى الدقة، إلاّ أن عدد تلك الصفحات لا يتجاوز الثلاثمائة إلاّ بقليل. فليست ضخامة الكتاب هي التي أخّرتني عن إتمام قراءته، ولا لغته التي هي الفرنسية مترجمة عن الإنكليزية، ولا حتى ثقل الأسلوب في الترجمة، وإنما هو سبب آخر ستعرفه مما أبينه لك بعد قليل.

يحسن بي أن أخبرك في البدء بأني لم أشتر هذا الكتاب من مكتبة في بلد من بلداننا العربية، فما من كتبي عربي يفكر في أن يستجلب هذا الكتاب أو يعرضه للبيع. جئت به من أوروبا في أحد أسفاري إليها، وحرصت في عودتي منها على أن لا تقع عليه نظرة جمركي عربي أو رجل أمن على الحدود. مجرد قراءة اسم مؤلفه المكتوب بأحرف بيضاء كبيرة على غلافه الأزرق سيسيء الظن بحامل هذا الكتاب، وربما عرضته إلى أن يتلقى درساً في السلوك القويم والإحساس السليم من ممثل السلطة البسيط الرتبة على الحدود حين يصادر الكتاب ويرفع به تقريراً إلى رؤسائه الأعلين.

أنت تتساءل الآن عن كتابي هذا وعن مؤلفه. لا ... لا يذهبن بك الظن إلى ممنوعات الكتب من طراز معين. الكتاب الذي أعنيه مجرد مؤلف في ما تستطيع أن تسميه التاريخ السياسي. عنوانه كلمة واحدة: «بلادي». أما كاتبه الذي قلت لك إن قراءة اسمه تسيء الظن بالحريص على اقتناء مؤلفاته فهو أبا إيبان. نعم أبا إيبان، وزير خارجية إسرائيل لفترة طويلة وسفيرها في واشنطن قبل ذلك، وممثلها في هيئة الأمم المتحدة في أشد فترات الصراع السياسي والعسكري بين العرب والصهيونية.

لا بد لي من القول إن كتاب «بلادي» ، البغيض كما وصفته في رأس هذا الكلام، ليس أول ما أقرأه من مؤلفات أبا إيبان. فقبله قرأت له كتاباً سابقاً لهذا، باللغة الفرنسية المترجمة عن الإنكليزية كذلك، وعنوانه «شعبي». وأنا استبعد أن تكون واحدة من مؤسساتنا الفكرية المهتمة بالقضية الفلسطينية قد ترجمت هذا الكتاب أو ذاك إلى العربية، بغية أن يعرف العربي عقلية عدوه من خلال فكر مساهم كبير في نكبة العرب الكبرى في هذا القرن.

ويحسن بنا أن نعلم أن أبا إيبان نفسه لم يتخلف في يوم ما عن التعمق في معرفة العرب الذي أعد نفسه لاستلاب أرضهم، وذلك بتعلم لغتهم ودراسة نتاجه الأدبي والفكري. فالمعروف أن واحداً من أوائل مؤلفاته كتاب عنوانه «الحركة الأدبية العصرية في مصر»، وأن من بين تلك المؤلفات ترجمته لرواية توفيق الحكيم «يوميات نائب في الأرياف» من العربية إلى العبرية.

وأنت يا صاحبي تتساءل الآن بلا شك، بعد أن عرفت عنوان الكتاب واسم مؤلفه، عما جعلني أنفق في قراءته عشر سنوات كاملة، مع تصريحي لك بأني كنت متلهفاً على اقتنائه حريصاً على قراءته باهتمام وروية. الصحيح أني لم أكن أتابع باستمرار قراءة ما سجله أبا إيبان في مؤلفه هذا، على الرغم من حرصي الذي ذكرته. لم أكن قادراً على تلك المتابعة. ذلك أني في تلاوة ما تحمله صفحات الكتاب كنت مثل من يلوك الحنظل في فمه ويدير به لسانه. صفحات محشوة بالوقائع التي لا مجال لإنكارها، ومعها بالأكاذيب المموهة بالحقائق وبالحقائق المبطنة بالأكاذيب. وكل هذه وهاتيك وتلك، في ضوء ما تعيشه أمة العرب في هذه الأيام، وضوء ما عاشته منذ نشوء محنة فلسطين، أمور جارحة أو أنها تذر الملح على الجروح الحية. ما أن أقرأ منها صحيفتين أو ثلاثاً حتى أجدني فقدت الاحتمال فألقيت الكتاب بين يدي، مؤجلاً قراءته إلى فرصة أخرى أو إلى يوم آخر.

نعم، إن الكتاب مليء بالوقائع وبالأكاذيب المموهة، وفيه مع ذلك من الحقائق ما لا يستطيع المرء تجاهله على الرغم من مرارتها وعلى رغم إدراكنا ما تبطنه من افتراء ودس. نحن نعرف الوقائع التي يرويها أبا إيبان، نعرفها جملة أحياناً وأحياناً تفصيلاً، إلاّ أن إيراده

لها في كتابه بلهجة التقرير والوثوق والاستعلاء يحيلها حراباً في صدورنا وأشواكاً واخزة في أعيننا. حين يقول مثلاً إن عدد اليهود في فلسطين في آخر القرن الفائت كان خمسة وعشرين ألفاً بين أربعمائة وخمسين ألف عربي، يردنا هذا القول إلى واقع عدد اليهود في أرضنا المحتلة اليوم، وهي الأرض التي يجعلها أبا إيبان في عنوان كتابه بلاده، فلا نملك غير أن نطلق من أعماقنا حسرة تحرق أنفاسنا. ومثل ذلك نفعل حين نقرأ في إحدى صفحات الكتاب نص ما هو منقوش على أحد أقواس الملعب الروماني في القدس من أن القيصر تيتوس فيسبازيان قد استعبد العرق اليهودي وهدم أوريشيليم على رؤوس أهلها، ثم نقرأ تعليق أبا إيبان على هذا النص قائلاً إن انتصار جيوش روما ذاك حدث في عام ٧٠ للميلاد، وأن تسعة عشر قرناً قد فصلت بين زوال إسرائل وبعثها من جديد. بعثها؟ نحن نعرف أنه ليس بعثاً، وإنما هو استلاب أرض من شعبها وتزييف دولة جديدة باسم مجتمع مضى على امحائه من عالم الوجود تسعة عشر قرناً. ومع ذلك فإن هذا الاستلاب واقع مرئي لأعيننا، نعجز منذ ما يقارب أربعين عاماً عن تغييره أو عن إضعافه...

وعن الأكاذيب التي يوردها أبا إيبان، ملبساً إياها ثوب الصدق الذي لا يرقى إليه شك، لن أقول شيئاً. لعل معرفتنا بأنها أكاذيب ملفقة كانت جديرة بأن تجعلنا لا ننزعج منها لولا أنه يطلقها من موقف القوة التي زوده بها ضعف العرب في تفرقهم وتخاذلهم، فتبدو كأنها حقائق لمن ليس له قرب من الأحداث.

تبقى الحقائق التي تضمنها كتاب أبا إيبان وقلت إن الإنسان لا يستطيع تجاهلها على الرغم من مرارتها وعلى الرغم من الباطل

الذي بنيت عليه. من المؤلم أن أكثر هذه الحقائق لا يستطيع الواحد منا، في مختلف البلاد العربية، روايتها في مقال مكتوب أو في حديث على جمهور، حتى تلك التي مضى ما يقرب من أربعين عاماً على وقوعها. أما عن الحقائق الحديثة فإن أبا إيبان نفسه يتحدث عن بلبلة المشاعر حول ما يسوقه عنها، متظاهراً بالموضوعية ولكن في استعلاء يملأ نفس القارىء العربي حنقاً. لقد أصدر كتابه بعد عام واحد من حرب تشرين/ أكتوبر، وهو يقول عنها في آخر صفحات هذا الكتاب ما يلي:

«... سيجزم المختصون بالتاريخ العسكري أن الحملة العربية، بعد كسبها الحرب خلال بضعة أيام، انتهت بالانسحاب والفشل، بينما حولت إسرائيل وضعها الفاجع البدئي إلى انتصار نهائي. ومع ذلك فإن هذه الوقائع، على صحتها من الناحية التكنيكية المجردة، ليس لها علاقة بردود الفعل عند الجانبين المتحاربين. وها نحن بعد مضي أشهر عديدة على تلك الحرب نجد العرب لا يذكرون غير انتصاراتهم الأولى ناسين فشلهم النهائي، بينما تتصرف إسرائيل باتجاه معاكس: فالناس فيها يهدسون بمرارة بالمخاطر التي كانوا عرضة لها ويرفضون بعناد التسليم بالانتصار الذي أعقب تلك المخاطر. وحتى هذه اللحظة لا نزال نجد عرباً يحتفلون بانكسارهم وإسرائيليين يلبسون الحداد على انتصارهم».

هل تلومني إذن يا صديقي إذا وصفت لك كتاب أبا إيبان بأنه كتاب بغيض؟! إنه بغيض بوقائعه التي يرويها، وبأكاذيبه، وبحقائقه. ولكن لم يكن لي بد من إتمام قراءته. كنت أتحاشاه فترة بعد فترة ثم اضطر إلى العودة إليه. ووجدت في النهاية أن أضمن

طريقة لإتمام قراءته هو أن أصطحبه حين أسافر في غير سيارتي، وقلما يحدث ذلك، فأعود إليه مقسوراً حين لا يكون تحت يدي، ما أقطع به وقت السفر في المسافات الطويلة غيره. وهكذا قرأت الكتاب بكل الاهتمام، وبكل المضض والأسى، في عشر سنوات كاملة...

لن أتركك يا صاحبي قبل أن أقول لك إن مؤلف أبا إيبان السابق، الذي عنوانه «شعبي»، والذي أخبرتك أني كنت قرأته قبل هذا، كان كهذا كتاباً بغيضاً. لا بغيضاً فحسب، بل إنه بما أثّره بي في إحدى فقراته جعلني ألقيه من يدي وأهرع مسرعاً إلى حيث قئت ما في جوفي. صدقني أن هذا ما جرى لي بعد قراءة واحدة من فقرات أحد فصول ذلك الكتاب. لعلي أروى لك في مرة قادمة مقاطع من تلك التي آلمتني وبلغ بها اشمئزازي، لا من أبا إيبان ذاته بل من بعض مراحل تصرفات أبناء أمتي العرب، إلى أن أصاب بالدوار والغثيان. إلى مرة قادمة إذن يا صديقي العزيز إذا أردت مشاركتي في معرفة طرف من طرق تفكير العدو وأساليب تصرفه، ومعرفة طرف من طرق مقابلتنا لذلك التفكير والتصرف، ومعرفة ما جرته هذه وتلك عليّ وعليك من النقمة والتألم، ومن الاشمئزاز حتى الغثيان.

١٩٨٥/١٢/٦

حمداً لله...

في زيارتي الأخيرة لعاصمة بلادنا التقيت في الشارع بصديقي الدكتور عبد الرحمن. قال لي بعد أن تبادلنا التحية:

ـ لم أرك منذ شهور... منذ استمعت إلى محاضرتك التي جعلت عنوانها: «صدّق أو لا تصدّق». لا أريد أن أطريك فأقول لك كم استمتعت بها. بعض الغرائب التي رويتها والتي دهش لها المستعمون لم تدهشني شخصياً. ولكن حكاية مظاهرة طلاب طوكيو التي شهدتها أنت بعينك أعجبتني حقاً. كانت ضربة معلم أن ختمت بها المحاضرة.

من ناحيتي فهمت لماذا أعجبت تلك الحكاية هذا الصديق. فهو قبل أن يصبح أستاذاً جامعياً كان مدرساً في الثانويات، وقد عذبت وجدانه وأثارت أعصابه خلال حياته المسلكية تظاهرات الطلاب التي يغتنمون بها كل مناسبة لتعطيل الدراسة والتملص من متابعة المقرر في المناهج. والحكاية التي أشار إليها والتي ختمت بها محاضرتي حين ألقيتها منذ بضعة شهور تتلخص بأني خرجت

ذات مرة من سهرة في أحد مرابع طوكيو عاصمة اليابان، وكان ذلك بعد منتصف الليل، فلاحظت أن سيارات الشرطة كانت تملأ الحي وأن أفراداً من البوليس يلبسون الخوذات ويحملون الهراوات كانوا يطاردون فلولاً من الشباب ويتعقبونهم في الأزقة الجانبية المتفرعة من الجادة الكبيرة التي كنا فيها. سألت مرافقي الياباني عن أولئك الشباب وعن تجمعهم وسبب تعقب رجال الشرطة لهم فقال: هذه مظاهرة طلاب... إنهم يتظاهرون احتجاجاً على سياسة الدولة وتصرفاتها في بعض جوانب الحكم التي لم تعجبهم. قلت أنا متسائلاً: مظاهرة طلاب في منتصف الليل؟ لماذا لا يتظاهرون في النهار؟ فتطلع صاحبي الياباني إليَّ مستغرباً تساؤلي وقال: في النهار؟ كيف؟ في النهار هم في المعاهد والكليات يتابعون دراستهم، فكيف تريدهم أن يتظاهروا في ذلك الحين؟!

* * *

تابعت مع صديقي الدكتور عبد الرحمن سيرنا في الشارع من حيث لقيته وقلت له، وأنا أعني تلك المظاهرة وتعليق مرافقي الياباني:

ـ إنها واقعة بسيطة، إلاّ أن من أرويها لهم يعجبون بها. القضية، كما قلت في محاضرتي إذا كنت تذكر، هي في أن كثيراً من الأمور العادية عندنا تُستغرَب في بلاد أخرى، مثلما نستغرب نحن أموراً تعتبر عادية في تلك البلاد الأخرى. ألم يقل باسكال: حقيقة ما دون البيرينه خطأ ما وراءها؟ لا تزال في بالي وقائع كثيرة من هذا القبيل مما مرّ بي في زيارتي لليابان، وغير اليابان من مدن الشرق الأقصى، على الرغم من مضي نحو من خمسة عشر عاماً على تلك الزيارة. وقائع على بساطتها أثارت انتباهي في حينها،

وساقتني إلى أن أقارن سلوك الناس هنا وسلوكهم هناك أكثر من مرة.

قال صاحبي مستفسراً: مثلاً؟

قلت: إليك مثالاً واحداً. أنت تعرف كم يقدس اليابانيون أمبراطورهم هيروهيتو. إنه عندهم سليل آلهة ونصف إله. ينحنون ركعاً عند مروره في موكبه في الشوارع ولا يستحل أي منهم، مهما كانت منزلته من السمو، أن يرفع رأسه إليه إذا حظي بمقابلته، لئلا تلتقي عيناه بعيني جلالة الأمبراطور. هذا واقع يعرفه العالم كله، لذلك كان عجبي كبيراً حين عدت إلى غرفتي في فندقي في طوكيو ذات مساء وأدرت زر التلفزيون فشاهدت ما شاهدته من صور مذلّة لذلك الأمبراطور يعرضها التلفزيون الرسمي على المشاهدين في كل أنحاء بلاده.

سألني الدكتور عبد الرحمن: صور مذلة للأمبراطور؟

قلت: نعم. في الوقت الذي زرت أنا فيه طوكيو كان الأمبراطور وزوجته يقومان بجولة في أوروبا، زارا فيها عدداً من بلدانها واستقبلا في تلك البلدان بحفاوة رسمية تليق بمقامهما الأمبراطوري. كانا في اليوم الفائت قد زارا هولندا ولاحقهما في تلك الزيارة مصورو التلفزيون في كل تنقلاتهما. أن يعرض التلفزيون صور الاستقبال الرسمي كان أمراً منتظراً. ولكن غير المنتظر كان أن يعرض صور ما بعد الاستقبال الرسمي. لا تنس أن اليابان في الحرب العالمية الثانية، وتحت حكم هيروهيتو نفسه، كانت احتلت المستعمرات الأوروبية في جنوب شرقي آسيا وطردت هولندا من جزر أندونيسيا. لم ينس الهولنديون هزيمتهم

المريرة ولا خسارتهم الفادحة في تلك الحرب، ولا كون هيروهيتو هو رأس الدولة التي أذلّتهم وأفقرتهم، فتجمعت جماهير من سكان أمستردام في طريق موكب الأمبراطور الياباني في عودته من الاستقبال وراحت تقذف سيارته بالبيض الفاسد والبندورة العفنة وتصرخ في وجهه بالهتافات المعادية والعبارات المشينة. كل ذلك كان التلفزيون الياباني يعرضه بتفاصيله على المشاهدين له في كل مكان من جزر اليابان...

قال صاحبي كالمتعجب مما أرويه له: أما كان للمشرفين على ذلك التلفزيون أن يوفروا على أمبراطورهم، وعلى أنفسهم، تلك المناظر المذلّة؟ يبدو أن اليابانيين يدينون بمبدأ سقراط في قوله: أفلاطون عزيز عليّ، ولكن الحقيقة عزيزة عليّ أكثر! نحمد الله على أن أحداً في البلاد الكثيرة التي يزورها رجالنا البارزون لا يتعرض لهم بهذا الذي تعرض به الهولنديون لهيروهيتو...

قلت أنا: ومنَ يقول لك هذا؟ لعل الأصح أن نحمد الله على أن الموكلين بالإعلام عندنا ليسوا في تعلقهم بالحقيقة مثل اليابانيين. إنهم يوفرون علينا سماع ما يقال عن رجالنا البارزين ورؤية ما يقابلون به في تلك البلاد. إن لهم أذناً عن الفحشاء صماء، وعيناً عن المزعجات عمياء.

* * *

قادنا الحديث عن اليابان وأمبراطورها هيروهيتو إلى دور هذا الأخير في استسلام بلاده في الحرب العالمية الأخيرة، بعد سقوط القنبلتين الذريتين الأميركيتين على هيروشيما وناغازاكي. قال الدكتور عبد الرحمن:

ـ قرأت في المدة الأخيرة شيئاً عن هذا الدور في ما قرأته. قرأت أن عدداً كبيراً من القادة اليابانيين، وجماهير لا تحصى في صفوف الشعب، كانوا يؤثرون الفناء وامحاء اليابان من الوجود على الاستسلام المهين، ولكن الأمبراطور، وهو في العادة يملك ولا يحكم، قال كلمته فتوقفت كل معارضة للاستسلام التام، وانتهت الحرب بذلك. إلاّ أن ذل الهزيمة لم يكن أمراً تقبل معه الحياة عند اليابانيين صغاراً وكباراً. تجلّى هذا في موجات الهاراكيري، وهو الانتحار على الطريقة اليابانية، التي تلت نزول الحكومة على طلب الأميركيين الاستسلام بدون قيد أو شرط. وزير الدفاع الياباني، واسمه الجنرال أنامي على ما أذكر، ركع في اتجاه القصر الأمبراطوري وبقر بطنه بسيفه بعد أن غرسه في خاصرته اليسرى. قبل أن ينتحر ذلك الوزير خط على قطعة ورق كلمات اعتذار عن الإساءة التي سببها بانتحاره لجلالة الأمبراطور، كما خط على ورقة ثانية مقطوعة شعر يودع بها الحياة...

قاطعت صديقي قائلا: شعر؟

قال: نعم. ليس قصيدة مطولة كالتي رثى بها مالك بن الريب نفسه بعد أن لدغته الحية، وإنما ثلاثة أبيات من نوع الهايكو. ليس وزير الدفاع وحده الذي انتحر، بل إن مجموعات كبيرة من الضباط انتحرت برمتها في وحداتها، كما توجه الكثيرون من المدنيين إلى القصر الأمبراطوري وفتحوا بطونهم هاراكيري أمام شرفاته. سفير اليابان في سويسرا، وهو الذي كان وسيط مفاوضات الاستسلام بين حكام طوكيو وواشنطن، قتل نفسه بعد أن أتمّ الوساطة. حتى الصبيان لم يتحملوا عار الهزيمة. فقد تقدم أربعة أصدقاء في الخامسة عشرة من عمرهم إلى ذويهم وأعلنوهم بأنهم سينتحرون

تحت شجرات الصنوبر قرب قصر الأمبراطور لكي يعينوا جلالته على تحمل فاجعة الاستسلام. عقدت أمهات أولئك الفتية أكفهن على صدورهن علامة الرضوخ وأحنى الآباء رؤوسهم قبولاً بقرار الأبناء، وتقدم هؤلاء...

قاطعت هنا الدكتور عبد الرحمن بقولي له: كفى يا صاحبي. أعرف ما ستقول.. لقد تقدموا نحو واجهة القصر ورفعوا أنظارهم إلى حيث تصوروا أن أمبراطورهم يقف وغرسوا سيوفهم في خواصرهم ثم شقوا بها بطونهم! لا بد لي أن أودعك الآن. ولكن ليس قبل أن أقول لك أن علينا أن نحمد الله على أننا لسنا يابانيين. تصور لو كنا كذلك مع صنوف المذلة التي ما فتئنا نذوقها منذ أربعين عاماً إلى اليوم! أترى يبقى أحد من سادتنا وقادتنا، أو منا جميعاً، على قيد الحياة لو طبقنا الهاراكيري على أنفسنا كما يطبقه اليابانيون؟ الحمد لله إذن.

ضحك صاحبي وقال وهو يشد على يدي مودعاً:

ـ الحق معك. علينا أن نحمده على ذلك حمداً كثيراً، فهو الذي لا يحمد على مكروه سواه.

١٩٨٦/٢/٧

مع العصافير

هو صحافي شاب جاء ليجري معي حواراً ينشره في مجلة سماها لي. قلت له: ما أكثر ما حاورني زملاؤك. ملأت بأجوبتي على أسئلتهم كتاباً ظهرت منه طبعتان، وأنا أستعد لإصدار طبعته الثالثة.

قال: أعرف. إنه كتابك «أشياء شخصية». ولكني هيأت لك أسئلة لم يلقها عليك أحد قبلي.

قلت: هات لأرى.

قال: إبدأ بسؤالك عن أهم حدث أثّر فيك في هذه الأيام، وعلى وجه الدقة في الأيام السبعة التي آخرها هذا اليوم؟

لم أتردد في الجواب، قلت: إنه منظر رأيته في هذا الصباح. فتحت عيني عندما استيقظت فرأيت على حافة شرفة غرفة النوم عصفوراً دورياً يرفرف بجناحيه ويزقزق بجذل. هذا هو الحدث الذي تسأل عنه.

قال الصحافي الشاب: أرجوك ... أنت تسخر مني.

قلت: ولماذا تظن بي هذا الظن؟

قال: أسألك عن أسبوع اهتز فيه العالم من كل جوانبه بالأحداث والانقلابات والكوارث، وتذكر لي عصفوراً يزقزق في الصباح؟

قلت: الأحداث والانقلابات والكوارث التي تعددها أمور تكدر العيش ويضيق لها الصدر. تأثيرها يا عزيزي سلبي ومزعج. أما منظر ذلك الضيف الصباحي على إفريز الشرفة فقد ملأ نفسي بهجة طردت منها المنغصات. لو رأيته مثلي لصدقت ما أقوله لك. تارة كان يرفع رأسه مزقزقاً، وتارة كان يلوي عنقه ويدخل منقاره الوردي تحت جناحه ذي الريش الرمادي المخطط بخطوط ترابية وسوداء، كأنه يدغدغ به اعطافه. وأحياناً كان يدور على نفسه وهو يرفرف بجناحيه كأنه يهم بالطيران، دون أن يطير. يحرك رأسه الناعم بحركات عصبية، دقيقة ورشيقة، تجلو الهم عن القلب...

قال: ما أدق ملاحظتك لحركات العصفور...

قلت: ثم لا تنس أنه أول عصفور أراه في العراء منذ شهور. إنه بشير الربيع بعد أيام الشتاء الباردة. فيما مضى كان الخطاف هو الذي ينبؤنا بقدوم الدفء وازدهار الشجر. ومنذ صرنا نسكن هذه البيوت الاسمنتية ذات السقوف الملساء المستوية، التي لا يجد الخطاف فيها فجوة يبني عندها عشه، هجرتنا الخطاطيف إلى غير رجعة. لم يبق لنا إلاّ العصفور الدوري ليحمل إلينا بشرى قدوم الربيع...

وهنا قاطعني الفتى قائلاً: يبدو أنك كبير الولع بالعصافير.

فسألته: وأنت، ألا تحبها؟

فسكت قليلاً قبل أن يرد عليَّ بقوله: بلى، أحبها... ولا سيما عصافير التين الصغيرة المشوية، تلك التي ليس لعظامها قوام، فهي تذوب تحت الأضراس كأنها الزبدة.

لم يكن يمزح فيما نطق به، بل كان يتكلم في جد ملأني حنقاً. قلت متعجباً:

ـ يا له من حب!

فأضاف يقول، غير منتبه إلى نبرة النقمة في تعجبي:

ـ ثم إني أحب صيد الطيور بمختلف أشكالها. كنت، حتى وقت قريب، أخرج أيام الجمعة إلى البساتين حاملاً بارودتي، وأعود في المساء مليء الجعبة منها. وأنت ألا تحب الصيد؟

وجدتني ابتسم على الرغم مني وقد تحول حنقي إلى سخرية، وقلت:

ـ حقاً إنها أسئلة لم يسبقك إليها أحد.

فبدا عليه الزهو بما اعتبره إطراء له، وقال: ألم أخبرك؟ إذن فليكن سؤالي الثاني هو الآتي: أنت تحب الصيد، ومثل كل صياد لا بد أنك بدأت بصيد العصافير، فما هي ذكرياتك عن صيدك الأول؟

* * *

وبينما راح هو يحكم توجيه آلة التسجيل التي كان يلتقط بها حديثنا إليَّ، وجدتني وقد تلاشى الحنق من نفسي وعدت إلى طبيعتي التي أتقبل فيها الناس على علاتهم وأخاطبهم على قدر عقولهم. لا مانع من أن أسير مع هذا الشاب إلى النهاية ما دمت قد فتحت له بابي ورضيت بمحاورته. قلت له:

ـ أخطأت يا صاحبي حين جزمت بأني أحب الصيد. أما حين قلت بأني صدت العصافير في بدء حياتي فقد أصبت. كان عصفوراً واحداً، صرعته بطلقة مفردة فقطع مصرعه ما بيني وبين الصيد قطعاً باتاً.

سألني: وكيف؟

قلت: سأخبرك. كان في بيت أهلي القديم بضع شجرات رمان تزقزق على أغصانها عصافير الدوري، آمنة من أن يتعرض لها أحد بسوء. وكنت صبياً فرحاً ببندقية الخردق الصغيرة التي اشتريتها بمدخراتي وحملتها لأجربها في عصافير دارنا الآلفة لشجرات الرمان. توب! طلقة واحدة، تطايرت بها العصافير من بين الأغصان فزعة، في جلبة وزقزقة صارخة، مخلفة واحداً منها تحت إحدى الشجرات مضرجاً بدمه. وحين تقدمت لأتناول ذلك العصفور سمعت من ورائي قهقهة المرحوم والدي، ويبدو أنه كان يراقبني، وهو يقول ساخراً: ما شاء الله... هكذا الصيد وإلاّ فلا!

قال محاوري: كأنه لم يعجبه صيدك لعصفور واحد...

قلت: الذي لم يعجبه هو أني صدت مع العصفور ثلاثة ألواح بلور في نوافذ الغرفة المقابلة لحديقة منزلنا الصغيرة، تحطمت بخردق الطلقة الوحيدة التي أطلقتها. خجلت من نفسي في ذلك الحين، واستمر خجلي ذاك في تنفيري من الصيد إلى اليوم. لعله تحول مع الزمن من خجل إلى نوع من تبكيت الضمير، حين أرى كيف يأسف الإنسان لتحطيم ألواح زجاجية لا تحس ولا تشعر، ويقدم دون تردد على تحطيم حياة تتصف بالحس والشعور وربما بالإدراك، وإن كانت هذه الحياة تنبض بين أضلع عصفور صغير.

قال الفتى: أنت تتكلم بالفلسفة يا سيدي. العصافير لا تثير عندك البهجة والفرح فقط، بل تثير الأفكار أيضاً.

تذكرت ما قاله قبل قليل من عصافير التين الطيبة المذاق فضحكت لنفسي وأنا أقول:

ـ تماماً، كما تثير عندك الشهية.

ثم أضفت، وأنا أسترجع الذكريات لنفسي هذه المرة:

ـ وفي بعض الأحيان تثير الحزن والأسى. أذكر ثلاثة عصافير من فصيلة الكناري، حملها إليَّ من لبنان صديق لي هدية، فنعمت بصحبتها أياماً ليست قليلة. ألوان ريشها تغلب عليها الصفرة، إلاّ أن كل ألوان الطيف الأخرى كانت تتآلف فيها بما يسحر النظر، كأنها من تلك التي يسمونها عصافير الجنة. أما تغريدها فكان فتنة للسمع وبهجة للنفس. اضطررت في ذات يوم إلى التبكير في الخروج من منزلي فلم أنقل قفصها، كعادتي كل صباح، من الشرفة إلى داخل الدار، وغفلت الخادم عن أن تقوم بذلك عني. فلما عدت ظهراً فوجئت بها ملوية الأعناق على أسلاك قفصها وقد قتلها حر الهاجرة. ماذا أقول لك؟ امتلأ صدري حنقاً وأسفاً، ولعل الدمع طفر من عيني يومذاك. وإلى اليوم، كلما عاد إلى تصوري ذلك المنظر شعرت بذكرى جريرتي على تلك العصافير المسكينة تخز وجداني...

* * *

كنت، كما أسلفت، أستعيد ذكرياتي لنفسي. ويبدو أن كلماتي المشحونة بالأسى أثرت في محب العصافير على طريقته الخاصة، هذا الصحافي الشاب، إذ وجدته يقول:

ـ الحق معك في حزنك على تلك الطيور الجميلة والحلوة الغناء. أما عصافير الدوري الهزيلة فما الذي يجذبك فيها، وأي فائدة منها؟

أجبت على سؤاله هذا بسؤال من عندي، قلت: هل سمعت بالبارون هانس فون بيرلييش؟

قال: يا له من اسم غريب. من يكون جنابه؟

قلت: هو نبيل ألماني توفي العام ١٩٣٣. لو قرأت كتابه «وسائل حماية العصافير» الذي صدرت طبعته الأولى في العام ١٨٩٩، لوفرت على نفسك هذا السؤال.

فقال في استنكار: في العام ١٨٩٩... في نهاية القرن الماضي إذن. أي قيمة اليوم لمثل هذا الكتاب؟

قلت: إذن دعني أروِ لك شيئاً جرى في عالمنا اليوم. لعلك سمعت بأن الصينيين في أيام ماو تسي تونغ شنوا حملة على الذباب فقطعوا دابره في بلادهم الواسعة. فرضت الدولة على كل مواطن أن يقتل يومياً مائة ذبابة في أيام متعددة من كل أسبوع، وفي أسابيع متعددة. أنت تعرف عدد الصينيين الهائل الذي تكفل لحملتهم بالنجاح. شجع هذا النجاح المسؤولين هناك على مكافحة عصافير الدوري بالطريقة نفسها، استجابة لشكاوى المزارعين مما تلتهمه هذه العصافير من الحبوب والبقول في مواسم البذر والحصاد والقطاف. وهكذا أُلزم كل صيني في المناطق الزراعية بأن يقتل عدداً معيناً من هذه العصافير في الأوقات التي عيّنتها الدوائر المختصة. ونجحت هذه الحملة أيضاً، فخلت حقول الصين الشاسعة الأبعاد من هذا الطائر الأفاق. ولكن تأمل في ما حدث في موسم الحصاد التالي، حين رفع المزارعون في كل أصقاع تلك البلاد

عقائرهم ينادون بالويل والثبور. لقد التهمت الديدان والحشرات، تلك التي كانت عصافير الدوري تتغذى ببيوضها وشرانقها، التهمت نتاج الحقول المزروعة فلم تبق ولم تذر. ألا تراه جواباً كافياً على سؤالك عن فائدة العصفور الدوري؟

ابتسم صاحبي ابتسامة مغتصبة، وقال: أكاد أقتنع بما تقوله. وعلى كل حال، لا أظن كثيرين في أيامنا يحملون أفكارك التي بسطتها لي عن العصافير. الاهتمام بها بهذا الشكل، إذا وجد، هو اهتمام جديد، يبدو كأنه موضة أو صرعة من صرعات هذا الزمن.

قلت: جديد؟ لعلك سمعت بأبي العلاء المعري...

فرد عليَّ مسرعاً بقوله: هذا أعرفه. إنه الشاعر الأعمى الذي أمسك بالفروج المشوي حين جاؤوا به إليه كدواء عندما مرض وقال له: استضعفوك فوصفوك، هلاّ وصفوا لي شبل الأسد.؟!

قلت: أحسنت في حفظك لدروسك يا عزيزي. لو قرأت قصيدته التي حاوره حولها داعي الدعاة عن أذى الحيوان، أو قصيدته الميمية في الديك، لعلمت أن الدعوة إلى حماية العصافير جاءت عندنا قبل كتاب البارون هانس فون بيرليبش بكثير.

قال الفتى: هل تسمح بأن تقرأ عليَّ قصائده التي تشير إليها؟

ولمّا لم أجد مناسباً أن يتحول الحوار بيني وبين الصحافي الشاب إلى حفلة تناشد أشعار، قلت له: سأقرأ عليك بيتاً واحداً يغنيك عن تلك القصائد. يقول أبو العلاء هذا البيت في حيوان طائر أضأل حجماً من العصفور الدوري، وهو بلا شك أقلّ فائدة لنا من هذا العصفور وأكثر ضرراً علينا منه. البيت هو التالي:

إطلاق كفك برغوثاً ظفرت به   أبرّ من درهم تعطيه محتاجا...

سكت محدثي لحظة كأنه كان يتملى من معنى بيت أبي العلاء، ثم ما لبث أن صاح:

ـ لا ... هذا كثير. حتى البراغيث يريد حمايتها؟ يبدو أن ذلك الأعمى كان سخيف العقل.

كدت أقهقه ضاحكاً مما وصف به محاوري شيخ المعرة. أما هو فقد تطلع إلى ساعة يده، ثم إلى الآلة التي كانت تسجل حديثنا وقال:

ـ انتهى الشريط. سيكون حديثاً ممتعاً أنال به ثناء رئيس التحرير. ألا تحب أن تسمع ما تحاورنا به يا سيدي؟

وما جرى بعد هذا كان مفاجأة مضحكة لي، مزعجة للصحافي الشاب. فلعلها خطيئته فيما تكلم به من سوء عن أبي العلاء حلت على جهاز التسجيل. ذلك أنه حين أدار الآلة تبين له أنه أساء ضبطها عندما بدأنا الكلام، فلم يسجل شريطها كلمة واحدة مما قلناه أنا وهو. وبدلاً من حديثنا انبعث من الآلة غناء مطربة توفاها الله منذ أعوام. عندئذٍ تطلع الشاب إليَّ وفي نظرته مزيج من ألم وغضب، فطيبت خاطره بأن وعدته بحوار غير هذا في وقت آخر. أما في سري فقد حمدت الله على ضيعة التسجيل، مفضلاً أن أروي أنا أقوالي وأقوال هذا الفتى لقرائي على أن ينشر هو تلك الأقوال في مجلته لقرائه.

١٩٨٦/٤/٤

عن المال والشهرة والمعرفة

أصبحت المجلة الإنكليزية التي كانت في يدي محور الحديث في جلستنا. فقد تناولها أبو عماد وراح يقلب صفحاتها، وما لبث أن أطلق من بين شفتيه صفير تعجب وسألني:

ـ من أين جئت بهذه المجلة؟

قلت: أعجبتك ولا شك. ورقها الصقيل من أفخر نوع، وطباعتها أنيقة وصورها جميلة.

قال: ليس هذا ما أعجبني... بل ما أدهشني. انظروا يا شباب...

وعرض أمام أصحابنا المتحلقين حول طاولة المقهى إحدى صفحات المجلة، وأضاف: انظروا إلى هذه الصورة على صفحتين.

فمد الرفاق أعناقهم متطلعين إلى الصورة التي بسطها أمامهم. قال هشام:

ـ صورة جميلة لبيت ريفي، تحيط به الأشجار ووراءه يرتفع الجبل. ماذا بها مما يدهش؟

قال أبو عماد: لم تقرأ ما تحت الصورة. إنها لبيت في كاليفورنيا معروض للبيع بمبلغ بسيط يستطيع كل منكم أن يمد يده إلى زاوية جيبه فيجده فيها.. فقط ثمانية ملايين دولار أميركي!

تناولت أنا المجلة من يد أبي عماد وقلت له: إذا وجدت هذا الثمن غالياً فما لك إلاّ أن تستعرض بقية الصفحات لتجد ما يناسبك. تفضل... هنا شقة في الجادة الثالثة في نيويورك قد يناسبك ثمنها... سبعة ملايين دولار. ثم أنظر. هذه شقة في قلب لندن. تأمل ما أجمل العمارة التي تقع فيها الشقة، وما أفخر أثاثها الداخلي. ثمنها فقط مليونان وخمسمائة ألف جنيه إسترليني.

وهنا قال عبد الرزاق: ما هذه الأرقام الفلكية التي تعددها؟ وما هي مناسبتها في هذه المجلة؟

قلت: إنها دورية متخصصة بالعقارات والأملاك الفاخرة المعروضة للبيع في كل أنحاء العالم. إذا كان أبو عماد غير راضٍ عن شقة لندن فهذا إعلان عن قصر بالقرب من العاصمة الإنكليزية لا يتجاوز ثمنه أربعة ملايين وتسعمائة وخمسين ألف جنيه إسترليني...

ردّ أبو عماد عليَّ بقوله: إسخر بي كما تشاء. ولكن خبّرني، من أين جئت بهذه المجلة؟

قلت: إني أتلقاها منذ عامين بصورة منتظمة... ومجاناً. كل عدد من أعدادها له هذا المظهر الفاخر وهذا المحتوى الذي يثير الدوار بأرقامه الخيالية. لا أدري من هو ابن الحلال الذي أعطى ناشريها اسمي وعنواني فأصبحوا يوافونني بها دون انقطاع.

قال هشام: ما فعلوا هذا إلاّ لأنهم يتصورونك قادراً على أن

تشتري، عن طريقهم، شقة بسبعة ملايين دولار أو قصراً بخمسة ملايين جنيه. يجب أن تغتبط بهذا. فالمثل يقول: صيت غنى ولا صيت فقر.

قلت: الحق معك، لولا الحسرة التي تحس بها وأنت تقلب صفحات المجلة فترى أمائر الترف والبذخ والثراء التي يعيش فيها غيرك وأنت على ما أنت عليه.

قال أبو عماد: ولا يهمك. يمكنك أن تداوي تلك الحسرة بالتفلسف. يكفي لإطفائها أن تتذكر كلمة الحسن بن علي رضي الله عنهما عن ظلم الفقراء للأغنياء...

سأله أحد الجلوس: وماذا قال الحسن بن علي؟

فأجابه أبو عماد: قال رضي الله عنه وكرّم وجه أبيه: ما أنصفْنا الأغنياء... نأكل كما يأكلون ونشرب كما يشربون، وهم يوم القيامة في عذاب ونحن مستريحون!

* * *

نطق أبو عماد بكلمته التي نسبها إلى الحسن بن علي بجد، وبلهجة اقتناع أضحكتنا جميعاً، بينما قال محمود:

ـ لم يبق إلاّ أن يتقدم الأغنياء بشكواهم علينا، نحن معشر الفقراء، بأننا لم ننصفهم. دعونا من هذا ولنسأل أخانا، ألم يمل ناشرو هذه المجلة الثمينة من إرسالها إليك مجاناً ما دمت لم تشتر منهم ما قيمته فلس واحد خلال عامين تلقيتها فيهما؟

قلت أنا: لم يملوا. بل إنهم على ما يبدو قد زودوا باسمي وعنواني

دوريات ومطبوعات أخرى أخذت تأتيني ويأخذ تصفحها من وقتي الكثير، عدا ما تسوقه إليَّ أحياناً من المزعجات.

قال أحد الرفاق متسائلاً: مثلا؟

قلت: مثل نشرة تصل إليَّ باستمرار، قد تكون ذات فائدة لصنف من الناس أنا لست منهم، بأن تقدم إليهم معلومات عن تقلبات البورصة وأسعار الأسهم وتتنبأ بمستقبل الإنتاج في مختلف بلدان العالم. إنها معلومات موثوقة تبينت أكثر من مرة دقتها وصحتها، إلاّ أنها بالنسبة إليّ تعطي الأنجاص لمن ليست له أضراس، كما يقول المثل الشامي. منذ خمسة شهور ذكرت لربة بيتي، بناء على ما قرأته في هذه النشرة، أن أسعار الفلفل سترتفع في أسواق العالم، وربما فقد الفلفل من بعض الأسواق فقداناً تاماً. وحين فقدت هذه المادة حقاً من السوق وعجزت أم البنين عن أن تجد حاجتنا منه أنحت عليَّ باللوم لأني لم أتزود بكيس كبير من الفلفل، نتبّل به طعامنا وربما بعنا بعضه فكسبنا منه زيادة مال. بل إنها قالت في ذات مرة إن من أصفهم بالجهل أقدر على حسن التصرف مني، لأني رجل أعلم ولكني لا أستفيد مما أعلم...

قال هشام: أما تستطيع أن تحوّل هذه المنشورات التي تضايقك إلى أخينا عبد الرزاق؟ إذا لم تكسبه مالاً فسيكسب منها شهرة وصيت غنى خيراً من صيت الفقر الذي عرف به.

قلت: عن الشهرة، له عندي نشرات من صنف آخر. إنها دعوات يقترح عليَّ مرسلوها إدراج اسمي في موسوعات من نوع هوز هو، التي تعني «من هو»، تلك التي تضم أسماء مشاهير الرجال في العالم وترجمات حياتهم.

قال عبد الرزاق: هذه تناسبني. ماذا أخسر إذا برز اسمي في هذه الموسوعات إلى جانب أسماء أقطاب السياسة ونجوم الفن وأثرياء العالم؟

قلت: مبدئياً، لست ملزماً بأية خسارة. ولكنك من الناحية المعنوية تجد نفسك ملزماً بشراء نسخة واحدة على الأقل من الموسوعة التي تشرفت بنشر اسمك. ثمن النسخة البسيطة ثلاثمائة دولار، والمجلدة مع التذهيب خمسمائة، ومائة دولار فوقها للتي تحوي صورتك. هناك ست موسوعات على الأقل تطلب التشرف بنشر اسمك في مجلداتها، وعليك أنت أن تحسب كم تكلفك من المال ست نسخ منها.

قال عبد الرزاق: عند هذا قف، أرجوك. أنت، مثلاً، بكم موسوعة اشتركت؟

قلت: ولا بواحدة. شعرت ببعض الحرج أمام ناشرين أرسل لي كل منهما صورة من ترجمة حياتي في طبعة سابقة لموسوعته، مع اقتراح بأن أزوده برسمي ليظهر مع الترجمة في الطبعة الجديدة، فهممت بإجابتهما ولكني تماسكت ولم أفعل.

قال عبد الرزاق: أحسنت بهذا. من ناحيتي أجدني أظلم نفسي حين أدفع ألفا ومائتي دولار لأرى صورتي على صفحة ورق، ما دامت هذه الصورة تطالعني في المرآة، كل يوم، دون أن تكلفني فلساً...

وهنا قال أبو عماد: أنت يا عبد الرزاق إنسان قليل الطموح. ما قيمة المال أمام الشهرة الطائرة التي تضمنها لك هذه الموسوعات؟ الدولارات لا قيمة لها أمام المجد. كأنك لم تسمع قول المتنبي:

لـولا المشـقـة سـاد الـنـاس كـلـهـم

الجود يـفـقـر والإقـدام قـتـال

مرة أخرى ضحكنا من جد أبي عماد المتصنع في كلامه. وتابعت أنا حديثي عن الدوريات التي يحفل بها بريدي كل أسبوع، إذا لم يكن كل يوم. قلت:

ـ هناك حرج من نوع آخر ينتابني أمام مطبوعات معينة، هي المجلات العلمية والفكرية والأدبية التي يكرمني ناشروها بإرسالها إليّ دون مقابل. حاجتي إلى ما تحتويه هذه المجلات كبيرة ومتعتي بها كبيرة. إلاّ أن تراكمها أمامي، في الوقت القليل الذي أستطيع اقتطاعه من ساعات عملي، يثير في نفسي إحساساً مزعجاً من الشعور بالذنب ومن الحسرة ومن الحنق لأني لا أستطيع الاستفادة من نفيس ما يهدى إليّ.

قال أبو عماد: أنت مرهف المشاعر أكثر مما يجب يا صاحبي، ولا أجد مبرراً لهذا الإحساس المزعج الذي تصفه لنا.

قلت: قد أكون مغالياً فيما وصفته. ولكن تصور أمامك ثلاثين دورية، بين أسبوعية وشهرية وفصلية، بثلاث لغات وأحياناً بأربع، ملأى بثمار العلم والفكر والفن وأنت لا تستطيع أن تتذوق من هذه الثمار إلاّ القليل القليل!... ما من لذة أجمل من المعرفة، ولا أزعج للنفس من أن تحرم من هذه اللذة وهي تحمل إليك على طبق...

قال أبو عماد: مرة أخرى أقول لك لا تهتم... تداو من حالاتك هذه بالتفلسف تشف منها.

قلت: أنا معك. فهل عندك من أقوال الحسن بن علي، أو من أشعار المتنبي، شيء في هذا المجال؟

قال: عن المعرفة وحب الوصول إليها عندي حكاية تفيدك.

قلت: تفضل وارْوِها لنا، فكلنا آذان صاغية.

قال: زعموا أن ملكاً توفي وخلفه على العرش ابنه الصبي اليافع، كان الملك الجديد محباً للعلم مولعاً بالمعرفة، فبدأ بأن استدعى إليه نخبة من علماء المملكة وتوجه إليهم بالحديث قائلاً: رغبتي هي في أن أحكم بلادي بأكمل الأساليب التي وصلت إليها البشرية في تاريخها الطويل. ولذا فإني آمركم بأن تدونوا لي تاريخ الإنسان على ظهر البسيطة في مؤلف مستكمل أدرسه وأطبق زبدة نتائجه في حكمي. قال له كبير العلماء: ما تأمر به يا مولاي عمل جليل، ولكنه يأخذ في إنجازه جهداً كبيراً ويستغرق وقتاً طويلاً. قال الملك: خذوا من الوقت ما تريدون... أنا في أول عمري وبمقدوري الانتظار. وانكب العلماء على عملهم حتى أنجزوه في عشرين عاماً بلغ الملك أثناءها متوسط العمر واستبدت هموم الملك ومشاكل الرعية بأفكاره واستغرقت أوقاته. وكانت حصيلة ذلك العمل أربعين سفراً ضخماً، محمولة على جملين، تقدم بها كبير العلماء إلى مليكه. قبل الأرض بين يديه وقال: هذه يا مولاي رغبتكم السامية تحققت... المعرفة الإنسانية في تاريخ البشر كله مدوّنة في أربعين مجلداً. فصرخ الملك مستنكراً: أربعون مجلداً؟! لا وقت عندي لها... إني حريص على معرفة تاريخ الإنسان، وآمركم أن تختصروه في عدد من الأجزاء أستطيع قراءته... اختصروا! وانصاع كبير العلماء لأمر الملك، فانكب هو وزملاؤه خمسة عشر

عاماً أخرى حتى اختصروا المجلدات الأربعين في أربعة مكثفة. ولما جاؤوا بها...

وهنا اعترض عبد الرزاق المتحدث قائلاً: هذه حكاية طويلة يا أبا عماد. اختصر أنت أيضاً...

فهز أبو عماد رأسه مستهيناً بكلام المعترض وتابع يقول: بعد خمسة عشر عاماً عاد كبير العلماء إلى الملك بأربعة آلاف صفحة في أربعة مجلدات ضخمة تحوي موجز تاريخ الإنسان، محملة على حمار. أمسى الملك بعد هذه السنين كهلاً عصبي المزاج حاد الطباع، فصاح بكبير العلماء الذي أمسى بدوره شيخاً محدودب الظهر: أربعة آلاف صفحة؟! لا وقت عندي لقراءة كل هذا الهذر... لا زلت تواقاً إلى معرفة تاريخ الإنسان، فاختصره لي في مجلد أستطيع قراءته... قلت لك اختصر!

عند هذا صاح أكثر من واحد من الرفاق، متوجهين إلى أبي عماد: اختصر... اختصر!

وتعالت الضحكات حول طاولتنا بينما تابع أبو عماد: مرت عشر سنوات، ثم عشر سنوات أخرى عاد بعدها كبير العلماء يحمل كتيباً صغيراً واستأذن على الملك ليبلغه أنه ورفاقه نفذوا الأمر فكثفوا تاريخ الإنسان في مائة صفحة يستطيع جلالته أن يقرأها في ساعة واحدة. كان الملك وقتها مريضاً. بل إنه كان من حياته في ساعاتها الأخيرة. فحين تقدم كبير العلماء إليه بالكتيب وقال: هذه يا مولاي طلبتك... تاريخ الإنسان مكثفاً في صفحات قليلة، رد هو بصوت هامس أخفتته شدة المرض: واحسرتي من أن أموت قبل أن أبرد غليلي بمعرفة تاريخ الإنسان... لم يبق من عمري ما يتسع

لقراءة هذه الصفحات! عندما سمع كبير العلماء مليكه البائس ينطق بهذه الكلمات انحنى عليه في سريره، وهمس في أذنه بصوته المرتعش: تستطيع يا مولاي أن تغادر الحياة قرير العين... سأختصر لك تاريخ الإنسان ومعرفته بثلاث كلمات: إنه يولد، ويشقى، ويموت!

أتم أبو عماد حكايته والتفت إليّ قائلاً: هذه هي الخلاصة. المعرفة التي تضني نفسك وراءها يا صاحبي تنتهي إلى الكلمات الثلاث التي أفضى بها كبير العلماء إلى مليكه قبل مفارقته الحياة. ألا توافقني على هذا؟

ولم أجد ما أرد به على أبي عماد، ولم ينتظر هو ردي. فقد قام مغادراً جلستنا، وتبعناه نحن في القيام مغادرين المقهى كل إلى غايته.

١٩٨٦/٤/١٢

فهرس عام

أ

ب

ت

كتب صدرت للمؤلف

١ - **بنت الساحرة** - قصص - دار مجلة الأديب - بيروت، ١٩٤٨.
٢ - **الليالي والنجوم** - شعر - دار مجلة الأديب - بيروت، ١٩٥١.
٣ - **ساعة الملازم** - قصص - دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٥١.
٤ - **حكايات من الرحلات** - دار المعارف بمصر - القاهرة، ١٩٥٤.
٥ - **قناديل إشبيلية** - قصص - دار الآداب - بيروت، ١٩٥٦.
٦ - **الحب والنفس** - قصص - دار الآداب - بيروت، ١٩٥٩.
٧ - **باسمة بين الدموع** - رواية - المكتب التجاري بيروت، ١٩٥٩.
٨ - **الخائن** - قصص - دار الطليعة - بيروت، ١٩٦٠.
٩ - **رصيف العذراء السوداء** - قصص - دار الطليعة - بيروت، ١٩٦٠
١٠ - **المقامات** - إصدار خاص - ١٩٦٣.
١١ - **دعوة إلى السفر** - دار عويدات - بيروت، ١٩٦٣.
١٢ - **الخيل والنساء** - قصص - دار الآداب - بيروت، ١٩٦٥.
١٣ - **أحاديث العشيات** - محاضرات - وزارة الثقافة العربية - دمشق، ١٩٦٥.
١٤ - **أشياء شخصية** - دار صحافيا - بيروت، ١٩٦٨.
١٥ - **فارس مدينة القنطرة** - قصص - دار الآداب - بيروت، ١٩٧١.
١٦ - **حكاية مجانين** - قصص - دار العودة - بيروت، ١٩٧٢.
١٧ - **السيف والتابوت** - محاضرات - وزارة الثقافة السورية - دمشق، ١٩٧٤.
١٨ - **قلوب على الأسلاك** - رواية - الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤.
١٩ - **ألوان الحب الثلاثة** (بالاشتراك مع أنور قصباتي) - دار العودة/ الكندي، ١٩٧٥.

٢٠ ـ **أزاهير تشرين المدماة** ـ رواية ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق، ١٩٧٧.

٢١ ـ **عيادة في الريف** ـ رواية ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق، ١٩٧٨.

٢٢ ـ **سبعون دقيقة حكايات** ـ محاضرات ـ دار الكاتب العربي، ١٩٧٨.

٢٣ ـ **المغمورون** ـ رواية ـ دار الشرق العربي ـ بيروت، ١٩٧٩.

٢٤ ـ **الحب الحزين** ـ دار الشرق العربي ـ بيروت، ١٩٧٩.

٢٥ ـ **وجوه الراحلين** ـ دار مجلة الثقافة ـ دمشق، ١٩٨٢.

٢٦ ـ **من كل واد عصا** ـ مقالات ـ دار الحوار ـ اللاذقية، ١٩٨٤.

٢٧ ـ **حكايات طبية** ـ دار الشرق العربي ـ بيروت، ١٩٨٦.

٢٨ ـ **فصول أبي البهاء** ـ قصص ـ دار طلاس ـ دمشق، ١٩٨٦.

٢٩ ـ **حفنة من الذكريات** ـ محاضرات ـ دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧.

٣٠ ـ **موت الحبيبة** ـ قصص ـ دار طلاس ـ دمشق، ١٩٨٧.

٣١ ـ **جيل الدربكة** ـ مقالات ـ رياض الريّس للكتب والنشر ـ بيروت، لندن، ١٩٩٠.

٣٢ ـ **فلسطينيات عبد السلام العجيلي** ـ دار فلسطين ـ دمشق، ١٩٩٤.

٣٣ ـ **محطات في الحياة** ـ محاضرات ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق، ١٩٩٥.

٣٤ ـ **مجهولة على الطريق** ـ قصص ـ رياض الريّس للكتب والنشر ـ بيروت، لندن، ١٩٩٧.